

القافلة
العدد 708 | يناير-فبراير 2025



مجلة ثقافية منوعة تصدر كل شهرين
المجلد 74 | العدد 708 | يناير - فبراير 2025



في اليد تجتمع القوة اللازمة للبطش والدفاع عن النفس إلى الليونة التي تجعلها قادرة على التعامل مع أصغر الأشياء وأدقها. ربَّما لا ننتبه في صحتنا إلى معجزة اليد. لكن عند إصابتها، ندرك حجم ما نعجز عن الوفاء به من مهامنا اليومية الاعتيادية. ومع استهلال عام الحرف اليدوية 2025م، نستعيد شيئًا من الحديث عن اليد، بوصفها رمزًا للإبداع والقدرة البشرية.

الغلاف: تصوير عبدالله الشيخ.

الناشر



شركاء النجاح



تحرير وإخراج

طباعة

شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية) - الظهران

رئيس أرامكو السعودية، كبير إدارييها التنفيذيين
أمين حسن الناصر
النائب التنفيذي للرئيس للموارد البشرية والخدمات المساندة
نبيل عبدالله الجامع
نائب الرئيس للشؤون العامة
خالد عبدالوهاب الزامل
مدير إدارة المحتوى وقنوات الاتصال
سامر أسامة عبدالجبار
رئيسة قسم قنوات الاتصال بالوكالة
سارة جهاد الكاظم

فريق القافلة
رئيس التحرير: ميثم الموسوي
شؤون التحرير والقنوات المساندة: عدنان المناوس، شذا العتيبي، سعود الدعيج

ردمد ISSN 1319-0547

تابعونا



العزيمة.. ذخيرة النوايا العظيمة

فريق القافلة

ما الذي يجعلنا نُحبُّ الاستشهاد بالأمثال؟
كانت الأمثال وما زالت مخاض بحث مستمر لدراسات نفسية متكاثرة، وبالتالي قد يصعب تقديم جواب مُحكم لسؤال مفتوح كهذا. لكن الإمساك بطرف عابر من الإجابة قد يجرّنا إلى قدر معقول من الفهم لنفسنا البشرية.

يختزن المثل في وعائه "حكمة" ما؛ درسًا مستفادًا أو قناعة مُستخلصة من تجربة، تتلبَّس بتعبير لغوي جذّاب ووجيز. وقد يكون بعض حُبنا لها ينبع من توقنا لمعرفة تساعدنا على فهم الحياة والتعامل معها بوجه أفضل. أيضًا، غالبًا ما ترتبط الأمثال بقصة، سواءً أكانت من نسج الواقع أو الأسطورة؛ فكأننا نُحبها لأنه تستثير خيالنا للانتقال من لحظة نعيشها إلى أخرى تتقاطع معها بنحو من التشابه، وكأننا حين نتفوه بالمثل نُلقي بظلال الخيال على أرض الواقع.

ولعلنا نُحب الأمثال لأنها تربطنا بامتدادنا البشري؛ امتدادنا الذي يشدّنا إلى جذورنا من الماضي الذي نختزنه في جوانحنا، فنرانا نُجسّده، شئنا أم أبينا، على هذه الأرض يحكي سيرة من عاشوا فيها قبلنا من آباء وأجداد. وكذلك هي تُعبِّر عن امتدادنا البشري الذي يتجاوز حدود المختلف إلى أفق أوسع، هو المتشابه والمشترك الإنساني، حين نتسامى عن وطأة العرق واللون ونعبر رسوم الجغرافيا وغيرها.

للأمثال قُدرتها على تلخيص المشهد باختصار أخّاذ، واستحضار الماضي بما يعج به من دلالات، واستقراء أنباء المستقبل في آن معًا. وفيها تكمن قدرةٌ هائلة نُعبِّر بها عن مشاعرنا حين نستقبل لحظات العيش. ولهذا، لعلّ بوُسعنا الاستعانة ببعضها لاختزال كثير من الإشارات المرجعية التي قد تتطلّب دون ذلك حديثًا مستفيضًا عن مرحلة ما بعد الإعلان الرسمي عن فوز المملكة العربية السعودية باستضافة كأس العالم 2034م؛ النبأ الذي طار بنا إلى أجواء فرح وفخر ربَّما كان أحسن ما يُعبّر عنها المثل السائر: "إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب".

من أجل تنظيم نسخة استثنائية من البطولة تُواكب طموح هذه البلاد، قيادتَها وشعبَها، أمامنا طريق طويل من العمل الجاد، لن نقطعه إلا بعزيمة وثّابة تذلِّل الصعاب وتطوِّع الأماني، لنتمثّل بيت الشعر الذي صار مثلًا: "وما نيلُ المطالبُ بالتمنّي .. ولكن تُؤخذُ الدُنيا غِلابَا". أمامنا عمل شاقٌ يستدعي تعاضد الجهود، لينهض كلٌ بدورهِ مُقتطِعًا حصة صغيرة أو كبيرة من الحمل الثقيل، فنكون كما قال مثلٌ شعري آخر: "إذا العبءُ الثقيلُ توزَّعتهُ .. أكفُّ القومِ خفَّ على الرقابِ".

علينا بطبيعة الحال أن نستفيد من التجارب التي خاضها من سبقنا على صعيد تنظيم البطولة، فـ "السعيد من وُعظ بغيره" كما قِيل. ولا شك أن رحلة الأعوام العشرة المقبلة لن تكون خالية من الأخطاء، فـ "من لا يُخطئ لا يعمل". وعلينا خلالها أن نتهيَّأ لنقد بنّاء نستفيد منه، وآخر لن يكون بوسعنا إلا أن نتجاهله لأنه كما قِيل: "رضا الناس غايةٌ لا تُدرك". ومن المهم قطعًا أن نستثمر كلَّ ما يُتاح لنا من فرص تنظيم البطولة، فـ"إذا هبَّت رياحك فاغتنمها".

جميع ما سبق ذكره من أمثال دارجة تضمَّنها كتاب "الأمثال العربيّة لجيل الألفيّة" الصادر حديثًا عن مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي "إثراء"، والذي يأتي في سياق مدِّ جسور التواصل بين الثقافات والأجيال. وما دام الحديث في هذا السياق، فبوسعنا أن نستدعي مَثَلًا ذا شهرة واسعة من الثقافة الصينية، يُعبّر عن المرحلة المقبلة: "طريق الألف ميل يبدأ بخطوة"؛ فما دُمنا بدأنا السير لا بُد لنا أن نصل إلى ما نصبو إليه إن شاء الله.

وبالحديث عن الثقافة الصينية، ها نحن نستبشر هذا العام بمزيد من جسور التواصل التي تمتدّ بينها وبين ثقافتنا العربية، لا سيّما عقب الإعلان عن تدشين الدورة الأولى لـ "جائزة الأمير محمد بن سلمان للتعاون الثقافي بين السعودية والصين". هذا العدد يحتفي بهذا التواصل الثقافي المهم، فيستعرض جانبًا من جهود الترجمة بوصفها "طريق حرير" يربط الثقافتين العربية والصينية، كما يستطلع مدينة "الحلم القديم.. شانغريلا".





محتوى العدد

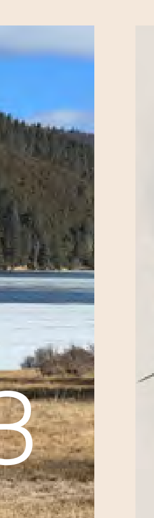
قبل السفر

القضية

أدب وفنون







علوم وتكنولوجيا

آفــاق

الملف



التسويق أجمل بالفُصحى!

قل للمليحة بالخمارِ الأسود
مــاذا فعلـتِ بناسكٍ متعبدِ
قد كان شمَّر للصلاة ثيابه
حتى وقفتِ له بباب المسجدِ
ردِّي عليـه صــلاتهُ وصيــامه
لا تقتليهِ بحقِّ دِيـــنِ محمـدِ

العاملون في مجالات التسويق أو الدعاية والإعلان، يتداولون الرواية التسويقية لهذه الأبيات القائلة في مضمونها: "إنَّ تاجرًا كوفيًّا جاء إلى الحجاز ببضاعة من الأخمرة النسائية فباعها كلها عدا السوداء منها، لم تجد لها حظوة لدى النساء ولم يشترينها، فشكا التاجر إلى صديق له كان شاعرًا، بُغيةَ طلب الدَّعم والمواساة، فما كان من صديقه إلا أن أنشدَ عليه هذهِ الأبيات التي تركت أثرًا في نفوسهنَّ واسترعت اهتمامهنَّ، وجعلتهنَّ مقبلاتٍ على شراءِ الأخمرة السوداء حتى نفدت".

تُعرَف اللغة بأنها أداة للتواصل الإنساني ووعاء للمعرفة والهوية الثقافية على حدٍّ سواء. وللغة العربية تحديدًا خصوصيتها فيما سبق، بما تحمله من موروث ثقافي عربي يضمُّ المعارف والآداب والقيم والمبادئ وغيرها، وهو ما ينعكس على واقع الروابط والصلات بين المجتمعات العربية وفنون التواصل بين الناس فيها على مرِّ العصور. غير أن العالم الرقمي اليوم، الذي ألقى بظلالِ سماته وخصائصه على كلِّ شيء وصبغ الأشياء، بل والأشخاص والمفاهيم بصبغة مغايرة لما ألفناه، فعل فعلته أيضًا مع اللغة وأساليب التأثير والتأثر فيما بين الناس.

عند الحديث عن مجالات التسويق والدعاية والإعلان، نجد أن العاملين فيها، خاصة كتَّاب المحتوى، يتعاملون مع " اللغة" على مستويين: العربية الفصيحة واللهجة المحلية؛ إذ يبرز دور اللغة المحوري في إيصال الرسائل التسويقية إلى الفئات المستهدفة من العملاء للتأثير فيهم، سواء كان الهدف تعزيز سلوكياتهم في شراء واستهلاك منتجات وخدمات بعينها، أو استبقاء ولاء العملاء للعلامة التجارية، أو بغرض رسم صورة ذهنية معينة لديهم عن العلامة التجارية وغيرها من الأهداف. وإن كان للأدوات التسويقية هرمٌ ثابت، فستكون اللغة بالتأكيد أعلاه، تُحدد اتجاهه، وتحمل على عاتقها توزيع بقية مسؤوليات الإقناع والتأثير على العناصر الأخرى، مثل: مظهر التصميم، أو مسار بناء الفيلم الإعلاني أو التسويقي، وغيرها من المخرجات.

إن اختيار كاتب المحتوى للمستوى اللغوي المناسب لكتابة النص التسويقي، أيًّا كان، يتأثر في العادة باعتبارات عديدة، منها: نبرة العلامة التجارية، وطبيعة الفئة المستهدفة من هذا النص، سواء كان مجرد محتوى نصي مكتوب، أو محتوى نصي مُعد لتدوينة صوتية، أو محتوى نصي مُعد لفيلم قصير. غير أنَّ معطيات العالم الرقمي تنحاز بالأكثر إلى مستوى اللهجة المحلية، ولا تكاد تخلو التوجيهات المرتبطة بالمهام الواردة على كاتب المحتوى من إحدى العبارات التالية: "استخدموا اللهجة البيضاء"، و"الأفضل يكون النص بالعامية"، و"قدّموا مقترحاتكم باللهجة المحلية عشان تلامس الناس".

"تلامس الناس"، هذا الوصف الذي أقف عنده كثيرًا في كلِّ مرة. متى تفوَّقت اللهجة المحلية بالحصول على هذا الامتياز؟! دفء الاتصال بالناس على مستوى الشعور والأفكار، والقدرة النافذة برشاقتها على لفت انتباههم وترتيب دوافعهم أو تحفيزها.

مع التنويه بأنَّ التحدُّث عن اللهجة المحلية يأخذ في الاعتبار اللهجة البيضاء بوصفها الأكثر تداولًا واستعمالًا، ويستطيع سكَّان جميع المناطق فهمها، واللهجة العامية التي تفرض حدودها السياقية في الزمان والمكان عند الاستخدام بحسب كل منطقة. وهذا، في نظري، مأخذ أساس على مدّعي رشاقة اللهجة المحلية.

على مستوى السوق وفرص العمل، أثَّر هذا التفوق للهجة المحلية في الكتابة التسويقية وفي تنوّع الفرص الوظيفية التي ترجح كفّتها لمصلحة المواطنين أو المقيمين المتشرّبين للهوية العربية السعودية، من المحيطين باللهجات وفقًا لسياقاتها الثقافية في مختلف المناطق؛ لأنهم الأقدر على تفادي إشكاليات الفهم الخطأ عند استخدام الكلمات في غير محلّها، وهم الأمهر في تخصيص النصوص المكتوبة تخصيصًا يُناسب السِّياق ويلائم الفئات المستهدفة لدى العلامة التجارية، فضلًا عن تعزيز بناء الرابطة المعنوية بين العلامة التجارية التي تفهم عملاءها وتلبي احتياجاتهم بحسب اهتمامهم. فهل تقصُر إمكانات الفصحى عن فعل ذلك؟

أزعم أنَّ الإجابة هي "لا"، ولا سيَّما أنَّ للفصحى امتيازات اللهجة المحلية نفسها عند الاستخدام، بل تزيد عليها بالرصانة والوفرة الكبيرة في المرادفات؛ وهو ما يتيح لنا استخدام مفردات فصيحة سهلة الفهم، يستوعبها المتلقِّي وتُثري ذائقته.

إنَّ استخدام الفصحى عند الكتابة التسويقية يُكسبنا امتيازًا بلاغيًا وبيانيًا، فيه مراوغةٌ للمعاني، واستعارة للكلمات من سياقاتها ودلالاتها التي ألفتها واعتادتها، والزجّ بها في سياقات جديدة وخلَّاقة قادرة على إعادة حيويتها في تقديم معنى جديد لافت يستحوذ على انتباه العملاء. وفي حالات أخرى، تُقدِّم لنا الفصحى ميزة إيقاعية فريدة تخلق حالة من التناغم بين عبارتين كأنهما تتكاملان في نغمة أو رقصة.

ما زلتُ أذكر أحد المواقف الطريفة التي جمعتني بإحدى الزميلات، حيث وقفت على استخدامي لكلمة "حثيثة" في سياق تحدّث عن الجهود المبذولة في أمرٍ ما، فقالت لي، آنذاك: إنها كلمة ثقيلة وصعبة، وسينقسم الناس في استقبالها ما بين من يدرك معناها لكنه سيستنكر استخدامها ويرفض المخرجات جملة وتفصيلًا، وما بين من يقف مُستعجبًا مُستفهمًا.

تجاوزتُ تعليقها منحازة إلى تفضيلي الشخصي في اختيار الفصحى للتفكير والكتابة والتعبير؛ لأني ما زلت غير قادرة على استساغة استخدام اللهجة المحليّة في المخرجات التسويقية والإبداعية عند مخاطبة الناس.

أصالة كنبيجة



كيف صارت السخرية أدبًا؟

أصل كلمة أدب "الدعوة إلى المأدُبة" وهي مائدة الطعام، وهي كلمة رفيعة تُوحي بالسمت والوقار والرقي والثقافة.

لكن ماذا لو قلنا إن جزءًا كبيرًا من التراث الأدبي يُعنى بالسخرية التي تشمل الصعلكة من تكدية (الحيلة والتسول لاستجداء المال) وبخل وتطفُّل وغيرها من مساوئ الأخلاق التي يترفَّع عنها الناس!

لقد تمكنت السخرية من اكتساح الأدب فتبوأت لها منزلة فيه، ويمكن القول إن الجاحظ هو الذي بدأ بهذا الصنف الأدبي، وتبلور على يده. فالجاحظ بنظرته الثاقبة، وذائقته الأدبية، ينظر إلى المهمش فينقله للمقدمة، ويرى أن السخرية تحارب صور الجمود والاعتياد، وتنقل الموضوع من صراع الطبقات، الذي كان مُشكلًا في عصره، إلى الرأي العام للتداول والضحك عليه. فرأى الأدب في البخيل واللص والإماء والعبيد، وقد اشتهر كتاب "البخلاء" من بين كتبه، فطابع الكتاب مَرِحٌ فَكِه، ومما ذكر فيه: "وصايا البخلاء ومناقضتهم للسمحاء"، ومعلوم أن البخل لا يأتي وحدَه، بل يجرُّ معه شدة الخلق والطمع والأنانية، وحتى الصعلكة.

يقول الجاحظ: "إنهم رقعوا رقعًا لا يقبل الرقع"، وهذا يدل على شدة الذكاء اللغوي وقوة حججهم التي مُزِجت بروح فكهة، ومع ذلك، فهم قد بلغوا مبلغ البلاغة لإقناعهم السامع بمذهبهم رغم دناءته. وهذا ما يذكرنا بالتلاعب السينمائي، مثلما نرى أن اللص مظلوم والشرطة ظالمون، فالبخيل يرى أنه ذكي يُحسن التدبير، ويحفظ المال. أمَّا الكريم، فهو يضيّع المال ومُسرف ومبذِّر.

ويعدُّ خالد المكدّي أو ما عُرِف بـ"خالدويه" أبرز البخلاء الذين ذكرهم الجاحظ. وقد تمثَّل خالدويه لابنه وصية عند موته يأمره بحفظ المال والكد للحصول عليه بكل الطرق من صعود الجبال وقطع الصحاري وركوب البحار، وحتى السرقة والاحتيال، وكان ممَّا أوصاه أن يحذر من خروج الدرهم ولو كان للصدقة، فإن الدرهم عليه "لا إله إلا الله"، وهو إن أخرجه فكأنه أُخْرِج من كنف الله تعالى، فكيف به إذا أخرج كل يوم درهمًا للصدقة!

فما كان من ابنه إلا أن تمثّل بتلك الوصية، وزاد على أبيه بُخلًا فلم يكفّنه عند موته!

ومثل كتاب "البخلاء" ما ألفّه البغدادي في كتابه "كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين"، والطفيلي هو الذي يدخل على القوم دون أن يُدعى. فجمع البغدادي أخبار الطفيليين ووصاياهم، فمن تلك الوصايا قول أحدهم: "إذا دخلت عرسًا، فلا تلتفت تلفُّت المُريب، وتخيَّر المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام فمُرْ وانهَ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل، ليظنَّ هؤلاء أنك من هؤلاء، ويظنَّ هؤلاء أنك من هؤلاء، فإن كان البواب غليظًا وقّاحًا، فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعنفه، وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال".

وقد فتح الجاحظ الباب للسخرية أن تُتداول بوصفها أدبًا قائمًا بذاته، وممن تأثر ببخلاء الجاحظ الأديب الفرنسي موليير في مسرحيته "البخيل"، ثم تدرّجت السخرية حتى ارتبطت بالمسرحيات والسياسة والكاريكاتير.

لكن فن السخرية في الأدب لم يكن ابتداعًا من الجاحظ، بل قد ورد في الأدب القديم وبشكل حاضر في الهجاء. فالهجاء قائم على السخرية والذم من الطرف الآخر، وتُعدُّ النقائض التي وقعت بين جرير والفرزدق أعظم ملحمة ساخرة، إن صح التعبير. والنقائض تعني: أن ينقض الشاعر قصيدة الشاعر الآخر، وتكون على نفس الوزن والقافية، فمن ذلك قول الفرزدق يفخر على جرير:

حُلل الملـوك لباسنا في أهلنا
والسابغات إلى الوغى نتسربلُ

فنقض جرير قوله:

لا تذكروا حُلل الملـوك فإنكم
بعد الزبير كحائضٍ لم تغسلِ

وقيل إنَّ أعظم هجاء كان على لسان الحُطيئة حين هجا الزبرقان بقوله:

دعِ المكـارم لا ترحـل لبغيتـها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ويُرى أن ألذع الشعراء في الهجاء هو ابن الرومي، وقد فاق الحطيئة بالهجاء، وهو شاعرٌ كبير عاش في العصر العباسي، من طبقة بشّار والمتنبي، فمن هجائه لابن حرب:

لك أنفٌ يـابن حــربٍ أنِفت منــه الأنــوف
أنت في القُدسِ تصلي وهو في البيت يطوف

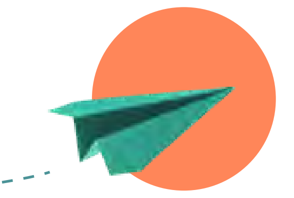
نرى في هذين البيتين صورة كاريكاتيرية ساخرة لاذعة. ومن أشد ما قال أيضًا يذم الشعراء الذين يتكسّبون بشعرهم:

يقولـون ما لا يفعلـون مسبّةً
من الله مسبـوبٌ بها الشعراءُ
وما ذاكَ فيهم وحدَه بل زيادةٌ
يقولـون ما لا يفعـلُ الأمــراءُ

أمَّا عن التكدية والصعلكة، فإن وجودهما سنة في الحياة باختلاف الزمان والحال. والصعلوك: الذي لا مال له ولا اعتماد، وقد صعلكته إذا ذهبت بماله، ومنه تصعلكت الإبل إذا ذهبت أوبارها. وقد برز في العصر الجاهلي جماعة من الصعاليك، ووُسم أدبهم بـ"أدب الصعاليك" وقد رفعوا أنفسهم مرتبة عالية، فهم يرون أن في سرقتهم ونهبهم نصرة للمظلوم وإقامة للعدل، ويصفون أنفسهم بشدة التنبه واليقظة والذكاء والفروسية والسرعة وتحمل الصعاب، ومن أبرز شعرائهم: عروة بن الورد، والشنفرى، وتأبَّط شرًّا.

لمى العمرو

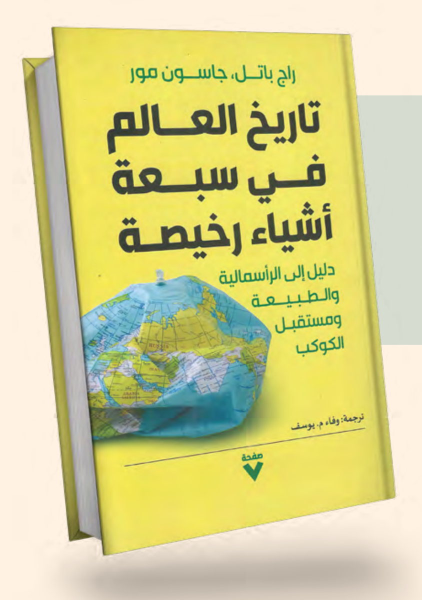




تاريخ العالم في سبعة أشياء رخيصة

دليل إلى الرأسمالية والطبيعة ومستقبل الكوكب

تأليف: راج باتل وجاسون مور
ترجمة: وفاء م. يوسف
الناشر: صفحة سبعة، 2024م



يؤرخ الأكاديمي والصحفي البريطاني راج باتل، وأستاذ علم الاجتماع بجامعة "بينغامتون" بنيويورك والباحث المتخصص في التاريخ البيئي الأمريكي جاسون مور، للاكتشافات والتطورات التي صنعت العالَم الحديث، عبر تحليل سبعة أشياء "رخيصة" بحسب وصفهما، وهي: الطبيعة والمال والعمل والرعاية والغذاء والطاقة وحياة الناس أنفسهم.

وقد أثار هذا الكتاب عند صدوره جدلًا في الأوساط الأكاديمية والثقافية، كما تشير كلمة غلافه الأخير في نسخته المترجمة إلى العربية حديثًا؛ فقد تناول فكرة الرأسمالية من زوايا مختلفة عن المعالجات التقليدية التي تناولتها من منظور متحيز ضيق، وذلك بربطها بالطبيعة التي استُغلت على نحو "خاطئ ومتوحش" مهَّد المجال لاستغلال البشر، وهو استغلال جعل من العالم "عالمًا رخيصًا".

وقد خصص المؤلفان سبعة فصول تُشكِّل متن الكتاب، بخلاف المقدمة والخاتمة، لمناقشة "الأشياء الرخيصة" السبعة التي فسَّرا ما شهده العالم من حرَاك، مهما كان نوعه، تأسيسًا عليها. وقد حرصا في بداية عملهما على تعريف ما عنياه بمفهوم "رخيص" في سياق طرحهما النظري. يوضح "باتل" و"مور" أن كلمة "رخيص" تُمثِّل الوجه الآخر للصفقات الرابحة للرأسمالية، وتُعبر عن مجموعات من إستراتيجيتها التي تستخدمها بهدف التحكم في "الشبكة الكبرى للحياة" عمومًا؛ أي بالعلاقة المعقدة بين الطبيعة بعناصرها كافة والإنسان. ولا يعني "الرخيص" هنا، كما يُضيفان، التكلفة المنخفضة فحسب، لكنه ممارسة قد تصل إلى حد العنف من أجل الاستفادة من جميع أشكال العمل: البشري والحيواني والنباتي والجيولوجي، بأقل مقابل ممكن.

والرأسمالية، في نظر الكاتبين، تتكوَّن من السلطة والمال والطبيعة، وهي ليست نظامًا تكون فيه الأموال في كل مكان، لكنها نظام يتشكَّل من مجموعة جزر من التبادل المالي توجد "في محيطات من الطبيعة الرخيصة، أو التي من المحتمل أن تكون رخيصة".

وهكذا، يتبلور تصور المؤلفين لفكرتهما المركزية في هذا العمل. فالسعي من أجل تحقيق أقصى فائدة من خلال أقصى استغلال للأشياء الرخيصة أوجد حلقات متتالية من الصراع. ومن ثَمَّ، "كان الرخص ساحة للمعارك"، وهو الأمر الذي يستلزم استطلاعًا للأشياء السبعة الرخيصة. كان هدف المؤلفين الرئيس من الكتاب رؤية أفق الإمكانات بوضوح، واستيعاب التحديات فيما تشهده المجتمعات الإنسانية من نزاعات في الوقت الراهن، ووضع خطة لتحديد الإصلاحات التي من الضروري أداؤها لفهم ما سمَّياه "الإيكولوجيا الرأسمالية"؛ أي العلاقات التي توضح الكيفية التي يعمل بها العالم، والتي يمكن من خلالها "تفسيره وتغييره".

وقد أنهى راج باتل وجاسون مور كتابهما بخطوط عريضة يمكنها المساهمة في مثل هذا الفهم المأمول، من بينها ضرورة الاعتراف بالدور السلبي الذي مارسته الرأسمالية في سبيل تحقيق مآربها على حياة البشر والطبيعة معًا، وضرورة البحث عن طريقة لتعويض ما حدث من خسائر، مع أهمية "إعادة تصوُّر" نمط حياتنا في عالم اليوم، وذلك عبر تقصّي العالم الآخر المنشود الذي تودُّ الأغلبية العظمى العيش فيه، وهو الأمر الذي لم تفعله الرأسمالية قطّ.

الفيزياء الزائفة

حكاية الخيال المتنكر في هيئة حقائق علمية

تأليف: أندرو ماي
ترجمة: محمد الصفتي
الناشر: دار دوِّن، 2024م



يتوافق هذا الكتاب مع شغف مؤلفه الكاتب والعالم البريطاني أندرو ماي، بالتوقف عند ما يسميه "الحدود المائعة" بين موضوعات ليس من المعتاد أن تُذكر في السياق نفسه، وهو ما دفعه إلى تأليف كتابين مثله صدرا قبله، في سلسلة "العلم والخيال" عن دار نشر "سبرينجر". الأول بعنوان "العلم الزائف والخيال العلمي"، وفيه رصد العلاقة بين أدب الخيال العلمي والكتابات المنسوبة إلى العلم زيفًا، التي تناقش موضوعات مثل الأجسام الطائرة، وفكرة التخاطُر؛ والثاني بعنوان "صواريخ وبنادق إشعاعية.. علم الخيال العلمي في حقبة الحرب الباردة"، وفيه حلَّل التقاطع بين كتابات الخيال العلمي والعلوم الحقيقية في فترة الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي السابق وحلفائهما، التي استمرت حتى أوائل التسعينيات من القرن الماضي. أمَّا في هذا العمل، فهو يناقش مفهوم الفيزياء المزيفة، وهو مصطلح

يشمل قدرًا كبيرًا ومتنوعًا من الموضوعات التي شكَّلت مضمونه، وتدور حول ما عدَّه المؤلف "خيالًا متنكرًا في هيئة حقائق علمية"، ويعني الطرائق المختلفة التي تُستخدم لتحريف جوانب منهجية من العلم من أجل صياغة "فرضيات زائفة" تنتمي إلى الخيال العلمي البحت.

والكتاب، على الرغم من تناوله موضوعًا شديد التخصص، جاء بلغة سهلة الاستيعاب لدى الجمهور العام، خاصة أنه اعتمد على سرد أقرب إلى القصّ منه إلى الكتابة العلمية. وهكذا يتعرف القرَّاء على ضروب من حكايات خيالية جرى التعامل معها بوصفها حقائق علمية، مثلما فعل أشهر أدباء الخيال العلمي الكاتب إسحاق أزيموف، حين كتب عن مادة خيالية، هي "الثيوتيمولين"، بوصفها مادة حقيقية قابلة للدراسة العلمية، ونشر ذلك في ورقة بحثية، بدلًا من صياغتها في قصة قصيرة، محاولًا إقناع متلقيه بأن ما يكتبه حقائق واقعية.

كذلك يبحث أندرو ماي في بعض الفرضيات الخيالية المستندة إلى العلم، التي تبدو مُقنِعة في منطقها، حتى إنه يصير من الصعب جدًّا إثبات أنها خاطئة، مثل نظرية "الجاذبية المضادة" التي استخدمها الروائي الأمريكي جيمس بليش، تأسيسًا على جهود علماء فيزياء العالم الواقعي من المعاصرين له، كما فعل في رواية "المدن الطائرة"، وفيها ابتكر جهازًا مضادًّا للجاذبية بوسعه أن يرفع مدنًا برمَّتها. ومن ضمن الموضوعات التي يناقشها هذا الكتاب، ما سمَّاه المؤلف "فن الثرثرة التكنولوجية"، ويقصد به محاولات كُتَّاب الخيال العلمي خلق جو زائف من المصداقية على ما يكتبون عبر الاستخدام غير المبرَّر لمفاهيم ومصطلحات تبدو علمية، من دون الانشغال كثيرًا بمعناها لتجنّب تكذيب القرَّاء لهم؛ أي إنهم يحاولون الكتابة بطريقة علمية، لكنهم حين يفعلون لا ينجحون، عمومًا، في محاكاة لغة العلوم الفيزيائية الحقيقية وهي الرياضيات. وأيضًا يهتم هذا العمل برصد كثير من موضوعات "الفيزياء المزيفة"، التي حظي بعضها بتغطية إعلامية كبيرة، والتي تعمد مؤلفوها المحاكاة الساخرة للواقع العلمي. هذه الموضوعات نُشرت في مجلات تقنية جادة، أو في بعض المنصات الإلكترونية مثل منصة "arXiv"، لحفظ الأوراق العلمية قبل طباعتها.

المُتلقي في الرواية الرقمية التفاعلية

تأليف: د. محمد حسانين إمام الضلع
الناشر: بيت الحكمة، 2024م



يرصد الباحث المصري محمد حسانين إمام الضلع في هذا الكتاب ظاهرة الأدب الرقمي التفاعلي من خلال التركيز على دور المتلقي فيه، بوصفه الهدف النهائي لأي نصٍّ إبداعي. وتكمن أهمية هذا العمل، كما نقرأ في مقدمته، في سعيه إلى الاطِّلاع على مراحل إنتاج النص الأدبي في السياقين الغربي والعربي في ميدان الأدب الرقمي عامة، وفهم الكيفية التي فهم بها المبدعون العرب مفهوم الرواية الرقمية التفاعلية مع بيان أوجه الاختلاف والتشابه بينها وبين نظيرتها الورقية. كما يهتم الكتاب بمناقشة حضور المتلقي في النص الروائي الرقمي إلى حد أدائه أدوار المؤلف نفسه، وذلك عبر ما يُقدِّمه من إضافات أو اقتراحات أو تعليقات بخصوص موضوعها وبنيتها. ويستعرض في هذا الخصوص أنماط التفاعل الواقعي الافتراضي بين المبدع ومتلقيه.

ينقسم الكتاب إلى بابين توزعت عليهما ستة فصول. وقد مثَّل الباب الأول الإطار النظري الذي ضم مصطلحات الدراسة المرتبطة بالأدب الرقمي التفاعلي وأنواعه، ومنها الرواية، وهي المصطلحات التي يتعين فهم معانيها أولًا قبل البدء بتحليل النصوص المنتمية إليه. لذا، قدَّم المؤلف، بصورة وافية، مجموعة من التعريفات لها، جاءت في لغة واضحة يمكن إجمالها في تعريف محدد يكون النص الأدبي الرقمي التفاعلي وفقًا له هو: النص المقدَّم إلكترونيًّا بالاتصال بشبكة الإنترنت، الذي يستعين بالصوت والصورة والوسائط المتعددة، ويُشترط فيه الحضور التام للقارئ الفعال أي المتلقي المتفاعل. وفي هذا الباب، يُقدِّم المؤلف تأريخًا لظهور الرواية الرقمية التفاعلية على يد الأديب الأردني محمد سناجلة، الذي نشر على الإنترنت أولى الروايات العربية من هذا النوع، وكانت بعنوان "ظلال الواحد"، كما يوضح توفر أنماط أخرى من هذا الإبداع الرقمي الجديد مثل الرواية "التويترية التلغرامية"، التي قدَّمها الروائي السعودي طارق الدغيم، والتي نشرها بعنوان "دوشيش" عام 2020م عبر حسابه على "تويتر".

أمَّا الباب الثاني، فقد خصصه "الضلع" لدراسته التطبيقية التي حلَّل فيها سمات روايتين رقميتين تفاعليتين، الأولى رواية واقعية بعنوان "الزنزانة رقم 06" للروائي الجزائري حمزة قريرة، وقد نشرها على مدونته عام 2018م، تاركًا بعض المسارات فارغة لتفاعلية المتلقي. والرواية الثانية جاءت بعنوان "في حضرتهم"، وتنتمي إلى أدب الخيال العلمي، ونُشرت عام 2020م على منصة فيسبوك، وكتبها الروائي المغربي عبدالواحد إستيتو، بالاشتراك مع الروائية السودانية آن الصافي.

وتوصَّل هذا العمل البحثي إلى كثير من النتائج، منها تأكيد أن ثمَّة رغبة من القرَّاء في التفاعل مع الروايتين محل التحليل تجلَّت في أنماط عدة من تفاعلهم مع الوسائط السمعية والبصرية بالواجهة الرئيسة التي نُشرت عليها الروايتان، والتفاعل عبر الروابط المتاحة عليها، التي تتطلب منهم مشاركتهم المُبدعَ في التأليف، خاصة إذا ترك هذا الأخير نهاية روايته مفتوحة، كما في رواية "الزنزانة رقم 06" حتى يتمكن القارئ من تخيل نهايتها؛ وفقًا لتأويله الخاص، وتفاعلهم كذلك من خلال التعليقات الخارجية التي لا ترتبط بالنص الروائي، أو الداخلية التي تناقش عناصر الرواية نفسها، وبالإعجابات، وأحيانًا عبر تقمص أدوار بعض الشخصيات الروائية الواردة بالنص.

اقرأ القافلة: لمزيد من قراءات الكتب المتنوعة.





الطين
تاريخ بشري

Clay: A Human History
by Jennifer Lucy Allan

تأليف: جينيفر لوسي آلان
الناشر: 2025م، Pegasus Books

في تحولاته يحتوي الطين على إمكانات لا حصر لها، تتجلى في رفوف المنازل والمعارض والمتاحف. في كل مرة يُصنع فيها شيء من الطين، يحدث فيها تفاعل مع الخطوط الزمنية للمادة نفسها، سواء أكان قد أُستخرج من قمة جبل، أم مجرى نهر، أم حفرة عميقة. وعند حرقه، يُمنح الطين وظيفة ما أو معنى أو شعورًا، ويترسخ شكله في الحاضر البشري.

وهكذا تحتوي الأشياء المصنوعة من الطين على علامات للوجود البشري، وتروي قصص التاريخ بشكل أكثر اكتمـالًا من أي مادة أخرى. فهناك سبب لوجود الكثير من الأواني الفخارية في المتاحف؛ لأن الطين المحروق هو أحد أكثر المواد قدرة على حراسة التاريخ.

في هذا الكتاب تُقدِّم الكاتبة والصحفية، جينيفر لوسي آلان، رسالة حب إلى الطين، المادة التي تُشكِّل بداية حياتنا ومنتصفها ونهايتها كلها، وترتبط بالأبدية والكيمياء والحياة اليومية.

منذ بداية التاريخ البشري، أخذ الناس حفنة من التراب، وشكَّلوها على صورتهم؛ لذلك نجد أن هناك أشكالًا بشرية موجودة في كل مكان كان فيه تقليد لصناعة الخزف، وأن هناك تقليدًا لصناعة الخزف في كل مكان كان فيه نشاط بشري. فالطين هو المادة التي شكل منها الله، سبحانه وتعالى، الإنسان، وطمي النيل هو الذي يظهر في إحدى لوحات المقابر في مصر التي تصوِّر الإله خنوم على دولاب الخزاف، وهو في طور عملية الخلق المادي للإنسان.

يُقسم الكتاب إلى 15 فصلًا، كل فصل يركز على موضوعات مختلفة متعلقة بالطين وهو ما يسمح بالتفاعل مع هذه المادة من زوايا متعددة، وإقامة روابط بين خصائصها الفيزيائية وأهميتها الثقافية.

بعيدًا عن استكشافها للطين نفسه، تثير "آلان" أسئلة مهمة حول الاستدامة وعدمها في الفن والحياة، وتتأمل في كيفية عمل الأشياء المصنوعة من مواد مختلفة مثل سجلات دائمة للوجود البشري، وتدعو القرَّاء إلى إعادة النظر في علاقاتهم بالأشياء اليومية والتعرُّف على السرديات المتضمنة فيها.

تغذية الوحش
لماذا يسيطر الرعب علينا؟

Feeding the Monster: Why horror has a hold on us
by Anna Bogutskaya

تأليف: آنا بوغوتسكايا
الناشر: 2024م، Faber & Faber



أخيرًا، تبنَّت ثقافة البوب السائدة الرعب أكثر من أي وقت مضى؛ إذ دخلت الشخصيات والمشاهد المرعبة إلى البرامج التلفزيونية ومقاطع الفيديو الموسيقية، وحتى اتجاهات التيك توك. ومع ذلك، حتى مع النجاح التجاري والفني لعدد لا يُحصى من أفلام الرعب والمسلسلات التلفزيونية على مدار السنوات القليلة الماضية، فإن رواج مثل هذه الأفلام لا يزال يثير التساؤلات نفسها: ما سرُّ جاذبيته؟ وهل هناك غرابة ما في الأشخاص الذين يصنعونه ويستهلكونه؟ في هذا الكتاب تحاول الناقدة والكاتبة ومبرمجة الأفلام، آنا بوغوتسكايا، الإجابة عن مثل هذه التساؤلات من خلال استكشاف كيف يستجيب الرعب ويغذي مشاعر الخوف والقلق والألم والجوع والحذر.

تستعرض بوغوتسكايا مجموعة من أبرز أفلام الرعب، وتعمد إلى تحليل أهميتها الثقافية وجاذبيتها بالنسبة إلى الجمهور، وتحاول تسليط الضوء على العوامل العاطفية والمجتمعية التي تجعل صدى مثل هذه الأفلام يتردد بعمق لدى المشاهدين.

يتمحور الكتاب حول سلسلة من المقالات التي تغطي جوانب مختلفة من مشاعر الرعب، كما ينسج كل فصل من فصوله الحكايات الشخصية والنقد والتعليقات الثقافية الأوسع، وهو ما يسمح لبوغوتسكايا باستكشاف أفلام الرعب المعاصرة مع الإشارة إلى الأفلام الكلاسيكية؛ فيخلق ذلك نسيجًا غنيًا يُسلِّط الضوء على تطور هذا النوع الدرامي على مدى العقود الماضية.

على سبيل المثال، يحمل أحد الفصول عنوان "الجوع"، حيث تدرس فيه بوغوتسكايا الأفلام الحديثة التي تتناول أكل لحوم البشر، فتقارنها مع التصوير الأكثر وضوحًا لأكل لحوم البشر من العقود السابقة، مشيرة إلى كيفية تشابك التصويرات المعاصرة، في الغالب، مع الإثارة والرومانسية والخوف. ويكشف هذا المنظور الدقيق عن كيفية انجذاب الجماهير الحديثة إلى موضوعات الرغبة والمحرمات، وهذا ما يشير إلى أن تفاعلنا مع الرعب يتعلق باستكشاف تعقيداتنا النفسية العميقة بقدر ما يتعلق بمواجهة مخاوفنا المتنوعة.

تأخذنا آنا بوغوتسكايا إلى ما هو أبعد من الكوابيس والوحوش ومصاصي الدماء والأشباح والأرواح المسكونة، إلى القلب البشري الذي ينبض بعمق استجــابةً للمشاهد المرعبة. وتثبت أنه في عالم مرعب، يمكن أن نشعر بالأمان، وبطريقة ما أن نختبر نوعًا من التعاطف الجذري.



رسالة حب إلى الكتب والمكتبات

1

الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات

قصصهم أفضل من الكتب الأكثر مبيعًا

The Secret Lives of Booksellers and Librarians

Their stories are better than the bestsellers

by James Patterson, Matt Eversmann

تأليف: جيمس باترسون، ومات إيفرسمان

الناشر: 2024م، Little, Brown and Company

2

امرأة المكتبة

The Bookshop Woman by Nanako Hanada

Translated by Cat Anderson

تأليف: ناناكو هانادا

ترجمة: كات أندرسون

الناشر: 2024م، Octopus Publishing

لطالما كانت المكتبات أكثر من مجرد منافذ لبيع الكتب بالتجزئة، بل هي بوابات إلى عوالم أخرى، وفضاءات حيوية تضج بالأفكار، ويزدهر فيها الأدب، وتتقاطع فيها الحياة من خلال القصص المشتركة. في حين أن القيِّمين عليها هم بمنزلة أبطال فعليين يعملون على مساعدة الزبائن في تحديد اختياراتهم وينمّون لديهم متعة القراءة. لذلك، وفي تحية للكتب والمكتبات صدر، مؤخرًا، كتابان هما: "الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات" للمؤلفين جيمس باترسون ومات إيفرسمان، ويضم مجموعة دافئة من الذكريات والحكايات والشهادات التي ترسم صورة حية للحياة اليومية والتحديات والانتصارات لأولئك الذين يكرسون أنفسهم لتعزيز حب القراءة في مجتمعاتهم؛ وكتاب "امرأة المكتبة" للكاتبة اليابانية ناناكو هانادا، التي تنسج فيه مذكراتها الشخصية بشكل تتداخل فيه موضوعات الهوية والتواصل والنمو الشخصي من خلال عدسة بيع الكتب.

يأخذنا كتاب"الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات" إلى داخل حياة باعة الكتب وأمناء المكتبات، ويتضمن مجموعة من الملفات الشخصية التي تضم محترفين من جميع الأنواع، من بائعي الكتب المستقلين، ومنهم المؤلفة جودي بلوم، التي بدأت متجرها في ولاية فلوريدا الأمريكية في عمر الـ78 عامًا، وباعة الكتب في سلسلة المتاجر الشهيرة "بارنز ونوبل"، وأمناء المكتبات في المدارس والكليات الخاصة والعامة. يروي هؤلاء ذكرياتهم عند اكتشافهم المبكر لحبهم للكتب، والفرص غير المتوقعة التي أدخلتهم إلى عالم بيع الكتب، وبالنسبة إلى البعض، امتلاك مكتبتهم الخاصة. وعلى الرغم من العنوان الذي يشير إلى الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات، فإن القليل من المساهمين عاشوا حياة سرية، ومع ذلك، لدى البعض خلفيات غير متوقعة، بحيث أصبح كثير منهم أمناء مكتبات أو أصحاب متاجر بيع الكتب بعد مهنة مختلفة في العقارات، أو العمل في صحف، أو في حالة الكاتبة بلوم، بعد 50 عامًا من عملها كاتبةً ناجحةً.

يتعمق باترسون، والمؤلف المشارك مات إيفرسمان، في قدرة بائعي الكتب وأمناء المكتبات على الإلهام ودورهم في تعزيز القراءة لدى الصغار والكبار معًا. وعن هؤلاء الخبراء، يكتب باترسون في مقدمة كتابه، فيقول: "إنهم يأخذون المرتبكين والخائفين والمحبطين ويساعدونهم على أن يصبحوا أكثر ذكاءً ووعيًا". ويضيف أنهم ليسوا مجرد مروجين للكتب، بل هم محققون وصائدو كنوز ووسطاء ودعاة وأصحاب رؤية. وفي كل قصة تنطوي عليها داخل صفحات الكتاب يظهر كيف يخلق هؤلاء المحترفون "متعة القراءة" من خلال ربط القراء بالعناوين المثالية التي يتردد صداها في حياتهم، بحيث إن فعل سحب كتاب من الرف والقول "يجب أن تقرأ هذا. ستحبه حقًّا"، يلخص جوهر مهمتهم.

وبينما يحتفي كتاب"الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات" بالكتب والمكتبات من خلال مذكرات هؤلاء الخبراء، تحاول الكاتبة اليابانية ناناكو هانادا في كتابها "امرأة المكتبة" الاحتفاء بها أيضًا، ولكن من خلال مذكراتها الشخصية. تنطلق هانادا من المكان الذي تجد فيه نفسها على مفترق طرق في الحياة بعد انفصالها عن زوجها، وخيبتها من وظيفتها في إحدى المكتبـات في مدينة طوكيو التي راحت تتراجع فيها المبيعات بشكل مطَّرد. فشرعت في رحلة لاكتشاف الذات من خلال انضمامها إلى إحدى منصات التواصل التي تُدعى "غرباء تمامًا" القائمة على فرضية مثيرة للاهتمام، فهي مصممة للأفراد للالتقاء في محادثات مدتها ثلاثون دقيقة تتمحور حول اهتماماتهم المشتركة. وسعيًا منها للتميز، قرَّرت هانادا استخدام شغفها بالكتب بوصفها نقطة التعريف الأساسية في ملفها الشخصي، فقالت عن نفسها إنها تستطيع أن توصي بكتاب مثالي من خلال معرفتها الواسعة بأكثر من عشرة آلاف عنوان.

تنطلق هانادا بسلسلة من المحادثات مع مجموعة متنوعة من الأشخاص بحيث تكتشف فيها قدرة الأدب على إثارة محادثات هادفة وبناء روابط عميقة. وتوصي بكتب لكتَّاب من أمثال الروائيين الأمريكيين جاك كيرواك وريتشارد باخ، والكاتب الياباني كازوو إيشيغورو، والأسترالي جيمس كلافيل، والأديبة الفرنسية فرانسواز ساغان، من بين آخرين. وفي حين أن توصياتها تحظى بالتقدير في كثير من الأحيان، إلا أن جهودها، حسنة النية، تنتهي بالفشل أحياناً. فعلى سبيل المثال، عندما اقترحت كتبًا عديدة على رحالة رقمي يُدعى "تاكاشيما"، أجابها بأنه قرأها بالفعل منذ زمن طويل. وبعد هذه التجربة المخيبة للآمال، طوَّرت مجموعتها الخاصة من الإرشادات للتوصية بالكتب، مشيرة إلى أن العملية تتطلب كيمياء دقيقة، تشبه إلى حد ما قراءة الطالع. في حين اعترف لها أحد الأشخاص الذي يُدعى "إندو" أنه لا يعرف شيئًا عن المكتبات، بل يقول إنه يُفضِّل عدم الذهاب إليها، وإنه لا يقصدها إلا إذا اضطر إلى ذلك عندما لا تتوفر نسخة رقمية للكتاب الذي يريده، وفي الحالات الأخرى يحصل على الكتب من خلال منصة أمازون.

مما لا شك فيه أن هذين الكتابين اللذين يُقدِّمان رسالة حب للكتب والمكتبات، كلٌّ على طريقته، سيكون لهما صدًى لدى محبي الكتب في كل مكان؛ إذ فيما يشهد كتاب "الحياة السرية لبائعي الكتب وأمناء المكتبات" على الرضا العميق الذي يشعر به أمناء المكتبات عند إسهامهم في تعزيز حب القراءة لدى كل من يقصدهم، يستكشف كتاب "امرأة المكتبة" قدرة الأدب على تعزيز التواصل الإنساني الصادق.



تعليم السعادة



ابتداء من يونيو 2024م، بدأت وزارة السياحة في فنلندا تقديم دورة تدريبية لتعليم السعادة، وهو ما يبدو ملائمًا في بلد لطالما احتل المراتب الأولى بين أكثر البلدان سعادة في العالم.

لكن هذه الخطوة تقود إلى طرح أسئلة جديدة بالبحث، مثل: هل يمكن تعليم السعادة؟ وهل يمكن تحديد معايير قابلة للتطبيق من كل مَن ينشد الشعور بالسعادة؟ وهل الشعور بالسعادة يعدُّ مهارة يمكن ممارستها مثل الرياضة أو العزف الموسيقي؟



السعادة.. تواصل وامتنان

أيمن بن يعن الله الغامدي
اختصاصي إعلام رقمي

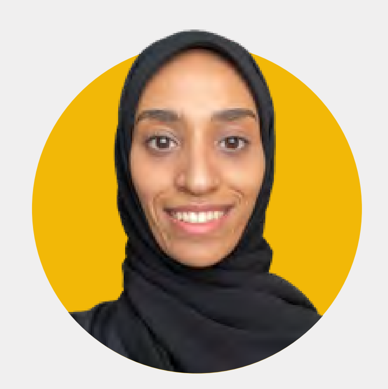
أعتقد أنه يمكن تعليم السعادة وتعزيزها من خلال جوانب عديدة من شأنها أن تُسهم في تحسين شعور الأفراد بها. ويمكن القول إن أحد أبرز هذه الجوانب هو الوعي بمفهوم السعادة وإدراك حقيقتها. وفي رأيي أنها حالة ذهنية تجمع بين الرضا والامتنان.

ويُسهم التفكير الإيجابي أيضًا في تحويل الأنماط السلبية إلى إيجابية، وهو ما يعزِّز بدوره الشعور بالسعادة. كما أن ممارسة عادة التدوين والكتابة للأمور التي نشعر بالامتنان تجاهها، من شأنها أن تدعم هذا الإحساس. إضافة إلى ذلك، فإن التواصل الاجتماعي يؤدي دورًا كبيرًا في ترسيخ المشاعر الإيجابية ويجلب الطمأنينة النفسية؛ إذ تُعدُّ العلاقات القوية والداعمة إحدى أهم ركائز السعادة.

ممارسة رياضة التأمل أيضًا، بجميع صورها وأشكالها، تساعد على تقليل التوتر وزيادة الوعي الذاتي، بينما يمنح تحديد الأهداف والعمل على تحقيقها شعورًا بالإنجاز والرضا.

أمَّا المرونة العقلية، فهي مهارة أساسية للتكيف مع التغيرات ومواجهة التحديات، وهو ما يعزِّز القدرة على مواجهة الحياة بشعور إيجابي. كما أن العمل على تحييد المشكلات أو حلِّها، وتطوير التفكير النقدي، أمران يُسهمان في التغلُّب على الصعوبات بشكل أكثر فاعلية.

ومن ثَمَّ، فإنه يمكن اعتبار السعادة مهارة يمكن تعلمها وممارستها، من خلال تطبيق إستراتيجيات محددة، ومن خلال التركيز على التطوير الشخصي، وقد يصبح من الممكن تعزيز الشعور بالسعادة لدى الفرد، ليعيش حياة أكثر رضًا وإشباعًا.



السعادة ليست بالمعايير الزائفة

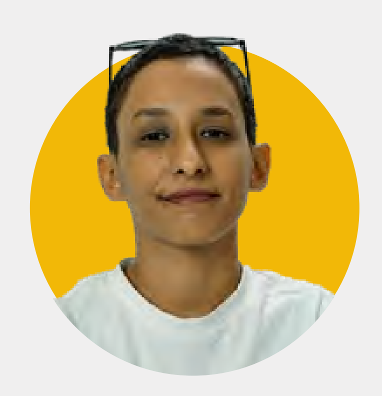
سارة كامل اليوسف

كاتبة وشاعرة ومعلقة صوتية

السعادة أمر فطري وغاية نهائية للنفس البشرية، بحيث إننا لو تتبعنا غاياتنا واحدة تلو أخرى لوجدنا أن طلبنا للسعادة هو غايتنا البشرية النهائية. فمثلًا، تجد الإنسان يقاوم ليصحو صباحًا في الجو البارد، ويجاهد للوصول لعمله ويسعى وراء رزقه، وربَّما الغاية وراء كل ذلك هو الشعور بالإنجاز، وعندما نتتبع الهدف من الشعور بالإنجاز نجد السعادة وراءه! أو لنفرض أنه يسعى للمال الذي سيفتح أمامه فرصة السفر والزواج وشراء سيارة فارهة، وكلُّ ذلك أيضًا لو فتشنا وراءه لوجدنا السعادة! ولن تجد إجابة واقعية عندما تسأل أحدهم: لماذا تريد السعادة؟

إذًا، فإننا لو اتفقنا على أن السعادة فطرية، فإنه لا داعي لتعليمها مثل المهارات الأخرى. لكن يمكن في الوقت نفسه تعليم الطرق التي تجعلك تكتشف هذه الفطرة التي دُفنت تحت كثير من المعايير الزائفة، أو جرى تشويهها بالكثير من المفاهيم المعلبة.

ففي العصر الذي تتسيَّد فيه مواقع التواصل الاجتماعي، نجد الترويج للماديات والتجارب المؤقتة بوصفها طريقًا حتميًا للسعادة! فما يحصل هو الشعور بالتعاسة عند قليلي الوعي، فهم ربَّما لا يتمكنون من ركوب موجة "الترند"، وشراء الكوب الشهير، أو تجربة المطعم الجديد، بينما في حقيقة الأمر قد يصلون إلى ذلك ولا يشعرون بالسعادة أيضًا، وإذا حصل لهم ذلك فستكون سعادتهم مؤقتة، وسيسعون بعدها للبحث عن المنتج أو التجربة التالية، وهكذا. لكن السعادة الحقيقية هي شعور عميق وداخلي بحت، ولا يمكن الوصول إليه بطرق سطحية ومادية فقط من دون أن نعرف أنفسنا ونرتب دواخلنا ونمضي في الطريق لسعادتنا الحقيقية.



الصدق مع النفس هو البداية

نورا الفرد

كاتبة محتوى إبداعي

أُؤمن بأن السعادة تعتمد على أساس قوي وعقلية تتطلب جهدًا مستمرًا لتطويرها. السعادة ليست في تجنب الحزن أو التوتر، بل في اختيار النظرة الإيجابية، وهو أمر مستحسن في ديننا. في الإسلام، يُعدُّ الحفاظ على التفاؤل عملًا صالحًا، واللجوء إلى الله في أوقات الحاجة يُمكِّننا من تسليم همومنا لنجد السلام في هدايته.

ومع ذلك، اختيار السعادة ليس سهلًا، ولا سيما في ظل هذه الأوقات التي نعيشها. السعادة ليست حالة نصل إليها بسهولة، بل هي حالة نسعى جاهدين لتحقيقها. من المهم ألا نسمح لأنفسنا بأن نُربَك أو نتأثر سلبًا بكل ما يحيط بنا من تحديات وضغوط في حياتنا اليومية.

من وجهة نظري، تُقاس السعادة بمدى صدقنا مع أنفسنا. السعادة الحقيقية تأتي من العيش بصدق وتجنب المقارنات السامة أو السعي وراء رضا الآخرين. عندما نعيش بما يتوافق مع قيمنا ونكون راضين عن أنفسنا، فإننا نبني سعادة دائمة.

في جوهرها، تنمو السعادة من خلال الصبر والتأمل الذاتي والممارسة المتعمدة لتعزيز العقلية الإيجابية. من خلال تنمية الامتنان والإيمان، نبني حياة مليئة بالمعنى والسلام الداخلي.



معادلة طويلة ومعقَّدة

معن فالح الخشرم

مهندس كيميائي

كثيرًا ما يحمل وصف المشاعر طابعًا معقدًا، فهو قد يبدو واضحًا في بداية الأمر، ولكن بمجرد التعمق فيه، يصبح التعبير عنه بشكل دقيق أمرًا في غاية الصعوبة.

بالنسبة إليَّ، فإن السعادة كانت من أكثر المشاعر التي واجهت ارتباكًا في تعريفها، بحيث انشغلت في البداية بالتمييز بينها وبين المتعة، ثمَّ تطوَّر لدي المفهوم ليشمل الرضا، ومع مرور الوقت ظهرت متغيرات جديدة جعلت فهمي للسعادة أشبه بمعادلة طويلة ومعقدة، مليئة بالعناصر والمتغيرات التي هي بحاجة إلى استكشاف مستمر.

وعلى الرغم من أن السعادة شعور نسبي يختلف من شخص لآخر، فإنني أعتقد أن مكوناتها الأساسية متقاربة بين الجميع، مع اختلاف نسب تأثيرها وفقًا لكل شخص وخبراته وتجاربه في الحياة. يمكن تقديم أدوات وأساليب تُسهِّل اكتشاف بعض هذه المكونات، وهو ما يجعل رحلة البحث عن السعادة أقصر وأقل تعقيدًا. ومع ذلك، تظل السعادة تجربة فردية لا يمكن اختزالها في خطوات محددة.

مثلما يمكننا التنبؤ بالألم استنادًا إلى تجارب سابقة، يمكن أيضًا استنتاج بعض متغيرات السعادة عبر الخبرات. وعلى الرغم من أن معادلة السعادة تتغير بين الأجيال والأشخاص، فإن مكوناتها الأساسية ثابتة إلى حدٍّ بعيد. لذلك، يمكن تحفيز رحلة السعادة عبر تسليط الضوء على النقاط العمياء في معادلة كل فرد، وهو ما يساعده على تحقيق حياة أكثر رضا واتزانًا.

قول في مقال

عسير.. وأقدم شواهد لاستئناس الخيول

أ. د. عماد الصياد
أكاديمي في جامعة الملك خالد

قرأتُ ما نشرته القافلة في عددها رقم 706 (سبتمبر – أكتوبر 2024)، وتناول موضوعًا شائقًا للكاتبة فاطمة البغدادي، في باب "علوم وتكنولوجيا" تحت عنوان "كيف غيَّرت الخيول مجرى التاريخ؟"، حيث أشارت الكاتبة إلى الأحافير التي عُثر عليها في مناطق مُتفرّقة من آسيا الوسطى وأوروبا وأمريكا الشمالية، واستطردت بتفصيل جاذب إلى ارتباط تاريخ البشرية ومسار الحضارات بالخيول، وما طرأ على هذه الكائنات المذهلة من تطوّرات جينية وسلوكية خلال الأزمنة المُتعاقبة.

دعاني ذلك إلى الكتابة حول الجدل الذي كثيرًا ما يُثار حول التحديد المكاني لبداية استئناس الخيول في العالم القديم، خاصة بعدما اقترن استئناس هذا الحيوان ذي القدرات الخاصة بنهضة حضارية واضحة في الأنشطة العسكرية والاقتصادية وحتى الترفيهية. لذا، فلا غروَ من أن تتكامل الدراسات المعملية بتوظيف أدواتها من الكربون المشع، وتسلسل الحمض النووي، والتحليل الوراثي للبيانات الجينية، مع الدراسات التاريخية والحضارية اللتين تستندان في المقام الأول على الشواهد والمصادر الأثرية، بُغية التأكيد على نتائج بعضهما، أو أن تدحض إحداهما الأخرى.

أثبتت الحقائق العلمية القائمة على علم الجينات أن أولى محاولات استئناس الخيول كانت قبل 5500 أو 5000 عام في سهول أواسط آسيا (كازاخستان) من قِبل سكان حضارة بوتاي. وفي عام 2010م (1431هـ) شهد العالم تحديًا حول تاريخ استئناس الخيول، وذلك بعدما كشفت الهيئة العامة للسياحة والآثار نتائج أعمال التنقيب في موقع المقر (بالقرب من مركز القيرة بمحافظة تثليث في منطقة عسير من المملكة)، حيث كان من بين المكتشفات بالموقع مجموعة من المنحوتات الحجرية للخيول. بيْدَ أن ما لفت الأنظار إليها وأكسبها قيمة تاريخية وحضارية كبيرة، ظهور بعض من السمات عليها، مكّنت من الاستدلال على أسبقية سكان هذا الموقع في استئناس الخيول.

وكان من الشواهد الأثرية وسماتها الفنية المكتشفة في موقع المقر، أن ظهر على إحدى منحوتات الخيول، التي يبلغ طولها 86 سم، شكل لجام يلتف حول الرأس، إضافة إلى حزام يمتد من منطقة الكتف نزولًا إلى الساق الأمامية، وهو ما يُعد دليلًا قاطعًا على ترويض الخيل واستئناسها.

وعلى الرغم من أن بعضًا من الباحثين شككوا في ماهية هذه العلامات، مُرجِّحين كونها تجسيدًا لبعض الصفات التشريحية أو الطبيعية للخيول، مثل العضلات أو علامات الفراء وطياته، فإن الشواهد الأثرية من الموقع نفسه جاءت لتؤكد استئناس الخيول من خلال نقش صخري بخطوط بدائية يُصوِّر فارسًا على صهوة جواده بشكل واضح، ليدحض بذلك كل محاولات التشكيك.

وقد يساور القارئ شيء من الريب في أصالة تلك المنحوتات ومحليتها، بوصفها آثارًا منقولة يمكن جلبها من زمان أو مكان مختلف. ويكمن الرد على ذلك من اتجاهين: أولهما الدراسات المعملية، التي أكدت أن تلك المنحوتات جرى قطعها من أحجار الموقع نفسه؛ أي أنها محلية النشأة والتصنيع. ثانيهما، وهو ما يرتبط بالدراسات الأثرية التي كشفت عن النقش الصخري للفارس المذكور آنفًا، بوصفه من الآثار الثابتة المرتبطة بالموقع، إضافة إلى المنحوتات الحجرية المكتشفة لعدد من الحيوانات المتنوعة من الحجر المحلي. غير أن اللافت للنظر أن تماثيل الخيول كانت أكبرها حجمًا وأكثرها عددًا، بما يفيد احتمالية تقديس هذا الحيوان في موقع المقر.

أمَّا عن قضية التأريخ، فقد جرى إرسال عدد من العينات العضوية المُكتشفة بالموقع إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإخضاعها لتحليل كربون 14، وأثبتت النتائج أن تاريخها يعود إلى الفترة ما بين 7300 و6640 ق.م. أضف إلى ذلك أن المعثورات من الطبقة الأثرية نفسها المتضمنة تماثيل الخيول، كانت عبارة عن رؤوس سهام ومقاشط وسكاكين حجرية من طراز العصر الحجري الحديث؛ أي حوالي 7000 ق.م، وهو ما يتوافق مع نتائج تحليل الكربون المشع إلى حدٍّ بعيد.

ومن هنا، يمكن القول استنادًا إلى الشواهد الأثرية والدراسات المعملية إن إنسان "المقر" قد استأنس الخيول العربية التي اتضحت سلالتها من شكل الرأس والرقبة الطويلة، منذ ما يقرب من 9000 عام من وقتنا الحاضر؛ أي بفارق 4000 عام قبل استئناس الخيول في أواسط آسيا.

ولعلَّ ما فسَّر وجود فجوات زمنية واسعة في المواقع الأثرية المُكتشفة، ما شهدته الجزيرة العربية من تحولات مناخية متتابعة عبر عصورها القديمة؛ إذ تعرضت في كثير من أرجائها إلى الجفاف والتصحُّر. وخير شاهد على ذلك هو موقع المقر الذي كان مأهولًا بالسكان في العصر الحجري الحديث؛ أي حوالي 7000 ق.م، ثم انقطعت الشواهد بعد ذلك العصر، وهو ما يفيد بانتشار حالة من الجفاف والتصحر أودت بخصوبة الوادي ومعه الحياة النباتية ومبررات الاستقرار. وعلى ذلك، ونظرًا لطبيعة الخيول بوصفها حيوانات نباتية، فلم تعد تتسق مع خصائص البيئة الجافة ذات الدروب المديدة، فباتت الإبل تحتل مكانة الصدارة في النقل والمعارك تدريجيًا.

ويمكن الاستدلال على ذلك الأفول التدريجي من خلال المصادر النصية للحضارات المعاصرة، التي كانت على علاقة وطيدة بالعرب، فمنها السجلات الآشورية ببلاد الرافدين التي أفادت بأنه "كانت هدايا العرب تكريمًا للملك تشمل الإبل والحمير". كذلك ذكرت النصوص الإخمينية ببلاد فارس "أن الوفود التي تقدم الخيول هي الأرمن والكبادوكيون والاسكيزيون والساجارتيون. أمَّا العرب، فكانوا يقدمون الإبل".

أمَّا النقوش العربية الجنوبية، فقد ظهرت فيها كلمة "فرس" بكثرة منذ القرن الأول الميلادي وصاعدًا، وكذلك الحال في النقوش الصخرية التي أظهرت استخدام الخيول إمَّا حرة أو تسحب عربات؛ وهو ما يعكس العودة التدريجية للعناية بالخيول حتى باتت من سمات الجزيرة العربية وفخرها إلى وقتنا الحاضر.

التربية الأبوية

بين حدَّي القسوة المُفرطة والتراخي

على مرِّ العصور، كان تعليم الأبناء مهارات الحياة هاجسًا لدى الآباء، بدءًا من تعليمهم كيفية النجاة من الوحوش في العصر البدائي إلى مهارات العيش بين الناس في مجتمع، وإتقان عمل يعتاشون منه ويكتسبون به مكانتهم في المجتمع.

في أوائل القرن العشرين عرَّف عالم الاجتماع الفرنسي، إميل دوركايم، التربية بأنها التأثير الذي يجريه الجيل الراشد في الجيل الناشئ. والتربية ليست علاقة ثنائية بين الأهل من جهة والطفل من جهة؛ بل تتدخل فيها عوامل المجتمع ومنظومته القيمية وسلوك أفراده الآخرين وأنواع الفن السائدة فيه والرفاق والأقارب، ثم تأتي المدرسة بمناهجها وأنواع الراشدين والأطفال فيها.

وما بين التشدّد في القسوة، سواء أكانت جسدية أم لفظية، التي يمكن أن تكون في ظروف معينة مسيئة أكثر مما هي ضابطة ومحسّنة، والتراخي الذي يترك الطفل والمراهق من دون حسيب أو رقيب وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك؛ هناك مساحة وسطى بالغة التعقيد، تحاول "القافلة" أن تستطلعها هنا من خلال ثلاث مشاركات. ففي البداية، يستعرض أسامة أمين، الممارسة التربوية التي كانت حتى الأمس القريب الأكثر شيوعًا في العالم: الضرب.. ما له وما عليه. وفي المشاركة الثانية تتعرض نعيمة بنعبدالعالي لماهية المنطقة الوسطى التي أشرنا إليها آنفًا، من خلال ما توصَّل إليه المربّون وعلماء النفس والاجتماع في العصر الحديث. ومن ثَمَّ، يُسلِّط د. سعيد هادي وهاس الضوء على جذور قضية التربية التي تمتد عميقًا إلى لحظة زواج الأبوين، وربَّما إلى ما قبلها؛ لضمان أهليتهما لتربية الأبناء المرتقبين.

هل كان الأهل أشرارًا؟

أسامة أمين
كاتب متخصص في شؤون التعليم

يتذكر كبار السن جيدًا تجاربهم مع الضرب الذي تلقوه على أيدي الوالدين ومن المعلمين، بل ربّما من بعض الأقارب. فالكل كان يرى أن من حقه أن يُسهم في عملية التربية. ولعلَّ ما يواسي هؤلاء أن يعلموا أن هذا النمط من التربية لم يكن مقصورًا عليهم، بل كان منتشرًا على مستوى العالم في الماضي.

وحتى اليوم، وفي الدول الرائدة في علم النفس وإطلاق النظريات في التربية الحديثة، لا يزال الضرب مسموحًا في بعضها، كما هو الحال، على سبيل المثال، في 17 ولاية أمريكية. ولا يزال عدد من خبراء التربية والمفكرين يكافح لإنهاء هذه العادة، ومن بينهم طبيبة الأطفال والأستاذة المساعدة في جامعة أوريغون للصحة والعلوم، جايمي أندرسن، التي تؤكد أن الضرب لم يزل يُمارس حتى في الولايات التي تمنعه، ولو على نطاق ضيق لا يجري الإبلاغ عنه دائمًا. كما أن الدول التي تمنعه، تعترف بأنه ما زال مستمرًا، لكن بعيدًا عن الأعين.

تناقضات الصورة في ذهن الطفل

من المبالغات الظالمة أن يصوِّر البعض طفولتهم وكأنها كانت عبارة عن سنوات من التعذيب المتواصل. بل على العكس من ذلك؛ إذ لا بدَّ للذاكرة من أن تستعيد لحظات كثيرة كانت مليئة بالحب والحنان، ومواقف لا حصر لها كان الآباء والأمهات فيها يلاعبون أطفالهم ويضحكون معهم.

لكن يبدو أن هذه اللحظات والمواقف الإيجابية، هي التي كانت تجعل كثيرًا من الأطفال، آنذاك، يتساءلون هل كان من يعنّفهم ويضربهم بقسوة في هذه الليلة، هو الشخص نفسه الذي كان يحنو عليهم ويلاطفهم في الليلة السابقة. وكان ذلك يسبب لهم الحيرة والتوتر المستمر؛ لأنهم لا يستطيعون توقُّع أي الشخصيتين سيكون موجودًا في الليلة التالية.

بعض الآباء والأمهات تنتابهم نوبة من الندم على فعلتهم، حين يرون فلذات قلوبهم ينظرون إليهم بخوف وريبة، حتى إذا أرادوا أن يُربِّتوا عليهم، فزع الأطفال ونفروا منهم، فيسعى الآباء والأمهات لتبرير العنف الذي ارتكبوه بعبارات تزيد من ألم الطفل بدلًا من أن تخفف عنه، من قبيل: "إنما نفعل ذلك من أجل مصلحتك"، أو "إنما نضربك لأننا نحبك، ونريدك أن تصبح أحسن الناس". ولكن عقل الطفل لا يستوعب هذا المنطق المتناقض.

وهنا، لا بدَّ من الإشارة إلى أن البعض الآخر من الآباء والأمهات كانت تعتريهم نوبات متزايدة من الغضب، حين يدركون فشل محاولاتهم في تهدئة الطفل، فيلجؤون إلى أسوأ الممارسات على الإطلاق، وهي استئناف الضرب عقابًا على البكاء والصراخ، فكأنهم يرون أن عدم التوقف عن البكاء هو نوع من التحدي لهم.



يُطلق توصيف "الطفل" في القوانين والأعراف التربوية والعقابية على المولود حتى يبلغ سن الرشد، التي تدور حول الثمانية عشر عامًا، تزيد أو تنقص عامًا أو عامين بحسب التشريع في كل بلد من البلدان.
وقد بدأت الجهود الدولية الجماعية لحماية الطفل بإعلان جنيف لحقوق الطفل عام 1924م، ثم إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1959م الخاص بالطفل، والمعترف به ضمن مدوّنة حقوق الإنسان الدولية. وتطوَّرت القوانين الوطنية لرعاية الطفل إلى حدٍّ قد يراه الشرقيون تطرفًا في القوانين الغربية التي تصل إلى حد نزع الأطفال من أسرهم لحمايتهم من الضرب. فتقوم الدولة بدور الأب للآباء، وهذا محل نزاعات قضائية بين المهاجرين والحكومات، خصوصًا ذات الرعاية القصوى للأطفال مثل السويد.

لماذا الضرب؟
لأن هذا ما كان يفعله الجميع!

من المؤكد أن الغالبية العظمى من الأهل، الذين كانوا يمارسون الضرب بوصفه أسلوب تربية، لم يكونوا يستمتعون بذلك، بل كانوا يفعلون ذلك لأسباب عديدة، على رأسها الاعتقاد السائد، آنذاك، بأن هذه الطريقة ناجحة وتُؤتي ثمارها بأسرع وقت. فالطفل الذي يتلقى صفعة على وجهه، أو ضربات متوالية بالعصا على جسده؛ لأنه لعب في الشارع بعد المدرسة، بدلًا من العودة مباشرة إلى المنزل، للقيام بالواجبات المدرسية؛ سيفكر في المرة القادمة ألف مرة، قبل أن يطيع أصحابه باللعب معهم.

هذا ما تعلمه الوالدان من قبل على أيدي والديهما، وتوارثا هذا الأسلوب من التفكير. ولم يكن من المعتاد أن يفكر الناس في الآثار السلبية للضرب، الذي لا يجعل الطفل يقتنع، بل يكسر إرادته، ويزرع الخوف داخله، ويقلل ثقته بنفسه؛ بل ربَّما يؤدي هذا الضرب إلى ترسيخ قناعة لدى الطفل أنه إنسان سيئ يستحق هذا العقاب؛ لأنه هو المسؤول عن تحوّل أبيه وأمه عن الشخصية الطيبة اللطيفة، إلى هذين الشخصين اللذين يشعر بالقشعريرة منهما في هذه اللحظات.

كانت هذه هي الثقافة السائدة في المجتمع، والكل يكرر عبارات من قبيل "العصا لمن عصى"، وما كان يقال للمعلمين من نوعية "لكم اللحم ولنا العظم". ولم يكن هناك من يعترض على هذا النهج من التربية، كأن يطالب أحد ما الأب أو الأم بالتوقف عن ذلك؛ لأنه كانت هناك قناعة بأن الطفل ملك لوالديه، يفعلان به ما يرونه في صالحه.

لم تكن الدراسات التي تناولت التأثيرات النفسية على الطفل الذي يتعرض للعنف، قد شقَّت طريقها إلى الرأي العام بعدُ. ربَّما نشرت بعض الصحف مقالات، وربَّما سعت برامج تلفزيونية لتوضيح ذلك، لكن الغالبية العظمى لم تكن تحب أن تطلع على ما يخالف قناعاتها وموروثها الذي تلقته من الجيل السابق، فضلًا عن أن المكانة والسلطة التي كان الوالدان يتمتعان بها، لم تكن تقبل الانتقاص منها.

إذًا، ليست الرغبة في الانتقام محرك هذا العنف من الوالدين على الأطفال، بل قلة المعرفة بوجود وسائل تربية بديلة أفضل من الضرب، وكان التركيز على الهدف، مع عدم مراعاة عواقب الوسيلة المستخدمة. وكانت هناك رغبة في السير مع المجتمع في الطريق الذي تسلكه الغالبية، إضافة إلى ضغوط الحياة الهائلة، آنذاك، والفهم الخطأ لمعنى احترام الوالدين.



لا يزال الضرب مسموحًا حتى في بعض الدول الرائدة في علم النفس وإطلاق النظريات التربوية الحديثة، ولا يزال الخبراء والمفكرون يكافحون لإنهاء هذه العادة.



هل الطفل نصف إنسان؟

لعلَّه آن الأوان أن يدرك الجميع أن الطفل ليس أحد ممتلكاتنا، بل هو إنسان يتمتع بالكرامة، كاملة غير منقوصة، من دون أن يقلل ذلك من مسؤولية الوالدين، وحقوقهما الأصيلة في تربيته. بل من المؤكد أن الوالدين هم أكثر الناس حرصًا على كرامة طفلهما وإنسانيته، والرغبة الأكيدة في تحقيق الأفضل له، على الأقل بحسب فهمهما لما هو أفضل للطفل، وهو ما قد يتسبب أحيانًا في الخلط بين ما هو الأفضل له، وما هو الأفضل لهما.

وإذا كانت الغالبية العظمى من دول العالم قد وقَّعت على اتفاقية حقوق الطفل، الصادرة عن الأمم المتحدة، والتي دخلت حيز التنفيذ منذ 2 سبتمبر 1990م، فإنه ليس من المتوقع أن يكون كل الراغبين في الزواج قد سمعوا عنها، وسعوا إلى الاستفادة من محتواها، الذي يشير، مثلًا، إلى أنه يجب على الحكومات حماية الأطفال من العنف والإساءة على أيدي المسؤولين عن رعايتهم، وأنه ينبغي للبالغين الاستماع إلى الأطفال والتعامل بجدية مع آرائهم.

والحل؟! قبل التفكير في معاقبة الطفل، وقبل الإبداع في أساليب العقاب، مثل حرمانه من مصروف الجيب، أو إلغاء السفر إلى الخارج في العطلة الصيفية، يجب البدء بترسيخ القيم، بالتعريف بما هو صواب وما هو خطأ، وشرح المبررات والأسباب، والاستماع إلى رأي الطفل، بما في ذلك أكثر الآراء استفزازًا؛ لأن ذلك يعطي الأبوين الفرصة للرد عليها، وهذا ما يعني ضمنًا أنه وثق بهما، وأطلعهما على ما يفكر فيه، بدلًا من أن يناقش أموره مع صديقه، الذي غالبًا ما سيؤيده، بدافع الصداقة، أو لأنه لا يملك المعارف اللازمة.

الخطأ الذي يقع فيه الطفل ليس المشكلة، بل كيفية التعامل مع هذا الخطأ، مثل أن يسأل الأب نفسه أولًا، هل كان قد أوضح من قبل لابنه أن هذا السلوك خطأ؟ وهل كان هو وزوجته حريصين على أن يكونا مثلًا أعلى وقدوة في هذا السلوك؟ ثم يسأل عن الدوافع التي جعلت طفله يرتكب هذا الخطأ، ليس بهدف إيجاد المبرر له، بل لفهم الخلفية، وهو ما يساعد على التعامل مع الخطأ، وتربية الأطفال من دون اللجوء إلى العنف.

لا يمكن للضرب أن يكون الحل السحري لكل المشكلات، بل هو في المقام الأول دليل على عجز الوالدين عن توضيح الخطأ، من خلال لغة التواصل الطبيعية بين البشر، وهي الكلام. والضرب هو أفضل وسيلة لكسر إرادة الطفل، وجعله سهل الانقياد. ولكن هذا الانقياد لن ينتهي عند حدود باب البيت، بل سيلازمه في الخارج، فيطيع رفيق السوء، ولا يقدر على رد الظلم الذي يقع عليه من الآخرين، وربَّما يظل على هذه الوتيرة في الكبر ليكون إمعة في محيطه. فهل هناك من يريد ذلك لابنه أو ابنته؟



الضرب لا يجعل الطفل يقتنع، بل يكسر إرادته، ويزرع الخوف داخله، ويقلل ثقته بنفسه، ولربَّما أدى إلى ترسيخ قناعته بأنه إنسان سيئ وسيبقى كذلك.

خطأ الطفل فرصة للتعلُّم

د. نعيمة بنعبدالعالي
أستاذ الاقتصاد السياسي
جامعة محمد الخامس، المغرب

يواجه الآباء والمربون تحديات يومية تتعلق ببعض السلوكيات غير المرغوبة عند الأطفال، مثل: الكذب، أو السرقة البسيطة، أو التمرد على السلطة الأبوية، أو إهمال المسؤوليات. هذه الأخطاء الأخلاقية ليست مجرد سلوكيات سطحية، بل هي تعبير عن قضايا أعمق مرتبطة بالنمو النفسي والاجتماعي للطفل.

هذه القضية ليست حديثة العهد، فقد تناولها الأدب والفلسفة والأنثروبولوجيا والعلوم التربوية على مر العصور؛ إذ جرى استكشاف تأثير هذه الأخطاء الأخلاقية، وأفضل الطرق لمعالجتها. ومن خلال استعراض أمثلة من الأدب، واستنادًا إلى التحليلات الحديثة، يمكننا الوصول إلى فهم أعمق لكيفية التعامل مع هذه السلوكيات بشكل فعَّال.

الأخطاء الأخلاقية بين الأدب والحياة

الأطفال ليسوا بالغين صغارًا، بل هم كائنات في طور التكوين النفسي والاجتماعي. فالكذب، على سبيل المثال، قد يظهر عند الأطفال في سن مبكرة بوصفه وسيلة لاستكشاف حدود الإدراك الاجتماعي. وتشير الدراسات النفسية إلى أن الأطفال، في سن الرابعة أو الخامسة، يبدؤون في تطوير ما يُعرف بـ"نظرية العقل"، حيث يدركون أن للآخرين معتقدات ورغبات قد تختلف عن واقعهم الشخصي. هذا الإدراك الجديد يدفعهم أحيانًا إلى اختبار هذه الفروق من خلال الكذب.

السرقة الطفولية هي ظاهرة أخرى ترتبط بمرحلة النمو؛ إذ ربَّما لا يفهم الطفل تمامًا مفهوم الملكية، أو يشعر برغبة قوية في امتلاك شيء من دون إدراك لعواقب أفعاله. هنا يجب أن يتعامل المربون مع هذا السلوك بوصفه فرصة للتعليم بدلًا من العقاب القاسي؛ لأن العقاب وحدَه قد يعزِّز شعور الطفل بالعار، أو قد يعزله نفسيًا.

أمَّا التمرد، فهو سمة شائعة في مرحلة المراهقة، حيث يبدأ الطفل في البحث عن هويته المستقلة. التمرد في هذه المرحلة هو تعبير عن الحاجة إلى إثبات الذات، ولكنه قد يكون أيضًا صرخة طلبًا للمساعدة، أو تعبيرًا عن ضغوط عاطفية غير مفهومة.

لطالما شكَّلت هذه الأخطاء الأخلاقية محاور مركزية في كثير من الأعمال الأدبية، وهو ما جعلها مرآة تعكس التعقيدات النفسية والاجتماعية للبشر. فلو أخذنا، مثلًا، رواية "بينوكيو"، التي جسَّدت الكذب بشكل رمزي عندما كان أنف الدمية يطول مع كل كذبة. الكذب هنا لم يكن مجرد خطأ بسيط، بل كان انعكاسًا لانعدام النضج وحاجة الطفل إلى التوجيه. لكن الحل لم يكن العقاب الصارم، بل توجيه الجنية الزرقاء لبينوكيو نحو تصحيح مساره، وهو ما يُظهر أهمية الحب والصبر في التربية.

من جهة أخرى، تُظهر قصص "جحا "العربية كيف يمكن للكذب أن يصبح وسيلة للتعامل مع الواقع الاجتماعي الضاغط. ففي إحدى النوادر، يدَّعي جحا أن أسدًا سرق كيس دقيقه ليتجنب الإجابة عن سؤال محرج. قد يبدو هذا التصرف ساخرًا، ولكنه يعكس قضايا أعمق مثل الضغوط المجتمعية التي تدفع الأفراد إلى اختلاق أعذار لتجنب المواجهة.



وفي الأدب الفرنسي، تُسلِّط رواية" الأمير الصغير" الضوء على قدرة الأطفال على التمرد ببراءة عندما لا يفهمون معايير عالم الكبار، وهو ما يجعل هذا التمرد جزءًا من اكتشاف الذات. على النقيض، تصوِّر رواية "1984" لجورج أورويل، كيف يدفع القمع المفرط الأفراد إلى الكذب والخداع بوصفه رد فعل على الرقابة الصارمة. الأدب هنا يُقدِّم رؤى متعددة الأبعاد؛ فهو لا يرى الأخطاء الأخلاقية بوصفها عائقًا فقط، بل إنها نقطة انطلاق لفهم أعمق للسلوك الإنساني.

بين العقاب والتوجيه: أيهما أنجع؟

تُظهر البحوث التربوية الحديثة أن العقاب الصارم، خاصة إذا كان يتسم بالقسوة، قد يؤدي إلى نتائج عكسية.

وقد سبق لابن خلدون أن أشار إلى خطورة العقاب القاسي، حيث حذَّر من أنه قد يدفع الأطفال إلى الكذب خوفًا من العقاب، وهو ما يُظهر أن فهم الطفل لسلوكه يكون مشوهًا تحت ضغط الخوف.

على النقيض من ذلك، تشير النظريات التربوية الحديثة إلى أهمية الحوار والتفاهم بوصفهما وسائل فعالة لتوجيه الطفل. عندما يجري إشراك الطفل في مناقشة حول خطئه، يُعلَّم التفكير في عواقب أفعاله، وفهم أبعادها الأخلاقية. فيُعزز هذا النهج من قدرته على تحمل المسؤولية بشكل مستقل.

وتُظهر التجارب الحديثة في علم الأعصاب أن الخوف الناتج عن العقاب يُحفِّز "الدماغ العاطفي" (الجهاز الحوفي)، ويعوق عمل "الدماغ المُفكِّر" (القشرة المخية). فعندما يشعر الطفل بالأمان والثقة، يكون دماغه أقدر على استيعاب القيم والتعلُّم من الأخطاء.

لذلك، فإن التربية الحديثة توصي بتركيز الجهود على بناء حوار مفتوح مع الطفل، وهو ما يعزِّز الثقة المتبادلة مع أبويه، ويساعده على مواجهة أخطائه بشجاعة.

فهم الأسباب الكامنة وراء الأخطاء

إن أخطاءنا الصغيرة التي نرتكبها في صغرنا قد تكون أحيانًا مظاهر لحاجات نفسية عميقة. فعلى سبيل المثال، قد يلجأ الطفل إلى الكذب لتجنُّب الإحراج أو العقاب، أو وسيلةً لنيل قسط من الاهتمام. في المقابل، قد يكون التمرد انعكاسًا لرغبة الطفل في تأكيد هويته أو تحدي السلطة لتحقيق الاستقلالية.

تشير الباحثة الأنثروبولوجية، مارغريت ميد، إلى أن هذه السلوكيات قد تُفهم بشكل مختلف بحسب الثقافة. ففي بعض المجتمعات، يُنظر إلى الكذب بوصفه جزءًا من تطور الذكاء الاجتماعي لدى الأطفال، بينما تعدُّه مجتمعات أخرى مؤشرًا على انهيار أخلاقي.

وتُقدِّم دراسات، مثل تلك التي أجرتها كارول دويك حول "عقلية النمو"، أدلة على أن الأطفال الذين يُسمح لهم بارتكاب الأخطاء وتعلُّم الدروس منها يصبحون أكثر مرونة وإبداعًا في المستقبل. وتتماشى هذه الرؤية مع الأفكار التي وردت في قصص جحا، حيث تُقدَّم الأخطاء بلمسة فكاهية تجعلها فرصة للتأمل والتعلم.

التربية في عصر التحديات المعاصرة

مع تقدُّم العلوم التربوية والمعرفية، أصبحت التربية اليوم أكثر تعقيدًا من أي وقت مضى. فالتكنولوجيا، ووسائل التواصل الاجتماعي، والتغيرات الثقافية السريعة، تضيف تحديات جديدة أمام المربين. ولم تعد الأخطاء الأخلاقية مقتصرة على الكذب أو التمرد، بل تشمل قضايا مثل: التنمر الإلكتروني، والغش الأكاديمي، وغيرهما.

تتطلب هذه التحديات نهجًا متكاملًا يجمع بين الفهم العميق للنفسية البشرية والاستفادة من الموارد المتاحة مثل: الأدب والفنون والعلوم الحديثة. فالأخطاء الأخلاقية لدى الأطفال ليست مجرد تحديات يجب التغلب عليها، بل هي خطوات في رحلة طويلة نحو النضج. وتتطلب التربية الفعّالة توازنًا بين الحزم والتسامح، وبين العقاب والتشجيع.

وعندما نفهم أن كل خطأ يمثِّل فرصة تعليمٍ قيمة، نصبح قادرين على مساعدة الأطفال على بناء شخصيات قوية ومستقلة.

إن التربية ليست مجرد عملية نقل للمعرفة، بل إنها بناء مستمر للقيم الإنسانية. ومن خلال الدمج بين الأدب والعلوم والخبرة الحياتية، يمكننا بناء نهج تربوي شامل يساعد الأطفال على تجاوز أخطائهم، ليس فقط لتصحيح السلوك، بل أيضًا لإثراء شخصياتهم.

عندما يخطئ الطفل، فإن استجابتنا بوصفنا مربين هي ما يحدد ما إذا كان الخطأ سيصبح تجربة تعليمية أم نقطة ضعف مستدامة. وبالحوار والتفهُّم والحب، يمكننا تحويل كل خطأ إلى لبنة في بناء شخصية الطفل.



الخوف الناتج عن العقاب يُحفِّز "الدماغ العاطفي"، ويعوق عمل "الدماغ المُفكِّر"، وعندما يشعر الطفل بالأمان، يكون دماغه أقدر على الاستيعاب والتعلُّم من الأخطاء.



التربية والتعليم.. نحو نهج شامل

التربية ليست مجرد تصحيح أخطاء، بل هي عملية مستمرة تهدف إلى بناء شخصية الطفل على أسس أخلاقية قوية. وهذا لا يعني أنه يجب غض الطرف عن الأخطاء، ولكن يجب التعامل معها بحكمة تراعي احتياجات الطفل ودوافعه.

تشير الأبحاث الحديثة إلى أهمية التوازن بين الثواب والعقاب. فعلى سبيل المثال، تُعدُّ مكافأة السلوك الإيجابي بشكل مدروس من الأدوات الفعّالة لتعزيز القيم الإيجابية. وفي الوقت نفسه، يُفضَّل أن يكون العقاب إصلاحيًا وليس انتقاميًا. العقاب الإصلاحي يهدف إلى تعليم الطفل عواقب أفعاله بطريقة تجعله يكتسب فهمًا أعمق للمسؤولية. ويمكننا أن نعدد من أسس التربية الحديثة والفاعلة أهمها، وهي:

1 التعلم من الأخطاء.. منظور إيجابي

عندما نُعيد النظر في الأخطاء الأخلاقية من منظور إيجابي، نجد أنها تمثل فرصًا للتعلُّم والنمو. ولهذه الغاية يمكن، على سبيل المثال، استخدام القصص الأدبية أداةً تعليمية لمساعدة الأطفال على استيعاب القيم الأخلاقية؛ لتوضيح عواقب السلوكيات السلبية بطريقة غير مباشرة.

2 دور المجتمع في تشكيل الأخلاق

تؤدي الثقافة دورًا حاسمًا في تحديد الكيفية التي يرى بها المجتمع الأخطاء الأخلاقية ويتعامل معها. في المجتمعات التي تفرض معايير صارمة وتوقعات مثالية، قد يجد الأطفال أنفسهم تحت ضغط هائل يلجؤون معه إلى الكذب أو التمويه تجنبًا للعقاب أو تحقيقًا للتوقعات.

وعلى الجانب الآخر، المجتمعات التي تشجع على حرية التعبير والتعلُّم من الأخطاء، توفر بيئة أكثر دعمًا لنمو الطفل. وهنا يظهر مفهوم "الخطأ كفرصة"، حيث يجري التركيز على تعليم الطفل كيفية تجاوز الخطأ وفهم عواقبه بدلًا من تجنُّب العقاب.

تشير أبحاث كارول دويك، على سبيل المثال، إلى أهمية تعزيز "عقلية النمو" لدى الأطفال، حيث يتعلمون أن الفشل ليس نهاية المطاف، بل هو فرصة للتعلُّم والتطور.

رخصة تربية قبل الإنجاب!

د. سعيد هادي وهاس
استشاري علم النفس السريري والعصبي

عند بداية التفكير في الارتباط الزوجي ما بين الرجل والمرأة، هناك سؤال جوهري يُفترض طرحه: هل الاثنان صالحان ومؤهلان لتنشئة ذرية؟ وهل من الواجب امتلاك رخصة "تربية أبناء" وفقًا لمعايير الكفاءات التربوية ومخرجاتها من جهات مرجعية للتربية السليمة والصحية من جهة أخرى؟

ليس كل من يدخل قفص الزوجية صالحًا لتربية أبناء. وهناك كفاءات تربوية لا بدَّ من توافرها في الأب والأم. فمن يودُّ أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا أو معلمًا... إلخ، فلا بدَّ له من امتلاك الكفاءات المهنية لكل مهنة من هذه المهن من خلال اكتساب المعرفة العلمية بداية، وترجمة تلك المعرفة العلمية إلى مهارات مهنية. كذلك هو واقع التربية كي نخلق ثروة بشرية ورأس مال إنساني يفيد نفسه بداية، ومن قام على تربيته ومجتمعه وأمته وجميع البشرية. لأن منجزات اليوم في شتى جوانب الحياة، هي وليدة فكر بشري فردي وجماعي، وبذلك تصبح المنجزات الفردية ملكًا للجميع، وتعطي ثمارها في مختلف بقاع الأرض. في المقابل، فإن الجريمة بشتى أشكالها وصورها والتدمير والضياع والمخدرات وجميع صور المعاناة ذات العلاقة وضعف الأمم والشعوب وانعدام رأس المال البشري، ليست إلا مخرجات لانعدام الكفاءات التربوية عند الآباء والأمهات. لذا، قيل إن التربية "علم"؛ لأنها قائمة على معطيات معرفية ونظريات علمية تُكتسب من خلال القنوات الأكاديمية الرسمية، وفي الوقت نفسه هي "فن" يُنال من خلال التدريب والإشراف، ليُقال إن هذين الأبوين صالحان لتربية الأبناء.

التخبط بين الأساليب المتعددة

تتعدد الأساليب التربوية ما بين المُفرط في الشدّة، وتتمثل في التسلُّط والغلظة والإهمال والعنف الجسدي والعاطفي والحرمان من جهة؛ واللين والمرونة الزائدة والدلال المبالغ فيه والخوف والحماية المفرطة، من جهة أخرى، وهناك مسار الـ"بين بين". إذ لا توجد هناك حدود قاطعة بين القطبين. ولكن في نهاية المطاف، تتساوى المخرجات الكارثية لتزيد في العقاب أو التدليل. والعجيب أن من يمارسون ذلك لا يدركون أنهم وأبناءهم في المنطقة المحظورة نتيجة الجهل وامتلاكهم لمعتقدات خاطئة وإرث تربوي. فمنهم من يقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا وسوف نسير على نفس الخطى والنهج. ومنهم من يتبنى نهجًا تربويًا خاصًا من خلال المحاولة والخطأ. لكن الوقت حاسم ولا يحتمل هذه السياسة التربوية الخاطئة الناجمة عن التخبط التربوي، الذي يُفضي إلى مخرجات عقيمة وآثار مدمرة ونتاج فاسد على جميع الصُّعُد.

الأساس في شخصيتي الأبوين

إن معرفة النمط التربوي السليم ضرورية. وهذا النمط ليس وليد لحظة أو ساعة أو يوم، وإنما نهج ممتد منذ اختيار الزوج والزوجة، وخصائصهما السلوكية، وسماتهما الشخصية، ودرجة النضج لدى كل منهما، ومستوى التوافق بينهما، ومهارات التعايش الزوجي والأسري، وحل الخلافات بينهما؛ وذلك منذ بداية فترة الحمل إلى ولادة الطفل ومراهقته بمراحلها المتعددة، وصولًا إلى مرحلة النضج. ومثل هذا لن يأتي بالمصادفة المحضة، ولا يُباع في الأسواق، ولا يُهدى ولا يُورّث، وإنما هو مسيرة ورحلة زمنية تمتد إلى عقود تُكتسب من خلال كفاءات تربوية تؤخذ من مصادرها العلمية ومهاراتها.

يأتي الثنائي، الرجل والمرأة، إلى ساحة الزواج بخصائص وخلفيات متباينة على كل الصُّعُد. ويمكن لهذا التباين أن يشكِّل تربة خصبة لنشأة جيل مضطرب. فالأمر يحتاج إلى مستوى إدراك لدى كل من الزوج والزوجة لطبيعة الارتباط الزوجي الذي يؤثر في الأبناء. ومن ثَمَّ، لا بدَّ من تلاقي الثنائي، الرجل والمرأة، في منتصف الطريق "المنطقة الآمنة" بين قطبيهما.

الأخطاء الأخلاقية تمثِّل فرصًا للتعلُّم والنمو. ويمكن الاستعانة بالقصص الأدبية أداةً تعليمية لمساعدة الأطفال على استيعاب القيم الأخلاقية.



يُضاف إلى ما ذُكر من الأساليب التربوية المتبعة من قبل الوالدين والمحيطين، عوامل أخرى لا تقل أهمية عن أنماط التربية التي تلقي بقاتم ظلالها على حياة الأبناء، تتمثَّل في الصراعات والخلافات المستمرة وغير المحلولة بين الزوجين والأسرة عمومًا، وأثر ذلك على مسار الأبناء. كما أن أحد الوالدين قد يعاني أزمات صحية أو نفسية أو سلوكيات مرضية، وما يخلفه مثل ذلك على سير التربية. يُضاف إلى ذلك كله، "الأسر الفوضوية"، وغياب الحدود العائلية، ومعرفة دور كل عضو في الأسرة. ولذا، يُقال إن التربية ليست نتاج الأبوين فقط، على الرغم من أنهما نواة الأسرة. غير أن دور الأسرة الممتدة والمجتمع المحلي والعام لا يقل أهمية عن دور الأسرة النواة.

ولعلَّ ما يجب الإشارة إليه هنا نظرًا لأهميته البالغة، هو العنف الأبوي والأسري تجاه الأبناء من قبل الوالدين والمقربين، سواء أكان العنف جسديًا أم لفظيًا أم عاطفيًا. ويأتي العنف إمَّا نتيجة الجهل بأساليب التربية، وإمَّا لعقد نفسية أبوية سابقة وتراكمات نفسية خفية شعورية ولا شعورية تحرك الآباء والأمهات صوب هذا المسلك الخطير والمنزلق الصعب. يسلك الطفل في غالب الأحيان سلوكًا قد يبدو غير مُرضٍ لتوجهات الآباء والأمهات وفقًا لقواعد وقراءات فكرية ومعتقدات تكوَّنت لديهم خلال مسيرة حياتهم لا يعيها الطفل، وعند مخالفته لمثل هذه المنظومات الخارجة عن إدراكه يُعاقب، وقد يصل العقاب إلى العنف وسوء المعاملة غير المبرر.

التعزيز أهم من العقاب

ما نودُّ تأكيده هو أن العقاب بوصفه إجراء سلوكيًا لا يُوصى به من قبل أهل الاختصاص؛ لأنه يقود لما هو أسوأ منه، ويتعارض مع حقوق الطفل، ومخرجاته عادة سيئة. والبديل السلوكي المناسب للعقاب والمُوصى به هو ما يُعرف بـ"التعزيز" بشقيه: التعزيز الإيجابي، والمتمثل في مكافأة الطفل عندما يصدر عنه سلوك مرغوب وحسن من خلال المعززات التي يرغب فيها بهدف استدامة ذلك السلوك الصحيح؛ والتعزيز السلبي، والمتمثِّل في سحب شيء يرغب فيه الطفل، عند ظهور سلوك غير محبب مع الشرح الوافي للطفل لماذا أُعطِي المعزِّز الإيجابي، وكذلك المعزِّز السلبي.

أجمعت الدراسات والأبحاث على أن الخبرات السابقة السيئة، ويتربع على قمتها النمط الوالدي في التربية، هي السبب الرئيس وراء ظهور الاضطرابات النفسية، بدءًا من البسيطة وصولًا إلى المُعقَّدة، مثل: الإدمان والعنف والإرهاب والالتصاق المرضي، ويمتد الأمر ليشمل بنية الدماغ ووظائفه. إذ إن مثل تلك الخبرات السابقة السيئة تشكِّل مفهومًا هشًّا للذات، وتبني قاعدة لمعتقدات مشوهة، وتقود إلى سلوك التعلُّق وضعف الكفاءة الذاتية و"الأنا العليا" (Super Ego) الخالية من قيم الحياة، وعقد نقص، ونقص في مهارات التواصل والحياة؛ وهو ما يؤدي بدوره إلى خلق صراعات داخلية وصراعات بينية تُولِّد المعاناة في النفس والجسد.

إن تحقيق مطلب الطفولة الآمنة والمستقرة لا يأتي اعتباطًا، وإنما من خلال كفاءات تربوية تُحدَّد من قبل المختصين في الجانب التربوي والنفسي والاجتماعي والصحي، ومن ثَمَّ، إكسابها للمتزوجين قبل ولادة الأبناء، وعمل ما يشبه الاختبار التربوي المهني للاجتياز والحصول على الرخصة التربوية. ولا يُترك الأمر عشوائيًا نظرًا للمآسي المترتبة على التربية غير المدروسة وغير المخطط لها.



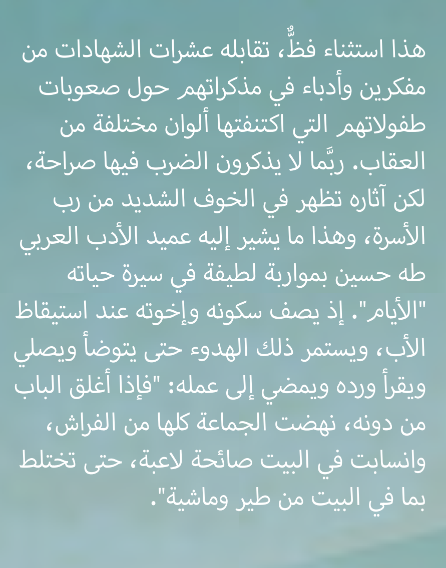
اقرأ القافلة: التربية بواسطة الذكاء العاطفي.. كي تصبح أسئلة الأهل في محلها! من العدد مايو-يونيو 2007م.



الضرب في ذاكرة الأدباء

على عكس الغالبية العظمى من الذين تعرضوا للضرب في طفولتهم على أيدي والديهم، ونسوا أو تناسوا ذلك بمرِّ السنين، فإن بعض الأدباء قرَّروا أن ينشروا ذلك على الملأ؛ ليقرأه آلاف الأشخاص. وليس بوسعنا أن نحدد هل كان ذلك بدافع الانتقام من آباء وأمهات تلك الحقبة من الزمن، أم لتعريف الناس بتأثير ذلك الضرب على نفسية الطفل.

اكتسبت رواية محمد شكري "الخبز الحافي" شهرتها العالمية من أنها تُقدِّم نموذجًا للحياة العارية أو "الهومو ساكر"؛ إذ يكون الإنسان مجرد مخلوق مجرد من حقوقه، ليس لديه سوى حياته البيولوجية. ففي قلب منظومة الفقر التي تعالجها الرواية، أب غضوب جامح، ومن أفظع مشاهدها وصف البطل لضرب شقيقه الأصغر الذي أفضى إلى موته.



هذا استثناء فظٌّ، تقابله عشرات الشهادات من مفكرين وأدباء في مذكراتهم حول صعوبات طفولاتهم التي اكتنفتها ألوان مختلفة من العقاب. ربَّما لا يذكرون الضرب فيها صراحة، لكن آثاره تظهر في الخوف الشديد من رب الأسرة، وهذا ما يشير إليه عميد الأدب العربي طه حسين بمواربة لطيفة في سيرة حياته "الأيام". إذ يصف سكونه وإخوته عند استيقاظ الأب، ويستمر ذلك الهدوء حتى يتوضأ ويصلي ويقرأ ورده ويمضي إلى عمله: "فإذا أغلق الباب من دونه، نهضت الجماعة كلها من الفراش، وانسابت في البيت صائحة لاعبة، حتى تختلط بما في البيت من طير وماشية".

وتناول نجيب محفوظ هذا الأمر في أكثر من موضع في ثلاثيته الشهيرة، "بين القصرين - قصر الشوق - السكرية". فكان أحمد عبدالجواد، ذلك الأب الصارم الذي يمتلك الصلاحيات المطلقة، يضرب الأبناء بيده الثقيلة. وحين يكون، كانوا يخفضون رؤوسهم، ولا يتجرؤون على رفع أعينهم في وجهه؛ لأن ذلك يعدُّ تحديًا لا يُغفر. وهذا ما خلق جدارًا من الخوف بينه وبين أولاده.

وفي ألمانيا، وصف كاتب اسمه "أولريش لاند" أحد هذه المواقف على النحو الآتي: "وقفت والدتنا أمامنا، وأشارت إلينا مرة أخرى بإصبعها الممدود ألا نحرك أيدينا الممتدة إلى أسفل. كانت أي حركة لا إرادية لرفع اليدين لحماية الوجه ستؤدي إلى صفعتين إضافيتين. كان هذا جزءًا من القواعد غير المكتوبة لهذا الطقس. ثم انهالت على كل واحد منا بسلسلة من عشر صفعات متتالية".

مع انطلاق الدورة الأولى لجائزة الأمير محمد بن سلمان

الترجمة.. طريق حرير بين العربية والصينية

تشكِّلُ الثقافتان الصينية والعربية ركيزتين عريقتين من أهم ركائز الإرث الثقافي والحضاري للإنسانية، وتُسهمان بفاعلية في أوجه الحياة كافة، والتعاونُ بينهما كان ولا يزال جسرًا للتواصل الإنساني والتفاعل الثقافي من طريق الحرير القديم إلى أحدث مبادرات اليوم.

وفي صميم العلاقات الثقافية الصينية العربية، يأتي التعاونُ الثقافي بين المملكة العربية السعودية وجمهورية الصين الشعبية، ركيزةً لهذه العلاقات، ورافعةً لمجالات ثقافية متعددة تشمل التعليم والفنون واللغة والترجمة. وقد جاءت جائزة الأمير محمد بن سلمان للتعاون الثقافي بين المملكة والصين تتويجًا للجهود المبذولة لتنمية العلاقات الثقافية على جانبيها العربي والصيني. وكان الإعلان عن الجائزة قد حصل عام 2019م، بينما تنطلق دورتها الأولى هذا العام، بعد فتح باب الترشيح لها منذ أكتوبر الماضي حتى نهاية فبراير من العام الحالي.

يارا المصري



تُمثِّل الترجمة مجالًا مهمًا في العلاقات السعودية الصينية. ومن أوجهها على سبيل المثال، مشروع وكالة "كلمات" لترجمة الأدب السعودي، بالتعاون مع دار النشر التابعة لجامعة إعداد المعلمين في بكين. ومن الأعمال التي تُرجمت إلى اللغة الصينية رواية "البحريات" للكاتبة أميمة الخميس، ورواية "رحلة الفتى النجدي" للكاتب يوسف المحيميد. إضافة إلى اهتمام دُور النشر الصينية بترجمة الأدب السعودي مثل "مدن تأكل العشب" للكاتب عبده خال، وعَقدِ الجامعات السعودية ندوات مختلفة عن الأدب والثقافة الصينيين، كما كانت المملكة ضيف الشرف في معرض بكين للكتاب لعام 2024م.

الدين والتجارة واللغة

كان الدِّينُ والتجارةُ العاملَين الأشدَّ تأثيرًا في العلاقات بين العالم العربي والصين على مدى قرون طويلة، مع ما رافق ذلك من متطلبات مثل الترجمة. وهذا ما أدَّى كذلك إلى نمو العلاقات الثقافية، انطلاقًا، على سبيل المثال، من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية، ومن حاجة التجَّار إلى التفاهم اللغوي في تبادل الأعمال التجارية.



وكانت الجزيرة العربية في مركز العلاقات العربية الصينية؛ دينيًا، حيث توجد "مكةُ المكرمة والمدينةُ المنورة"؛ وتجاريًّا، إذ توسَّطت شبه الجزيرة العربية طريقَ الحرير القديم بين الشرق الأقصى والبحر الأبيض المتوسط وإفريقيا. ومن اللطيف ما قاله الرحَّالة العربي ابن بطوطة عن الصين في كتابه "تحفة النظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار": "وبلادُ الصين آمنُ البلاد وأحسنُها حالًا للمسافر، فإنَّ الإنسان يسافرُ منفردًا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أنَّ لهم في كل منزل؛ أي في كل مكان، ببلادهم فندقًا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيتُ به من المسلمين وختم عليها، وأقفلَ باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح، جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه، وكتب بها تفسيرًا؛ أي شهادة رسمية، وبعث معهم من يوصِّلُهم إلى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة؛ أي شهادة رسمية، من حاكمه أنَّ الجميعَ قد وصلوا إليه".

وهذا يعني، بحسب رؤية ابن بطوطة، الأمنَ والأمانَ؛ إذ يمكن للأعمال كلِّها بما فيها الأعمالُ التجارية أن تزدهر، ويمكن للتواصل الإنساني بما يتضمنه من ثقافات ومعارفَ أن يكون مفيدًا للجميع.

وإذ تعود العلاقات العربية الصينية إلى نحو ألفي عام، فإنَّ الجغرافيا السياسية لم تكن بتلك الأسماء التي هي عليها الآن، ولا سيَّما من وجهة النظر الصينية. فقد أطلق الصينيون القدماء اسم "المناطق الغربية" على معظم ما يُسمَّى الآن "الشرق الأوسط" الذي يشمل العالم العربي، بينما تُعرَفُ "الصين" باسمها الحالي لدى العرب قديمًا وحديثًا.

وبوجه عام، يمكن تقسيم مراحل الترجمة الدينية والإبداعية من اللغة العربية إلى اللغة الصينية إلى ثلاث مراحل.

شهد معرض بكين الدولي للكتاب 2024م إطلاق مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي "إثراء" للمرحلة الأولى من الترجمة الصينية لكتاب "المعلقات لجيل الألفية"، التي شملت ثلاث معلقات لامرئ القيس والأعشى والنابغة الذبياني. لمعرفة المزيد حول مشروع الترجمة، التي تأتي بالتعاون مع جامعة بكين، يمكن مسح الرمز:



في البداية كان القرآن الكريم

ما بين نهاية حكم أسرة مينغ وبداية حكم أسرة تشينغ في القرن السابع عشر الميلادي، ترجم رجال دين مسلمون صينيون معاني آيات من القرآن الكريم، لاستخدامها في عِظاتهم وشروحهم للإسلام. ثم ظهرت الترجمة الكاملة لمعاني القرآن الكريم للمرَّة الأولى عام 1927م، على يد المترجم غير المسلم "لي تيه تشنغ"، الذي ترجم المعاني عن اللغة اليابانية بالاستعانة بالترجمة الإنجليزية.

ثم نُشرت الترجمة الكاملة لمعاني القرآن الكريم عن اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الصينية في الخمسينيات من القرن العشرين، على يد المترجم والباحث "ما جيان - محمد مكين الصيني"، وهو عالم دين ومترجم، وكان ضمن أول بعثة صينية تدرسُ في الأزهر الشريف في مصر. وقد نُشِرَت هذه الترجمة داخل الصين، ثم تولَّى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، لاحقًا، طباعة هذه الترجمة في نسخة جمعت بين النصين العربي والصيني. ونسخة محمد مكين الصيني لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية هي المعتمدة لدى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

على الجانب الإبداعي وفي اتصاله بالدين، أتم العلَّامة الصيني "ما ديشين - يوسف ما ديشين" ترجمة قصيدة "البُردة" للبوصيري عام 1867م، عقب عودته من رحلة إلى العالم العربي، ونُشِرَت بعد وفاته عام 1890م، وكانت قصيدة البوصيري من بواكير الأعمال العربية المترجمة إلى اللغة الصينية.

وظهرت أول ترجمة كاملة لكتاب "ألف ليلة وليلة" عام 1941م، وأنجزها المترجم "نا شُون" عن لغات وسيطة، وقدَّم بعض المترجمين الصينيين غير المسلمين إسهامات في الترجمة، مثلما فعل "شِي رُوَه"، الذي ترجم "ألف ليلة وليلة"، التي ازدادت شهرتها، ووصل عددُ ترجماتِها إلى اللغة الصينية إلى أكثر من عشر ترجمات. فيما قدَّم "ماو دون" و"بينغ شين" ترجمةً لمقاطع من كتاب "النبي" لجبران خليل جبران، الذي يُعَدُّ أحدَ أكثر الكتَّاب تأثيرًا في الصين. وترجم الكاتب "تشنغ تشن دوه" من الإنجليزية إلى الصينية بعض المقاطع من قصائد الشعراء المشهورين في العصر العباسي من أمثال: أبي نواس، وأبي العتاهية، والمتنبي، وأبي العلاء المعري، في كتابه "مقدمة في الأدب". وكان كل ما يُترجم من الأدب العربي في هذه الفترة يأتي من لغات أخرى غير اللغة العربية مثل الإنجليزية.

أدب وأيديولوجيا

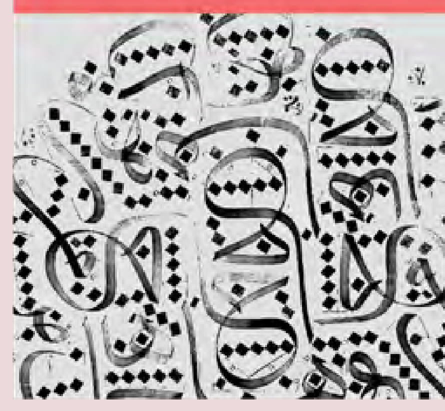
مع إعلان تأسيس جمهورية الصين الشعبية في الأول من أكتوبر عام 1949م، وتأسيس علاقات دبلوماسية بين الصين والدول العربية، بدأت ترجمة بعض الأعمال العربية. وخلال هذه الفترة كان للعوامل السياسية التأثير الأكبر على اختيار الأعمال أكثر من قيمة النص الأدبي نفسه؛ أي تفوقت المعايير الأيديولوجية السياسية على المعايير الجمالية الفنية في اختيار الأعمال، وصدر في تلك الفترة أكثر من عشرين ديوانًا شعريًا ومجموعات قصصية مترجمة من العربية إلى الصينية من مصر والجزائر وليبيا وسوريا والعراق والأردن وغيرها. وتمحورت النصوص حول موضوع الاستقلال أو النضال من أجل العدالة. ومن الجدير بالذكر، أنَّ تعلم اللغة العربية في الصين خطا خطوة مهمة ودخل في صفوف الجامعات الصينية عام 1946م، وتُرجِمَت أعمال إبداعية من العربية مباشرةً مثل كتاب "كَلِيلَة ودِمْنَة" عام 1959م على يد المترجم لين شينغ خوا. وكانت إحدى نتائج الثورة الثقافية في الصين، أن توقفت حركة الترجمة عن اللغات الأجنبية ومن بينها العربية بين عامي 1966م و1976م.

ما بعد الإصلاح والانفتاح

مع تراجع القيود السياسية والأيديولوجية الناجمة عن الثورة الثقافية في الصين، نشطت مجددًا حركة الترجمة عن اللغات الأجنبية بما فيها العربية، وازداد الاهتمام بالمعايير الإبداعية عند اختيار الأعمال المرشحة للترجمة. كما ازداد عدد المترجمين من العربية إلى الصينية، مع تأسيس أقسام اللغة العربية في أكثر من عشر مؤسسات للتعليم العالي في الصين، التي أدرجت تدريس تاريخ الأدب العربي في مناهجها.

منذ القرن السابع عشر الميلادي، ترجم رجال دين مسلمون صينيون معاني آيات من القرآن الكريم، لاستخدامها في عِظاتهم وشروحهم للإسلام.







كان الدِّينُ والتجارةُ العاملَين الأشدَّ تأثيرًا في العلاقات بين العالم العربي والصين على مدى قرون طويلة، مع ما رافق ذلك من متطلبات مثل الترجمة.

وكان للروائي نجيب محفوظ النصيب الأكبر من الاهتمام؛ إذ تُرجمت معظم أعماله إلى اللغة الصينية، مثل "الثلاثية" و"الحرافيش" و"عبث الأقدار" وغيرها. كما تُرجمت رواية الروائي الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال"، وكان ذلك كله في ثمانينيات القرن العشرين.

وحظي الشاعر محمود درويش كذلك باهتمام كبير في ترجمة شعره إلى الصينية، وصدرت ترجمة لأعماله إلى اللغة الصينية بعنوان "عاشق من فلسطين" عام 2016م في بكين، ونظَّمت جامعة الدراسات الأجنبية حفلًا بهذه المناسبة. وفي عام 2000م، صدر كتاب "مختارات من الشعر العربي الحديث"، وضمّ أكثر من مائة قصيدة لأربعين شاعرًا عربيًا. وفي عام 2009م، صدرت المختارات الأولى من شعر أدونيس بعنوان "عزلتي حديقة"، وقد فازت الترجمة بجائزة لوشون في الأدب.

وبشكل عام، ركَّزت حركة الترجمة من العربية إلى الصينية في القرن العشرين على بعض الدول، مثل: مصر وسوريا ولبنان، غير أنَّ السنوات العشرين الأخيرة، شهدت تركيزًا على أهمية الأدب في دول الخليج.

الترجمة ومشاريع المؤسسات

وكما كان الحال قديمًا مع طريق الحرير، الذي جمع الصين والعالم العربي في سياق تجاري واقتصادي وثقافي، فإنَّ الحال نفسه الآن مع مبادرة "الحزام والطريق"، التي تجمع الصين كذلك والعالم العربي؛ تأسيسًا على العلاقات الصينية العربية التي تزداد تطورًا في مجالات متعددة، ومنها المجال الثقافي والإبداعي واللغة. إذ أولت الصين أهمية كبيرة لدعم الترجمة والترويج لثقافتها وتعليم اللغة الصينية بمبادرات متعددة، يأتي في مقدمتها تأسيس معاهد كونفوشيوس لتعليم اللغة الصينية في أكثر من بلد عربي. كما تنشط مؤسسات رسمية، وخصوصًا في مجال الترجمة، منها على سبيل المثال مشروع "بيت الحكمة" للترجمة من اللغة الصينية وإليها، وقد ترجمت ضمن مشاريع تبادل الترجمة والنشر بين الصين والدول العربية لكُتَّاب عرب، من أمثال: بهاء طاهر، وعزت القمحاوي، ورضوى عاشور، وخيري شلبي، وأمير تاج السر، وصبري موسى، ويحيى الطاهر عبدالله، ورجاء عالم، والمنسي قنديل، وميرال الطحاوي، وعبقريات العقاد.

من الكلاسيكي إلى الحديث

في المقابل، تأخرت الترجمة من الصينية إلى العربية حتى ثلاثينيات القرن الماضي، ولكنَّها أصبحت أكثر اتساعًا مع دخول جيل جديد من المترجمين إلى المجال؛ إذ يمكن القول إنَّ الأعمال الصينية المترجمة من الصينية إلى العربية، بدأت تأخذ مكانها على خارطة القراءة العربية، ليس فقط في الأعمال الصينية الكلاسيكية، وإنَّما كذلك في الأدب الحديث. ويمكن تقسيم ترجمة الأدب الصيني ونشره في الدول العربية إلى أربع فترات:

من الثلاثينيات حتى أواخر الخمسينيات

في رسالته للدكتوراة "ترجمات وانتشار الأدب الصيني المعاصر في الأدب العربي"، يذكر الدكتور يحيى مختار أن العقود الثلاثة من الثلاثينيات حتى نهاية الخمسينيات، شهدت ترجمة الكلاسيكيات الثقافية الصينية والكثير من أعمال الكُتَّاب الصينيين المشهورين إلى اللغة العربية. وتولَّى الترجمة في تلك الفترة مجموعة من العلماء المسلمين الصينيين الذين كانوا يدرسون في الأزهر الشريف، وقد ترجموا الأعمال الأدبية الصينية مباشرة من اللغة الصينية إلى اللغة العربية، مثل المترجم الصيني "ما جيان - محمد مكين الصيني"، فإلى جانب ترجمة كثير من النصوص الدينية والفقهية من اللغة العربية إلى اللغة الصينية، ترجم خلال السنوات التي قضاها في مصر من عام 1931 إلى 1939م، كثيرًا من الأعمال الكلاسيكية للثقافة والأدب الصيني إلى اللغة العربية، وتشمل ترجماته البارزة "قصص الأساطير الصينية" و"محاورات كونفوشيوس"، ونُشرت كل هذه الأعمال في القاهرة.

من الخمسينيات حتى أواخر الثمانينيات

تولَّى في هذه الفترة مترجمون عرب "غير متخصصين في الدراسات الصينية"، جزئيًا ترجمة الأعمال الثقافية والأدبية الصينية إلى العربية عبر لغة وسيطة. ومن هؤلاء الشاعر

السوري سهيل أيوب، والكاتب المصري عبدالغفار مكاوي، والكاتب السوري عبدالمعين الملوحي، والشاعر السوري سلامة عبيد، والباحث السوري فراس السواح، والباحث العراقي هادي العلوي، والمترجم محمد نمر عبدالكريم، وغيرهم.

من أواخر الثمانينيات إلى أوائل التسعينيات

وتولَّى فيها الترجمة من الصينية إلى العربية مترجمون متخصصون في اللغة والدراسات الصينية، وقد أسهم ظهور هؤلاء المتخصصين بشكل كبير في تعزيز تطور ترجمة الأدب الصيني في العالم العربي. ومن بين هؤلاء المترجمين البارزين: الدكتور عبدالعزيز حمدي، والدكتورة إسراء عبد السيد، والدكتور محسن فرجاني، والدكتور حسانين فهمي، وعدد من أساتذة كلية الألسن بجامعة عين شمس، مثل: الدكتورة نجاح عبداللطيف، والدكتور وحيد السعيد عبدالحميد، وغيرهما. وتُرجمت أعمال مثل مسرحية "شروق الشمس" للكاتب تساو يو، ومسرحية "المقهى" للكاتب "لاو شه"، وكتاب "تاريخ تطور الفكر الصيني"، و"محاورات كونفوشيوس"، و"الكتب الأربعة المقدسة"، و"سياسات الدول المتحاربة"، وكتاب "الطاو"، و"الذرة الرفيعة الحمراء" للكاتب مويان، وأعمال الكاتب "يوهوا".

مترجمو الألفية الجديدة

مع تنشيط تدريس اللغة الصينية في الجامعات العربية، مثل كلية الألسن العريقة بجامعة عين شمس المصرية، وأقسام اللغة الصينية في الجامعات المصرية والعربية، ظهر جيل جديد من المترجمين الشباب من أمثال: الدكتور أحمد السعيد، والدكتور يحيى مختار، والدكتور أحمد ظريف، ومي عاشور، وميرا أحمد، وغيرهم، يترجمون مباشرةً أعمالًا إبداعية رفيعة المستوى من الصينية إلى العربية. وأسهم فوز الكاتب الصيني مويان بجائزة نوبل للآداب عام 2012م، في ترجمة مزيد من الأعمال الأدبية الصينية المعاصرة إلى اللغة العربية لكثير من الكتَّاب والشعراء، ومنهم: مويان، يوهوا، وشيو تسي تشن، وسوتونغ، وتشي تزي جيان، وغيرهم. والجدير بالذكر أن الحكومة الصينية أطلقت مشاريع مثل: مشروع "كتب طريق الحرير"، ومشروع "كلاسيكيات الصين"، ومشروع "سلسلة كنوز التراث الصيني"؛ وذلك لترجمة الأعمال الكلاسيكية وتعزيز التبادل الثقافي بين البلاد العربية والصين.

من ذاكرة القافلة: العلاقات بين العرب والصين في العصور الوسطى، د. نقولا زيادة، من العدد مايو-يونيو 1987م.





عبدالرحمن الأنصاري

حياة في العِلْم

سيبقى اسم الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري على مرِّ الأجيال عَلَمًا في التأريخ وعلم الآثار، وعنوانًا للمثقف القائم على أفضل وجه بدوره الاجتماعي. إذ لم يقتصر نشاطه على التأسيس الأكاديمي وتدريس علم الآثار في الجامعة، بل امتد إلى ميادين التنقيب والكشف عن مواقع أثرية مهمة مثل موقع الفاو في نجد. كما سيبقى اسمه مؤلفًا لسلسلة من الكتب المهمة، التي تعدُّ الآن ركيزة من ركائز نهضة علم الآثار في المملكة.

د. سعد بن عبدالعزيز الراشد

كان الأنصاري (10 أكتوبر1935 م - 6 مارس 2023م) واحدًا من أوائل المبتعثين السعوديين العائدين للمملكة بشهاداتهم العليا، وأمنيات وطموحات لازمتهم، وهم في مراحل دراساتهم المبكرة في مكة المكرمة، أو المدينة المنورة، أو الطائف، أو جدة بوابة الحرمين. وكان هؤلاء يتطلعون إلى أن يكون في بلادهم جامعة، وتحقَّقت أحلامهم بإنشاء وزارة المعارف في عام 1373هـ (1954م)، وتعيين المغفور له خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، أول وزير لها.

في تلك المناسبة، خصَّص المعهد العلمي السعودي في المدينة المنورة حصة التعبير ليكتب التلاميذ رسالة إلى سمو الوزير مهنئين ومعبرين عمَّا يجيش في خواطرهم وتطلعاتهم من سموه، فكان أن كتب الأنصاري في 1373/5/29هـ (3 فبراير1954م)، رسالة جميلة في أسلوبها ومضمونها. وضمَّن الرسالة طلبًا بجعل "مملكتنا بابًا مفتوحًا لروَّاد العلم ينهلون من ألوان الثقافة على أوسع نطاق مما لذَّ وطاب، وذلك لا يتأتَّى إلا مَتى فُتِحت المعاهد والثانويات في كل مدينة وقرية، وفُتحت الجامعات متمشية في منهجها على هدف هو نفع الوطن أولًا والعروبة به ثانيًا".

ولعلَّ ما كتبه الأنصاري يُعبِّر عن لسان حال زملائه، ويجسِّد الوعي والطموح لجيل نشأ مع اكتمال وإرساء وحدة كيان الوطن، وبداية النهضة التنموية.

وجاءت البشائر بصدور الأمر الملكي، في 21 ربيع الآخر 1377هـ (13 نوفمبر 1957م)، بإنشاء جامعة الملك سعود. لكن الدكتور الأنصاري كان قد ابتُعث إلى مصر لدراسة اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة مدة أربع سنوات، عاد بعدها إلى الوطن معيدًا في كلية الآداب في جامعة الملك سعود. ولم يلبث أن ابتُعث لدراسة دكتوراة الفلسفة في قسم الدراسات السامية بجامعة ليدز. وفي تلك الفترة، تدرَّب على التنقيب عن الآثار مع المشرف على رسالته، ونقّب في موتيا بصقلية، وفي غيرها، إضافة إلى دراسة أسماء الأعلام اللحيانية. وعاد معزّزًا طموحه بتأهيل علمي وعملي راسخ.

أسلوبه الفريد في التدريس

كان الدكتور الأنصاري يُدرِّس تاريخ الجزيرة العربية القديم، والتاريخ الإسلامي المبكر. وكانت أول محاضرة حضرتها له، من دون استئذان، إذ كنت أرغب حينها في تغيير مسار دراستي في مرحلة البكالوريوس. فقد أسرني حديثه في محاضراته، وأسلوبه المميز في سرد الأحداث التاريخية المطعّمة بلمسات من الحضارة والآثار. كان يتطرق إلى الرحَّالة الغربيين من إنجليز وألمان وفرنسيين ومؤلفاتهم، ويعرّج على الكتابات العربية القديمة وأشكال حروفها، ومضامين نصوصها.

جهوده بارزة إداريًا وأكاديميًا، وقد نشر الوعي بأهمية الآثار بين طبقات المجتمع، من خلال وسائل الإعلام والمحاضرات.



بعد انتهاء المحاضرة وقفت في الخارج ريثما يغادر القاعة، وقلت له: "يا دكتور عبدالرحمن أرغب في الانتقال من الجغرافيا إلى قسم التاريخ". فرحّب بي أجمل ترحيب، وبعد أن تبيّن له مدى جديتي وافق على انضمامي إلى قسم التاريخ.

بدأنا نستوعب بالتدريج الخط المسند الجنوبي والشمالي، والكتابات الدادانية واللحيانية، والآرامية والنبطية، والمخربشات (الجرافيتية) التي أطْلق عليها كتابات البادية، والتي شاع اسمها في كتابات المستشرقين باسم "الثمودية".

كان الأنصاري يظل واقفًا طوال مدة المحاضرة، ولا يجلس على مقعده المخصص إلا نادرًا، ولا يُملي درسه من كراس أو ملزمة، فكل ما كان بيده ورقة صغيرة، فيها رؤوس أقلام، يتتبعها بدقة، ويطلب من الجميع المشاركة في المناقشة، ولا يُغفل أحدًا. كان عدد طلاب القاعة لا يتجاوز العشرين طالبًا، والجميع يُصغي، ويطرب لما يسمع، ويدوّن ما هو مكتوب على السبورة. ولا يغادر المحاضرة حتى يطلب من الجميع التحضير لموضوع محدد يلقيه على مسامع زملائه في المحاضرة القادمة.

تأسيس جمعية التاريخ والآثار

فاجأنا الدكتور الأنصاري ذات مرة بالتحضير لاجتماع عام لطلاب الكلية، وكان العدد يزيد على مائة طالب، وبحضور عدد من أساتذة الكلية، وأخبرنا أن الجامعة وافقت على تأسيس جمعية للتاريخ والآثار، وأن يكون لها هيئة إدارية، ولجنة فرعية للطلاب. جرى الاقتراع على انتخاب الهيئة الإدارية للعام الدراسي 1967 - 1968م، برئاسة رئيس قسم التاريخ الأستاذ الدكتور عبدالعزيز صالح، يرحمه الله، وتولَّى أمانة الجمعية الدكتور الأنصاري، ثمّ في العام التالي تولَّى هو رئاستها.

بدأت الجمعية نشاطها بتنظيم الرحلات إلى المناطق القريبة من الرياض، مثل: الدرعية والجبيلة والعيينة وسدوس، التي لم يكن الوصول إليها في ذلك الوقت بالأمر السهل. وقد أكرمني الله أن أكون من المتحدثين خلال تلك الرحلات بجوار الدكتور الأنصاري، ومحمد الشعفي، وعبدالرحمن الحجي، ونافع القصاب. وشعرنا أن هذه الرحلات التي توالت طوال مرحلة دراستنا الجامعية أثمرت وعيًا بأهمية التاريخ والآثار، وسلّطت الضوء على مناطق تاريخية لها دورها الحضاري قبل الإسلام وبعده.

وتوالت رحلات الجمعية إلى مناطق أبعد من الرياض امتدت إلى الخرج والدوادمي وشمال المملكة. وإضافة إلى الرحلات، شملت أنشطة الجمعية تنظيم المحاضرات وعرض الأفلام التاريخية والأثرية، والتعريف بمشاريعها.

إسهامه في النهضة بإدارة الآثار

يعدُّ موسم الجمعية الثاني في عام 1969م، من المواسم التي تركت أثرها وآثارها العلمية والفكرية. فقد صدرت أول مجلة علمية للجمعية تضمنت موضوعات متنوعة جغرافية وتاريخية وأثرية. وكانت إدارة الآثار السعودية قد تأسَّست بالأمر السامي في 1383/11/8هـ (1964م)، وصدر نظام الآثار في عام 1392هـ (1972م)، وأنشئ المجلس الأعلى للآثار، وتولَّى إدارة الآثار الدكتور عبدالله حسن مصري بعد عودته بالدكتوراة في الآثار القديمة عام 1973م. وكان الدكتور الأنصاري عضوًا في المجلس الأعلى للآثار منذ بداية تكوينه، واستمرت عضويته في المجلس حتى ضمِّ وكالة الآثار والمتاحف إلى الهيئة العليا للسياحة، فاختِير عندها عضوًا في مجلس الإدارة، ثم عضوًا في اللجنة الاستشارية للآثار في الهيئة العامة للسياحة والآثار.

إضافة إلى عمله الميداني في الكشف عن الفاو، لكتبه التي أنجزها منفردًا أو مشاركًا فضل كبير في التعريف بحضارة الجزيرة العربية وتاريخها العريق.





في مجال التنقيب

كانت حفائر قرية الفاو العمل الأول الذي قاده الدكتور الأنصاري وارتبط باسمه. وكان العمل معه في هذا الموقع مدرسة فريدة للكشف الأثري والتدريب العملي الميداني للآثاريين الشباب، وكذلك موقع الرّبذة الإسلامي. وشكّلت المكتشفات الأثرية في الفاو والرَبذة مجموعة مهمة لمتحف الجامعة، والمتحف الوطني على حد سواء. كما شكّلت مع المكتشفات في عدد من المواقع الأثرية مادة مهمة لمعرض "روائع آثار المملكة" الذي نُظّم في عدد من المتاحف العالمية في أوروبا وأمريكا والصين واليابان وكوريا الجنوبية وغيرها من المحطات.

وللدكتور الأنصاري دور كبير في بث الوعي الأثري بين طبقات المجتمع في مختلف أنحاء المملكة، من خلال البرامج الإذاعية والتلفزيونية، والصحافة، ومحاضراته في الأندية الأدبية والرياضية، والأكاديميات العسكرية، والصالونات الأدبية، والمدارس، وخاصة خلال رحلات جمعية التاريخ والآثار. فترك ذكريات عطرة في المجتمع السعودي.

كما كان له مواقف مشرفة في الندوات والمؤتمرات العلمية الدولية. فقد كان يؤمن برسالته التي يحملها، وهي إبراز الهوية التاريخية والحضارية التي تعتز بها المملكة. وكان قوي الحجة في مناقشاته مع العلماء الغربيين وغيرهم عندما يجد أخطاء تُرّوج عن تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها، فكان يركز دومًا على الوحدة الحضارية للجزيرة العربية، والنسيج الحضاري المشترك في المناطق التي امتدت إليها الحضارة العربية والإسلامية.

مؤلفاته ومكانتها العليا

للكتب التي أنجزها الدكتور الأنصاري، منفردًا أو مشاركًا، فضل التعريف بحضارة الجزيرة العربية وتاريخها الضارب في القِدم، منها كتاب "الرياض عروس المدائن"، الذي ناقش آراء الباحثين حول أصل الرياض وما إذا كانت حجر اليمامة، واستعرض فيه تاريخ المدينة منذ تأسيس مدينة الدرعية والدولتين السعوديتين الأولى والثانية. وتطول قائمة المؤلفات المعروفة.

وأسهم الأنصاري في الإشراف على عمل موسوعي تبنته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)، ألا وهو كتاب "المرجع في تاريخ الأمة العربية"، الذي صدر في 7 مجلدات عام 2007م، وشارك في إعداده أكثر من 300 من خيرة المؤرخين والباحثين العرب.

كما كان في مقدمة أعضاء اللجنة العلمية للكتاب الموسوعي "فروسية"، الذي صدر في مجلدين كبيرين باللغة الإنجليزية (عام 1996م)، ومثلهما باللغة العربية (2001م)، ويحكي قصة الخيل عبر العصور وفنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب، وكتب بحثًا عن "الحصان في آثار قرية الفاو".

ولأن الأنصاري كان يرى أن الإبل أهم من الخيل في حياة الشعوب، اقترح عملًا موسوعيًا عن الجمل عبر العصور.

وتحقَّق المقترح مؤخرًا بالتعاون بين مؤسسة ليان الثقافية ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بإصدار عمل موسوعي من مجلدين باللغة الإنجليزية (2020م)، ومثلهما باللغة العربية. وقد أُهدي هذا العمل الموسوعي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري، رائد العمل الأثري في المملكة العربية السعودية، تقديرًا ووفاءً لخدمته حضارة المملكة وتراثها. ومن محاسن الصدف أن يصدر هذا العمل متزامنًا مع مبادرة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز، استحداث "جائزة الدكتور عبدالرحمن الأنصاري لخدمة آثار المملكة".

رحِم الله الدكتور عبدالرحمن الأنصاري، وجزاه الله خير الجزاء على ما قدَّم في حياته من جهود، وما تركه بعد مماته من إرث وموروث تاريخي وحضاري للأجيال القادمة.

رأيٌ ثقافي

الهوية المغلقة

د. عبدالجبار الرفاعي
مفكر وكاتب عراقي

لكلِّ جماعة بشرية شغفٌ بإنتاج هوية خاصة مصطفاة، على وفق ما ترسمه احتياجاتها وأحلامها وآفاق انتظارها، وما تتعرَّض له من إخفاقات وإكراهات. وكلّ ذلك يسهم في كيفية بناء معتقدها، ويحدِّد ألوانَ رسمها لصوره المتنوِّعة وتعبيراته في الزمان والمكان، ثم تُدمَج صور المعتقد لتدخل عنصرًا في مكونات هذه الهوية، بجوار العناصر الإثنية والثقافية واللغوية والرمزية وغيرها، بالشكل الذي يجعل المعتقدَ عنصرًا فاعلًا ومنفعلًا داخل الهوية. كذلك تدخل الهوية في مكونات المعتقد؛ إذ تتغذى منه الهوية ويتغذى منها، فإن كان المعتقد مغلقًا انغلقت الهوية، وإن كانت الهوية مغلقةً انغلق المعتقد، ويتشكّل مفهوم الحقيقة على وفقهما. المعتقد والهوية ينشدان إنتاجَ الحقيقة على وفق رهاناتهما ومطامحهما ومعاييرهما، سواء أكانت تلك الحقيقة دينيةً أم غيرَ دينية.

كما يتلاعب المعتقد والهوية المغلقان بالمعرفة يتلاعبان بالذاكرة أيضًا؛ إذ تعمل الهوية المغلقة على إعادة خلق ذاكرة موازية لها، تنتقي فيها من كلِّ شيء، في تاريخها وتراثها، ما هو الأجمل والأكمل. ولا تكتفي بذلك، بل تسلب ما يمكنها من الأجمل والأكمل في تاريخ وتراث ما حولها، فتستولي على ما هو مضيءٌ فيه. يجري كلّ ذلك في ضوء اصطفاء الهوية لذاتها؛ لذلك تعمد إلى حذف كلِّ خسارات الماضي وإخفاقاته من ذاكرة الجماعة، ولا تتوقف عند ذلك، بل تسعى لتشويهِ ماضي جماعات مجاورة لها، والتكتمِ على مكاسبها ومنجزاتها عبر التاريخ.

في الهوية المغلقة يعيد متخيَّل الجماعة كتابةَ تاريخها، في أفق يتحوَّل فيه الماضي إلى سردية رومانسية فاتنة، ويصبح العجز عن بناء الحاضر استعادةً مهووسةً بالأمجاد العتيقة، ويجري ضخّ الذاكرة الجمعية بتاريخ متخيَّل يضمحلّ فيه حضور التاريخ كما هو، وتُخلع على الحوادث والشخصيات والرموز والأفكار والمعتقدات والآداب والفنون هالةٌ أسطورية، تتحدَّث عنها وكأنها خارجَ الزمان والمكان والواقع الذي ظهرت وتكوَّنت وعاشت فيه.

تشتدّ حالة اصطفاء الهوية ووضعها فوق التاريخ في مراحل الإخفاق الحضاري، وعجز المجتمعات عن الإسهام في صناعة العالَم الذي تعيش فيه. لذلك تسعى للاستيلاء على المكاسب الكبيرة للآخر، وإيداعها في مكاسبها الموروثة، من خلال القيام بعمليات تلفيق متنوعة، تتّسع لكلِّ ما هو خلّاق مما ابتكره وصنعه غيرها. وذلك أبرز مأزق اختنقت فيه هويتنا في العصر الحديث.

تنشأ ذهنية التلفيق من شعور مرير يتملَّكنا، ينتجه الخوف على هويتنا، والقلق من افتقاد خزَّان الذاكرة الذي صنعناه، فأودَعتْ فيه سلالات الآباء عبر التاريخ كلَّ أحلامها الجميلة الفاتنة، ولوَّناه نحن بما هو أشدّ فتنة وجمالًا. فأوقعَنا ذلك الشعور المرير في مفارقة ضاع فيها عقلنا فضيَّعنا العلوم والمعارف الحديثة، حتى أمسينا لا نحن بالقادرين على استحضار ما كان كما كان، ولا نحن بالقادرين على الإقلاع عمَّا كان.

لقد غذَّتْ فوبيا ضياع الهوية من جهة، والحاجة الملحَّة للحضور في العالَم من جهة أخرى، نزعةَ التلفيق لدينا في العصر الحديث؛ بين الماضي والحاضر، التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، المعروف والغريب، المألوف والمخترَع، المقلَّد والمحدث، الارتداد والامتداد، الائتلاف والاختلاف، المقدَّس والمدنَّس، الديني والدنيوي، الدين والفلسفة، الدين وعلوم الإنسان والمجتمع، الدين والعلوم الطبيعية، الدين والآداب، الدين والفنون... فأنهك ذلك التلفيق النصوصَ الدينيةَ بعمليات تأويل متعسِّفة، لا يقبلها منطق التأويل القديم، ويرفضها منطق التأويل الجديد. كلّ ذلك يتم من خلال إسقاط مكاسبِ الحداثة المتنوعة في الفلسفة والمعارف والعلوم والآداب والفنون المختلفة على النصوص الدينية.

كان التنكّر للأبعاد الكونيَّة في الفلسفة وعلوم الإنسان والمجتمع أعقدَ مأزق تورَّط فيه العقل الدينيّ والقوميّ بهذا العصر في مجتمعاتنا. وظهر ذلك بوضوح في العمل الذي استنزف مالًا وفيرًا وضاعت فيه عقول فذَّة، وظلّ وهمه يطارد عدةَ أجيال إلى اليوم، والذي يسعى منذ سنوات من دون جدوى لاكتشافِ هوية دينية للعلوم والمعارف، ويفتِّش عن هوية قوميّة ضائعة للعلم والمعرفة.

تسارعَ تحوّل الهوية في عصر تكنولوجيا المعلومات والهندسة الجينية والمنعطفات الواسعة في العلوم المختلفة، فقد تعدَّدت وجوهها وتنوَّعت أبعادها. الواقع شديد التحوّل يفرض عليها أن تصير سيَّالةً متغيِّرة، تتعدَّد عناصرها وتتنوَّع مكوِّناتها تبعًا لتعدّد وتنوع إيقاع حركة الواقع شديد التركيب والتحوّل؛ لذلك يفرض الواقع الراهن على الهوية التي تتشبَّث بالبقاء طريقةً للعيش تواكب إيقاعه، كي تبقى مسجّلةً على قيد الحياة، وإن كانت هذه المواكبة قلقة مضطربة مشوَّهة هشّة في مجتمعاتنا. لا خيارَ للهوية إلا أن تخرج من قوقعتها، كي لا يمحو وجودَها واقعٌ يتغيَّر فيه كلّ شيء، ولتحتفظ بشيء من عناصر البقاء، حتى لو كانت مضطربة مشوشة.

بنية الهوية في عالمنا اليوم لم تعدْ بسيطة، بل صارت عميقة، تتألف من سلسلة طبقات متنوِّعة المكونات، وتتزاحم عليها صور متعدِّدة. لا تلبث مكوناتها على الدوام في سلَّم ترتيبها، ولا تمكث في مواقعها، ولا تقف الصور المتعاقبة عليها عند صورة واحدة، لذلك تتطلَّب معرفتها تفكيرًا صبورًا، يتوغَّل في طبقاتها، ويحلِّل عناصرها، ويضيء صورها المتلاحقة.

الهوية في حالة تشكّل مستمرة؛ إذ لا تستطيع أيَّة هوية أن تعزل نفسَها عمَّا يجري حولها من تحولات مختلفة في العالم، وإيقاع متسارع حادٍّ التغيير في كلِّ شيء، ولا يمكن أن يتغيَّر كلّ شيء فيما تظل الهوية ساكنةً. ممانعة الهوية ومكوثها في أنفاق الماضي تفضي إلى انسدادها وتحجّرها، ومن ثَمَّ، خروجها من العصر؛ ذلك أن كلَّ هوية تفشل في إعادة إنتاج ذاتها في سياق يواكب إيقاع التحوّلات المتسارعة في الواقع، وتعجز عن الإسهام في بناء الواقع، يفرض عليها التاريخ أن تنسحب؛ إذ إن كلَّ من يعجز عن صناعة التاريخ لا محلَّ له في ذاكرة التاريخ.

الحنين حدّ الشغف بالماضي يُضيِّع التفكير النقدي، الحنين يفضي إلى المزيد من الضياع في أنفاق التراث والغرق في متاهاته، وتقليد القدماء في كلِّ شيء. ومع التقليد يكفّ العقل عن أن يكون عقلًا، ويكفّ التفكير عن أن يكون تفكيرًا.

قصة التجديد في الموسيقى العربية

قبل "الفيوجن" ومعه

"الفيوجن" مفردة إنجليزية تعني الانصهار، وقد تحوَّلت إلى مصطلح ظهر خلال ستينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، ويشير إلى نوع من الموسيقى يمزج بين إيقاعات وآلات من موسيقات مختلفة. ثم انتقل مصطلح الفيوجن وموسيقاه إلى ثقافات أخرى من بينها العربية.
وفيما يرى البعض أن هذا الاتجاه الموسيقي الجديد يسمح بالتجريب والابتكار، ويُسهم في خلق روابط ثقافية، هناك متحفظون عليه يرونه خطرًا على الأصالة والهويات الثقافية الوطنية.

محمد فيصل الزنكوي



هذا الشكل من التفاعل ليس جديدًا

إن التفاعل مع الثقافات الأخرى في مجال الموسيقى لا يعود إلى العقود الأخيرة فحسب. فالموسيقى العربية بعراقتها وثرائها، شهدت عبر تاريخها الطويل تطورًا مستمرًا، استجابةً لتحولات الزمن واحتياجات الجمهور. وتعكس هذه الاستجابة محاولة الموسيقيين العرب للدمج بين الأصالة الموسيقية العربية والعناصر الحديثة المستوحاة من الموسيقى العالمية.

بدأت محاولات المزج في الموسيقى العربية بشكل واضح منذ منتصف القرن العشرين، قبل ظهور ما يُعرَف بـ"الفيوجن" أو المزج الموسيقي، الذي ظهر في ستينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك عندما أصبح العالم أكثر تداخلًا بفعل التكنولوجيا والتواصل الثقافي. كان بعض الروَّاد مثل محمد عبدالوهاب يستلهمون الألحان الغربية في أعمالهم، مثل استخدام التانجو والفالس. ومع تطوُّر الموسيقى في العقود اللاحقة، ازداد انفتاح الموسيقيين العرب على أساليب الموسيقى الغربية مثل: الروك، والجاز، والهيب هوب. وكانت لعبد الحليم حافظ أعمال مشابهة، كما في أغنية "قارئة الفنجان" على سبيل المثال، حيث شكَّل استخدام الأورغ والجيتار الكهربائي إضافة إيجابية.

بعض إيجابيات الفيوجن

حقَّق الفيوجن الموسيقي كثيرًا من الفوائد والإيجابيات التي جعلته يحظى بشعبية متزايدة، وبخاصة في صفوف الشباب. ومن أبرز هذه الإيجابيات:

مدّ الجسور الثقافية: من خلال المزج بين الموسيقى العربية والغربية، يساعد الفيوجن في تعزيز التفاهم الثقافي بين الشعوب. فهو يُتيح لجمهور عالمي غير عربي، التعرُّف على الموسيقى العربية، ويُسهم في نشرها عالميًا. مثال على ذلك، موسيقات الفنان اليمني أحمد فتحي، الذي شارك بمؤلفاته مع أوركسترا موسكو بمسرح تشايكوفسكي، وقدَّم أهم أعماله، مقطوعة "ساكورا"، على آلة العود عام 2018م. إذ كان تفاعل الجمهور مع هذه الموسيقى إيجابيًا، وعدّوا أنها أخذتهم في رحلة إلى العالم العربي. فقد كانت تجربة دمج آلة العود مع الأوركسترا ذات طابع موسيقي مميز بأسلوب أداء الآلة والإحساس العربي الأصيل، وأظهرت إمكانات آلة العود للغرب.

> يُمثِّل هذا الاتجاه أحد أكثر المسارات الموسيقية إثارة للجدل في الوقت الحالي، بين من يراه مجالًا للإبداع وبين من يراه تهديدًا للأصالة.





توسيع القاعدة الجماهيرية: يُمكن للفيوجن أن يجذب مستمعين جددًا من خارج دائرة المهتمين بالموسيقى التقليدية، ولا سيَّما عندما تُقدَّم الموسيقى العربية في إطار عالمي. ومثال على ذلك، المقدمات الموسيقية لفريد الأطرش، التي عزفتها الأوركسترا في نيويورك، واختيار هذه الأعمال من قبل المايسترو فرانك بورسيل.

والقصة كما نقلها فريد الأطرش وفرانك بورسيل، هي أن الأطرش كان جالسًا في أحد نوادي باريس، مستمعًا ومستمتعًا بالموسيقى التي تعزف، وإذا به يُفاجأ أن الفرقة الموسيقية الفرنسية تعزف أحد ألحانه "وياك وياك الدنيا حلوه وياك"، وتفاعل الحضور مع أنغام هذه الموسيقى. في هذه اللحظة ترك فريد المكان وراح يتمشى في شوارع باريس، ويفكِّر: كيف ننقل موسيقانا إلى الغرب؟ وهو مؤمن بأن موسيقانا لو استمع إليها الجمهور الغربي لأحبها. في اليوم التالي، طلب من الموسيقار والمنتج الفرنسي، فرانك بورسيل، اللقاء والتعاون لإنتاج أعمال موسيقية عربية.

استمع بورسيل إلى فريد مدة ساعتين، ودُهِش بما سمعه، فتمَّ الاتفاق على إنتاج وإعادة توزيع بعض أعمال فريد لدمج الموسيقى العربية مع توزيع أوركسترالي عالمي، وأسفرت هذه التجربة عن نجاح باهر، وجرى تسجيل أسطوانة لأربعة أعمال لفريد، وهي: ليلى، وزمردة، وحبيب العمر، ونجوم الليل. ووُزِّعت هذه الأسطوانة في أوروبا والعالم. وهنا نستنتج أن للفيوجن الموسيقي دورًا كبيرًا في توسيع القاعدة الجماهيرية.

المرونة الإبداعية: يمنح الفيوجن الفنانين فرصة للابتكار والتعبير الفني بحرية أكبر، بعيدًا عن القيود التقليدية التي قد تحدُّ من ذلك. فعلى سبيل المثال، عندما قدَّم الفنان محمد الحملي مسرحية "شبح الأوبرا" العالمية باللهجة الكويتية، وأضاف إليها الإحساس العربي في الأداء الغنائي، لاقت نجاحًا مشهودًا في دولة الكويت. وأيضًا تجربة مسرح الرعب للفنان والمخرج عبدالعزيز المسلم، لتأثره بهذا النوع من الأعمال المسرحية، فقد ترجمها بالدمج بين الفكر الغربي والعربي، وأثمرت هذه الفكرة مسرحية الرعب "مصاص الدماء" عام 1995م، وكان نجاح العمل كبيرًا في دولة الكويت والخليج. واستمر هذا الفنان بتأليف هذا النوع من الأعمال المسرحية وإخراجها إلى يومنا هذا، والاستمرار هو دليل النجاح طوال تلك السنوات.

تطوير المهارات الموسيقية: يتطلب الفيوجن إتقانًا للأنماط الموسيقية المختلفة، وهو ما يدفع الموسيقيين إلى تطوير مهاراتهم ودراسة أساليب وتقنيات جديدة. كما هو الحاصل للعازفين على الآلات الوترية مثل آلة الكمان؛ إذ يتدرب الدَّارس على الأسلوب الغربي الكلاسيكي، ويدرس بعد ذلك الأسلوب الشرقي؛ لذلك يكون التحصيل المعرفي الذي حصل عليه سببًا لتميّزه في الأداء.

بعض الأمثلة على الفيوجن العربي

عمر خيرت: تُعدُّ ألحان عمر خيرت مثالًا بارزًا على الفيوجن الموسيقي، حيث يستخدم الأوركسترا الغربية لتقديم مقطوعات تجمع بين الروح الشرقية والتوزيع الكلاسيكي العالمي. وبذلك يكون قد كسب الجمهورين الغربي والشرقي. ويتميز عمر خيرت باختيار المقامات والدرجة التي يصوّر بها المقام، فهذا له تأثير على المستمع.

عمر بشير: عازف العود العالمي، الذي يدمج بين أسلوب والده منير بشير وتراث الموسيقى العربية مع أنماط الجاز والبلوز. فقد استقطب هذا الدمج مستمعين جددًا من العالم الغربي المحبين لأسلوب الجاز بطريقة جديدة ومختلفة.

ياسر عبدالرحمن: عازف على آلة الكمان، وله أسلوبه الخاص الذي تميز به في تأليف الموسيقى التصويرية مع فرقة الأوركسترا. وكانت أعماله ناجحة، كما هو الحال في مسلسل "الضوء الشارد" و"المال والبنون".

وبعض المحاذير التي ينطوي عليها

على الرغم من الإيجابيات العديدة، فإن هناك تحديات وسلبيات قد يواجهها هذا النوع من الموسيقى، أبرزها:

خطر فقدان الهوية: يرى بعض النقاد أن الإفراط في المزج مع الأنماط الغربية، قد يؤدي إلى تلاشي الهوية الموسيقية العربية، خصوصًا إذا قُدِّمت بطريقة تفتقر إلى الأصالة. وهنا يأتي دور النقاد المتخصصين لتفادي هذه المشكلة.

صعوبة المزج المتوازن: يتطلب الفيوجن توازنًا دقيقًا بين العناصر المختلفة، وإلا فقد تبدو الموسيقى مشوشة أو غير متناغمة. وعدم الإتقان في المزج يمكن أن يُفقِد العمل جودته.

الانتقادات من المحافظين: هناك مقاومة من بعض الجمهور والنقَّاد الذين يرون في الفيوجن خروجًا عن التقاليد، وهو ما قد يعرض الفنانين للهجوم بسبب تخليهم عن الجذور الموسيقية. لذا، يجب أن يكون العمل مدروسًا من كل النواحي.

التحديات التقنية والإنتاجية: يتطلب المزج بين الأنماط المتنوعة تقنيات إنتاج متطورة، قد تكون مكلفة أو غير متوفرة لجميع الفنانين.

التأثير التجاري: قد يُنظر إلى الفيوجن على أنه محاولة لإرضاء أذواق السوق التجارية العالمية بدلًا من التعبير الفني الصادق.

مستقبل الفيوجن عربيًّا

على الرغم من التحديات، يبدو أن الفيوجن في الموسيقى العربية سيستمر في التطور بوصفه جزءًا من التحول الثقافي العالمي. فالجيل الجديد من الفنانين أصبح أكثر انفتاحًا على تجربة أنماط موسيقية مختلفة. ولتعزيز نجاح هذا الاتجاه، من المهم إيجاد توازن بين التراث والحداثة، مع التركيز على تقديم موسيقى تُعبِّر عن الهوية العربية بشكل معاصر ومؤثر. الفيوجن ليس تهديدًا للأصالة، بل فرصة لإعادة تعريفها في إطار حديث يمكنه مخاطبة الجمهور العالمي والمحلي على حد سواء.

ونظرًا للتاريخ الطويل من تثاقف الموسيقى العربية مع موسيقى الأمم الأخرى، لا يمكننا اعتبار الفيوجن مجرد اتجاه في الموسيقى العربية، بل هو تعبير عن التحولات الثقافية والاجتماعية التي يشهدها العالم العربي في عصر العولمة.

> الجيل الجديد أصبح أكثر انفتاحًا على تجربة أنماط موسيقية مختلفة، وهو ما يعني أن الفيوجن سيبقى حاضرًا بوصفه مجالًا إبداعيًا، ولكن نجاحه سيبقى أيضًا مشروطًا.



من ذاكرة القافلة: أزمة الموسيقى العربية المعاصرة، إلياس سحّاب، من العدد يوليو-أغسطس 1996م.

بيدرو بارامو

الرواية بين فيلمين

أطلقت منصة نتفليكس في السادس من نوفمبر الماضي فيلمًا مأخوذًا من رواية "بيدرو بارامو" للأديب المكسيكي خوان رولفو، وهي واحدة من الروايات المهمة في الأدب العالمي في القرن الماضي، حتى إنها استطاعت أن تضع اسم كاتبها جنبًا إلى جنب مع كبار الكتَّاب باللغة الإسبانية؛ على الرغم من أنه لم يكتب سواها، ومجموعة قصصية واحدة بعنوان "السهل المحترق"، ورواية ناقصة كتبها أساسًا كسيناريو بعنوان "الديك الذهبي".
والسؤال المطروح هو: هل يمكن أن تتحول رواية مليئة بالشعر في كل أجزائها إلى مادة مسموعة ومصوَّرة؟ هذا هو تحديدًا ما جعل تحويل هذه الرواية إلى فيلم عملًا جذابًا ومليئًا بالتحدي. علمًا أن فيلم نتفليكس ليس الأول، بل سبقه فيلم آخر في الستينيات من القرن الماضي.

أحمد محسن

الرواية الأولى للكاتب المكسيكي خوان رولفو لم تُحدِث الصدى الذي كان يتوقعه منها عند صدورها عام 1955م. حتى إن مؤلفها نفسه أخبر محاوره في برنامج تلفزيوني إسباني (Al fondo) عام 1977م، أن جيله لم يفهم الرواية ولم يُعِرها انتباهًا. ولكن الأجيال التالية لجيله هي التي أعادت قراءة الرواية، وأولتها الأهمية التي وضعتها على قمة الأدب المكسيكي وضمن قائمة أهم الروايات المكتوبة بالإسبانية على مر العصور. غير أن تلك الأجيال نفسها واجهت صعوبة في قراءة هذه الرواية. فأين تكمن صعوبتها؟ ولماذا تُعدُّ واحدة من أهم روايات القرن الماضي؟

تبدأ الرواية بواحدة من أشهر جمل أدب أمريكا اللاتينية: "جئت إلى كومالا لأنهم أخبروني أن أبي يعيش هنا. رجلٌ يُدعى بيدرو بارامو. أخبرتني أمي بذلك". ثم يبدأ بطل الرواية، أو شخصيتها الأولى، خوان بريسيادو، في الالتقاء بشخصيات يسألها مساعدته في محاولته للوصول إلى أبيه. يأخذه وصف إلى وصف، وبيت إلى بيت، ويدرك قارئ الرواية من البداية أن هناك إشكالية في بناء الزمن، وكذلك إشكالية في حيويَّة شخصياتها. هناك الكثير من العلامات الواضحة على أن بعض الشخصيات شبحية. يسمع البطل أحيانًا صوتًا، ثم لا يدري إن كان سمعه أم تخيَّله، يرى شبحًا، ثم حين يحاول أن يلمسه لا يجد شيئًا. وأحيانًا يحرِّك يده نفسها في الهواء ولا يجدها. يستمر البطل في الانتقال من بيت إلى بيت بحثًا عن أبيه، ثم يدرك قُبيل منتصف الرواية أنه هو أيضًا شبح من ضمن الأشباح، لكنه الشبح الوحيد الذي يموتُ وينتقل إلى الحياة الأخرى، ولا يظل محبوسًا في البرزخ الأبدي الذي تُعذَّب فيه بقية أشباح القرية بذنوبها.

قبل موت البطل وبعده، تستمر الرواية بلا زمن خطي، تنتقل ذكريات الأشخاص وحكاياتهم، وحكايات بيدرو بارامو، وأبيه لوكاس بارامو، وابنه ميجيل بارامو، أحيانًا على ألسنة من عرفوهم، وأحيانًا أخرى على لسان راوي الحكاية العليم. وتنتهي الرواية بموت بيدرو بارامو، الذي نعرف من أول صفحات الرواية أنه قد مات منذ سنوات بعيدة، على لسان أول شخص قابله وأخبره أنه هو أيضًا أحد أبناء بيدرو بارامو.

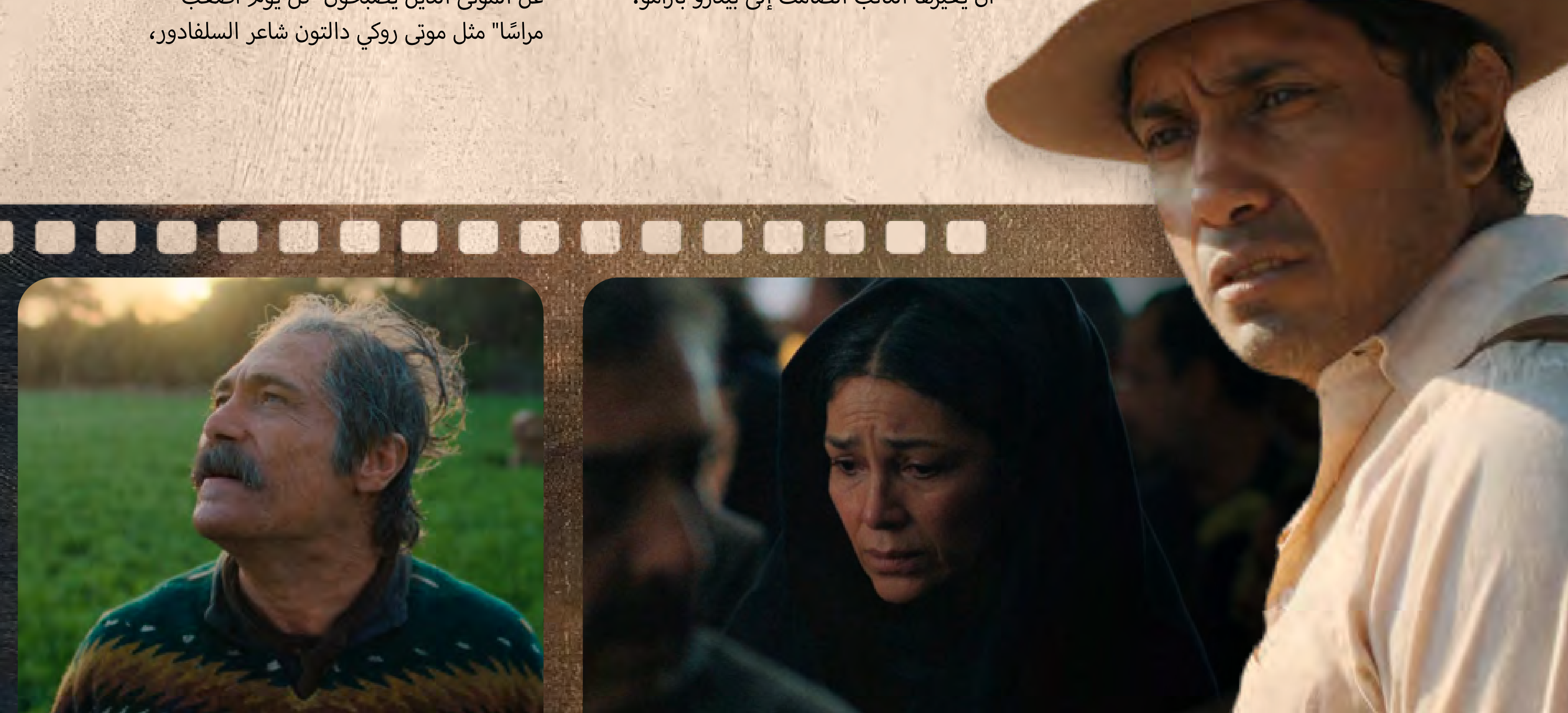
قراءتها ثلاث مرات لفهمها!

يقول المؤلف عن روايته إنها رواية صعبة، وقد يحتاج قارئها إلى إعادة قراءتها ثلاث مرات لفهمها، فقد عمل فيها مع أشباح موتى. ولذلك، لم يلتزم بزمن خطي ولا بأماكن مترابطة للأحداث. فالزمان والمكان اللذان نعرفهما في الحياة، لا يبقيان كما هما بعد الموت.

إنها رواية لا تفصح، بل تَشي. لا تتحدث، بل تهمس. لا تقول، بل تُوَشْوِشُ. نعم. هي رواية الوشوشات التي كانت الاسم الأول للرواية، قبل أن يُغيِّرها الكاتب الصامت إلى بيدرو بارامو.

وهل يخبرنا الاسم النهائي للرواية بشيء؟ أهو مقصود لذاته، مثل أسماء أبطال روايات نجيب محفوظ؟ هل لبيدرو بارامو من اسمه نصيب مثلما لمحجوب عبدالدايم بطل قاهرة محفوظ الجديدة؟ يخبرنا خوان بيُّورو في محاضرته عن الرواية ضمن سلسلة عن أهم الروايات المكسيكية في الجامعة الوطنية، أن لكلا اسمي البطل معنى يدل على شخصيته. بيدرو هو بطرس في العربية، وكلاهما آتٍ من الاسم اللاتيني (Petrus) الذي يعني حجارة. أوليس بيدرو بارامو مثل الحجارة أو أقسى منها؟ وبارامو، كلمة إسبانية تدل على المكان القاحل، والخالي من البشر. وهي نفس الكلمة التي استخدمها الغازي الإسباني لوصف أحد أهم الأنسجة البيئية في توليد الماء والحفاظ عليه؛ إذ تتكوَّن على القمم، التي يصل ارتفاعها إلى خمسة آلاف متر، مستنقعات بها عشب إسفنجي يجمع ماء المطر والضباب. لكن بارامو قد تعني كذلك، كما يشير بيُّورو، إلى العُقم. فإن الصحراء لا تلد، لا تردِّد الصحراء إلا صوت العدم، كما يقول الباكي بين يدي زرقاء اليمامة: "واغرس السيف في جبهة الصحراء، إلى أن يجيب العدم؛ إنني كنتُ لك: فارسًا، وأخًا، وأبًا، ومَلِكًا".

بيدرو بارامو، الذي اغتصب الأموال والأنفس والأراضي، يموتُ وحيدًا، بعد أن شهد مقتل ابنه الوحيد الذي اعترف به وحمل اسمَه على فرسٍ، وأمر أن يقتلوا الفرس حتى لا تتعذب بعد صاحبها، وقد استعصى عليه أن يمتلك المرأة الوحيدة التي أبكاه حبُّها في حياته. هل هي رواية عن الكراهية؟ عن رجلٍ لا يرى في الحياة سوى القتل والتملُّك والأمر الذي لا يُردُّ، أم أنَّها روايةٌ عن الموتى الذين يصبحون "كل يوم أصعب مراسًا" مثل موتى روكي دالتون شاعر السلفادور،



أم هي رواية عن أولئك المنبوذين والمهمَّشين الذين لفظهم التاريخ؟ كم ألف مرَّة سُئِل هذا السؤال منذ أن نُشرت الطبعة الأولى للرواية المكسيكية الخالدة قبل سبعين سنة؟

بين الفيلم القديم والفيلم الجديد

قد يكون الشيء المشترك بين الفيلمين اللذين صوّرا هذه الرواية، فيلم الستينيات وفيلم العام الجديد، أن سطوة الرواية عليهما جعلتهما يحافظان على الحوار في السيناريو كما هو في الرواية من دون تغيير كبير. لكن الفرق الكبير بينهما هو أن الفيلم الأول ظنَّ أن هذا كافٍ لتحويل عمل بهذه الشاعرية وهذا الثراء البصري والتخيُّلي إلى فيلم سينمائي، بينما أدرك صانعو الفيلم الحديث أن إنتاج عمل سينمائي عن رواية كهذه يحتاج إلى عمل شاق ودراسة طويلة للبحث في كيفية ترجمة ما لا يُقرأ في كلمات الرواية؛ ترجمة الوشوشات خلف الوشوشات، والأصوات خلف الأصوات، والصور التي تختفي فلا يدري رائيها أكانت حقيقةً أم خيالًا.

إضافة إلى تعقيد عنصر الزمن، كانت شاعرية الرواية عقبة كبرى أمام تحويلها إلى فيلم سينمائي في محاولتين تفاوت نجاحهما.

"كمن يقف تحت الدش بمعطف"

وعن أي شيء عجز إذًا الفيلم القديم في محاولته معالجة الرواية؟ أو لنلبّس السؤال كلمات أخرى، ماذا فعل الفيلم القديم بالرواية؟

إن كنا سنقف إلى جوار من يقولون إن رولفو كان شاعرًا كتب شعرَه كُلَّه في السرد، فسنقول إن ما فعله الفيلم الأول يشبه الصورة العظيمة التي شبَّه بها الشاعر الآسيوي الترجمة الشعرية بالدخول تحت دُشٍّ من الماء بمعطف ثقيل. فهل سيتمكن من يقف تحت الدُش بمعطف من الإحساس بالماء؟ هذا الشعور سيعتري من يشاهد الترجمة السينمائية للرواية في فيلم عام 1967م.

ماذا عن الفيلم الحديث إذًا؟

هو معالجة سينمائية جريئة، ومتقنة الصنع، وفيها ما في الإبداع من تفسير، وإعادة خلق. هو ترجمة إذًا، لكنه ترجمة شعريَّة جيدة لقصيدة عظيمة. وما أقصى طموح مترجم الشعر؟ أن يخلق في لغة الترجمة نسخة فيها من جمال أصل القصيدة شيءٌ، وإن لم تقدر على أن تبرز كل جماليات القصيدة في لغتها الأم، وهو عينُ المستحيل، المستحيل الجميل.

أحد أكثر العناصر تعقيدًا في الرواية، وفي الفيلم كذلك، هو الزمن. منذ بدايات الرواية يدرك القارئ في تيهه المتكرر والمفاجئ بين الفقرات التي تفصلها نقطة في منتصف السطر، وسنوات في عمر شخصياتها، وجسور بين الحياة، والبرزخ، والمطهر، والموت. لا يدري قارئ الرواية إن كانت دوروتيا جارة خوان بريسيادو في قبره حيَّة أم ميّتة، وهي تستلقي إلى جواره على سريرها بعد أن يخرج أخوها أو رفيقها وتظن أنه خارج إلى غير عودة. يعرف القارئ أنها كانت ميّتة بعد صفحات عدة من ظهورها الأول، حين يموت خوان بريسيادو في غيابها وأخيها عن البيت، أو بعد تحولها طينًا من طين الأرض كما يظهر الفيلم، ثم تجده هي وأخوها دونيس في ميدان القرية ويتهمانه بتمثيل الموت. ثم تدخل معه في حوار ينتهي بنا مدركين أنها دُفِنت معه في مدفنه نفسه، وإن لم تستطع مثله أن تصل إلى الفردوس، لأن خطاياها حبستها في عالم البَيْن.

الاقتراب من الرواية بشكل جيد

قد تكون لغة الرواية، وشاعريَّة صورها، والحوارات الداخلية لشخصياتها، ووصف الأماكن نفسه، كلها فتن لُغوية تجعل الرواية في المكان الذي تشغله على خريطة الأدب العالمي. ويجعل هذا أيضًا من ترجمة الرواية مهمة شديدة الصعوبة، سواء للغة فنية أخرى مثل لغة السينما، أو إلى لغة أخرى؛ لأسباب عديدة أهمُّها اللغة الخاصة التي يخلقها خوان رولفو لشخصياته.

لكن الفيلم تمكَّن من الاقتراب من الرواية بشكل جيد، ويمكن أن يُلتفت إليه أكثر فيما بعد، وكأنه يعيد سيرة حياة الرواية التي لم تنل حظها في البداية. فقد جاء إطلاق الفيلم من دون إعلان مسبق، بعكس المسلسل الذي أطلقته المنصة بعده بأيام عن رواية ماركيز الشهيرة "مئة عام من العزلة"، وحظي بكثير من الإعلانات، منذ توقيع عقد الرواية مع ابني ماركيز الذي رفض طوال حياته تحويل رائعته إلى فيلم، هذه الرائعة التي لم تكن لتُكتب لو لم يكتب خوان رولفو "بيدرو بارامو"، فماركيز نفسه يعترف بأثر رولفو عليه.



النشر الذاتي الإلكتروني للكتب العربية

فرصة تُقيدها الشكوك والصعوبات

في عام 2007م، وبالتزامن مع إطلاق أول جهاز "أمازون كيندل" للقراءة، أتاح تطبيق أمازون للمؤلفين نشر كتبهم بأنفسهم، وفق ما عُرِف بأسلوب النشر الذاتي. وبعد نحو ثلاثة أعوام أتاحت منصة "كتب غوغل" الإمكانية نفسها، بعد أن كانت قد بدأت في عام 2004م مشروعها لنسخ الكتب لإتاحتها مجانًا، في حال عدم اعتراض الناشرين. فهل شقّ النشر الذاتي طريقه بنجاح في العالم العربي؟

محمد عبد النبي



الوسيلة الإلكترونية حديثة، لكن النشر الذاتي قديم قِدم دُور النشر نفسها. فمن بين كبار كتَّاب العالم مَن اضطر إلى اللجوء لهذه الوسيلة، ومن أبرز الأسماء، على سبيل المثال، مارسيل بروست الذي نشر بنفسه المجلدات الأولى من روايته "البحث عن الزمن المفقود" بعدما رفضه الناشرون. وفي القائمة جاين أوستن، وإيميلي ديكينسون، وديريك والكوت، وغيرهم.

وفي مصر هناك نماذج معروفة، فشاعِر قصيدة النثر عماد أبو صالح، طبعَ جميع أعماله على نفقته الخاصة وبتصميمه ورسومه، وحرص على أن يكتب على غلافها الخلفي يُوزَّع مجانًا، أو بعبارة أخرى تنأى بعمله عن البيع والشراء والمكسب والخسارة. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتشرت قصائد عماد في العالَم العربي كله، ووجدَت بين مُحبيها مَن يؤسّس لها صفحات إلكترونية أو يجمعها ويطبعها في كتب من تنسيقه ليبيعها لمَن يريد بسعر الطبع. لكن يبدو أن عمادًا قد تخلَّى، أخيرًا، عن موقفه المبدئي؛ إذ نشرَ أحدث أعماله "يا أعمى" مع دار "أثر" السعودية ودخل سوق النشر التقليدية طواعيةً.

نموذج آخر، هو الروائي المصري الذي رحل شابًا، محمد ربيع، وكان يُنفّذ كلَّ شيء في رواياته بنفسه حتى الطباعة، ويوزّع النسخ المحدودة على أصحابه ومَن يُكنُّ لهم تقديرًا خاصًا من الكتَّاب الكبار والنقاد والصحافيين. وكانت مشكلة ربيع مختلفة؛ إذ لن تخاطر أي دار بنشر رواياته الحافلة باختراق التابوهات والسخرية اللاذعة من كل القيم والمؤسسات التقليدية. فقد كان ربيع (وهو غير محمد ربيع صاحب رواية "عُطارد" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر في إحدى دوراتها) تجريبيًا مُتمردًا مغامرًا، وكان نشره لمؤلفاته بنفسه ردّ فِعل طبيعيًا جدًّا على قوانين وأعراف غير مكتوبة في عالم النشر العادي.

لماذا اللجوء إلى النشر الذاتي؟

تتنوع الأسباب التي تدفع كاتبًا ما إلى أن يدفع من جيبه الخاص تكاليف الطَبع، منها أن يكون كتابه طليعيًا لا تقدّره دُور النشر التجارية، أو لرغبته في تفادي الرقابة، أو لأن دُور النشر لا تُقبل على نوع إبداعي معين، مثل الشعر الآن. ومن بين الأسباب كذلك أن بعض هواة الكتابة يُصرّون على نشر نصوص لا ترقى إلى المستوى المطلوب.

في كل الأحوال جاء النشر الإلكتروني ليجعل المهمة أسهل. وقد نشرت القافلة، في عدد (مايو - يونيو 2015م)، مقالًا بعنوان "النشر الذاتي: أهو بداية الاستغناء عن الناشرين؟" تضمن إحصاءات وأرقامًا مُدهشة من حيث دلالتها على تطوُّر آليات النشر الذاتي ودخولها إلى صُلب عملية النشر التقليدي في محاولة لاستيعابها داخل السوق وشروط العرض والطلب.

واقع الحال اليوم

تتيح "كيندل" للمؤلفين بنحو 40 لغة من بينها العربية نشر كتبهم. وتبلغ عائداتها السنوية 300 مليون دولار. ولكن من غير المعروف حجم عائدات الكتب العربية منها؛ إذ لم تزل الأرقام والإحصاءات الدقيقة شِبه غائبة عن المشهد.

ولعلَّ من بين العوامل التي تزيد من ضبابية مشهد النشر الإلكتروني، غياب أرقام الإيداع في الدول العربية للكتب الرقمية والصوتية. وبحسب دراسة وافية أجراها الدكتور خالد عَزَب، حول النشر في العالَم العربي خلال الفترة من 2015م إلى 2019م، ونشرها اتحاد الناشرين العَرب في 2021م، بلغ عدد كتب النشر الذاتي على شبكة الإنترنت في العراق 674 عنوانًا، وفي مصر 1832 عنوانًا، وفي السودان 2274 عنوانًا، وهذا حصر مبدئي في حده الأدنى وقابل للزيادة. ويتضمن الكتاب دراسة دقيقة لأحوال النشر في كثير من الدول العربية، بما في ذلك النشر التقليدي أو الرقمي أو الذاتي.

وثمَّة دراسات أكاديمية عديدة تتناول فُرَص النشر الذاتي وإمكاناته إلكترونيًا في العالَم العربي، من أحدثها كتاب الباحثة فايزة آية الله عبدالملك، بعنوان "النشر الذاتي للكتب الإلكترونية.. الواقع والمستقبل"، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب 2024م، وفي جزء منه تحرص الباحثة على توفير معلومات ثمينة حول دُور النشر الذاتي وخطوات نشر الكتاب الإلكتروني بالتفصيل، بما في ذلك البرامج والتطبيقات وكيفية استخدامها. ولا تفوتها الإشارة إلى أنَّ الكاتب العربي لم يزل بعيدًا عن الانخراط في هذه الممارسة، على الرغم من الوسائل المتاحة والمنصات.

من بين العوامل التي تزيد من ضبابية مشهد النشر الإلكتروني في الدول العربية غياب أرقام الإيداع للكتب الرقمية والصوتية.

في غياب الإحصاءات العامة، استقصت "القافلة" تجارب بعض الكتَّاب. فقال أحدهم، وفضَّل إغفال اسمه، إن عائدات كتابين من كتبه بلغت ستين دولارًا في عدة سنوات، ولم يستطع صرفها؛ لأسباب بيروقراطية منها عدم تعامل "كيندل" مع البنوك في بلاده.

لكن تجربة الكاتب العربي المقيم بالخارج مع النشر الذاتي تختلف، سواء من حيث سهولة التعامل مع المنصة، أو احتساب ودفع العائدات. فالكاتب المصري جمال عُمر، المقيم في نيويورك، نشر كتابه "الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن" على موقع أمازون، ويقول إنه لا يجد مثل هذه المشكلات؛ لأنَّ لديه حسابًا على أمازون مرتبطًا برقم الهوية الشخصية الخاصة به، وهو مرتبط بحساب له في البنك، فلو كان هناك أي عائد من أمازون فإنه ينتقل تلقائيًا إلى حسابه. لكن، لمَّا كانت الكتب عربية، فلا يوجد حتَّى الآن ما يستحق الحديث عن عوائد حقيقية، "كلها أمور محدودة"، بحسب قوله. "وما زلت أنا المسؤول عن دفع ضرائب الدخل للحكومة الأمريكية في حالة وصول دخل يستحق دفع ضرائب عنه، لكن التجربة متواضعة عمـومًا". وفي هذا السياق، يحصل الناشرون، وهم هنا الكُتَّاب أنفسهم، على نسبة تُراوح بين 35% و70% بحسب سِعر الكتاب، كما تُلزم المنصة المؤلفين بألَّا يقل سِعر الكتاب عن دولار تقريبًا، أو بالتحديد 0.99 سِنتًا.

عمومًا، يتفق هذا التصوُّر مع شهادة الكاتب المصري سراج منير، الذي نشر روايته "نياندرتال" في عام 2021م على "أمازون كيندل"، باللغتين العربية والإنجليزية؛ إذ يقول إن تجربة نشر روايته نفسها بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية على "كيندل" كانت أفضل؛ لأن إمكانات التسويق كبيرة، وهناك وكالات تساعدك ومجلات تعرض روايتك، وإن كانت مدفوعة. ثمَّ إنه باعَ نسخًا أكثر؛ لأنَّ القرَّاء الأجانب على "كيندل" أكثر عددًا من العرب بمراحل، وعلى الرغم من ذلك يبقى العائد محدودًا بحسب قوله؛ إذ لا يتجاوز مائة دولار كل شهرين أو ثلاثة، وهو مبلغ لا يكفي لتغطية نفقات تسويق الكتاب.

الجوائز تكبح النشر الإلكتروني

إلى جانب قلة العائد، هناك أسباب أخرى لدى الكاتب العربي تجعل إقباله على النشر الذاتي الإلكتروني ضعيفًا. فدُور النشر المعتمدة هي مَعبره إلى المعارض الدولية، فضلًا عن الجوائز الأدبية، المحلية أو الإقليمية، التي قد تكون عقبة أساسية أمامَ تجارب النشر الذاتي. فما مِن جائزة حتى الآن، لا تشترط طبع الكتاب طبعة ورقية تقليدية، وحصوله على رقم إيداع دولي ومحلي، وهو ما يعني ضمنًا مروره على جميع آليات الفحص والمراقبة والتصنيف والتسجيل الحكومي.

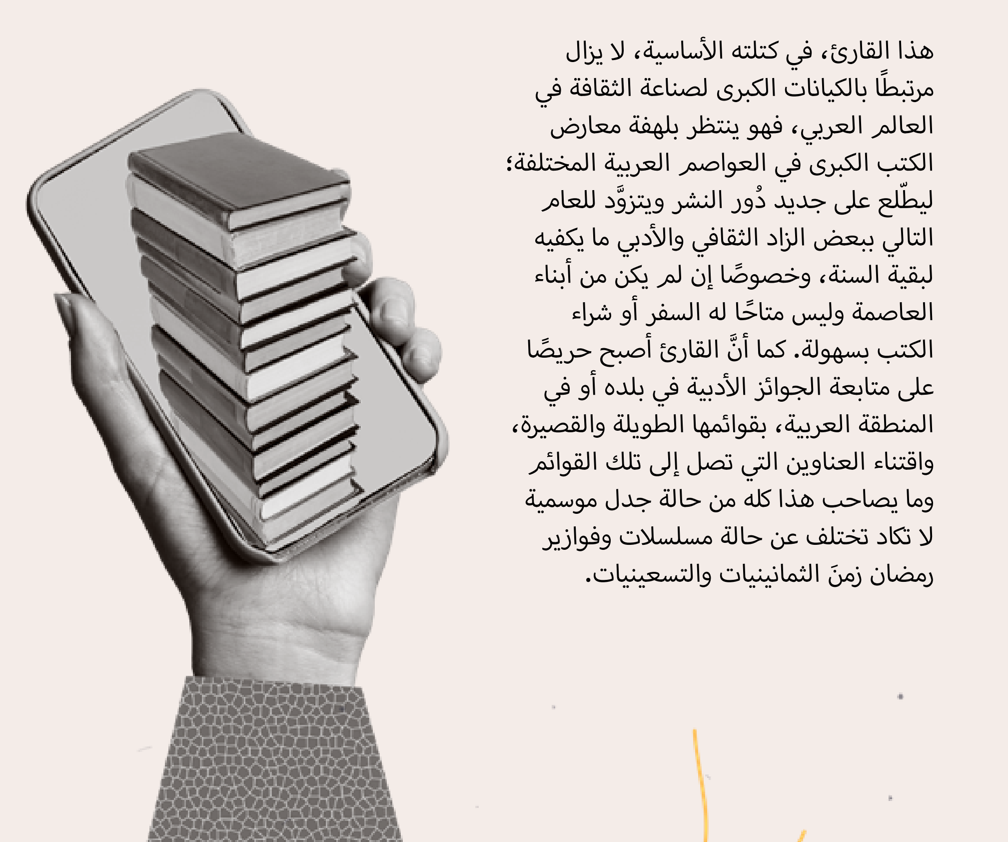
وقد أصبحت الجوائز أمرًا له أهميته بالنسبة إلى الكاتب والناشر، نظرًا لضعف العائد المنتَظر من بيع الكتاب نفسه وعدم حصول الكاتب منه على شيء يُذكَر. لهذا يعوِّل عدد كبير من الكتَّاب في الأنواع الأدبية المختلفة، على فُرص الفوز بإحدى الجوائز، ما يعوِّض جزءًا من تضحياتهم بالجهد والوقت والمال لمصلحة ولعهم بالكتابة.

الجوائز الأدبية في العالَم العربي معضلاتها كثيرة، لكن من بينها ما قد يُشاعُ أحيانًا أن اسم دار النشر يؤدي دورًا حاسمًا في حصول الكتاب على جائزة ما، وربَّما يُطلِق بعض الناشرين أنفسهم هذه الإشاعات لتأكيد نفوذهم وترسيخ سيطرتهم على عملية النشر وتحكُّمهم في الكاتب من الألف إلى الياء.
الطرف الآخر في العملية الأدبية هو القارئ، ومع تأثير وسائط التواصل الاجتماعي أصبح القارئ طرفًا أساسًا في الصناعة، وفي هذا ما فيه من محاسنه ومساوئه، فقد أوشك أن يستولي على دور الناقد الأدبي التقليدي بتقييم الكتب على تطبيقات مثل "غودريدز" (goodreads) أو "أبجد"، كأنَّ أي كتاب، مهما قلَّ شأنه، يمكن الحُكم عليه ببساطة عبر عدد من واحد إلى خمسة نجوم، فضلًا عن ثقة القرّاء بآراء بعضهم ببعض أو بعض المؤثرين أو "البوكتيوبرز".



تجربة الكاتب العربي المقيم بالخارج مع النشر الذاتي تختلف من حيث سهولة التعامل مع المنصة، وتحصيل العوائد التي تبقى محدودة.

هذا القارئ، في كتلته الأساسية، لا يزال مرتبطًا بالكيانات الكبرى لصناعة الثقافة في العالم العربي، فهو ينتظر بلهفة معارض الكتب الكبرى في العواصم العربية المختلفة؛ ليطّلع على جديد دُور النشر ويتزوَّد للعام التالي ببعض الزاد الثقافي والأدبي ما يكفيه لبقية السنة، وخصوصًا إن لم يكن من أبناء العاصمة وليس متاحًا له السفر أو شراء الكتب بسهولة. كما أنَّ القارئ أصبح حريصًا على متابعة الجوائز الأدبية في بلده أو في المنطقة العربية، بقوائمها الطويلة والقصيرة، واقتناء العناوين التي تصل إلى تلك القوائم وما يصاحب هذا كله من حالة جدل موسمية لا تكاد تختلف عن حالة مسلسلات وفوازير رمضان زمنَ الثمانينيات والتسعينيات.



التجارب تبقى مقيّدة

قد يعني هذا كله أن الفرص أمام تجارب النشر الذاتي الإلكتروني محدودة ومقيَّدة؛ لأنها لم تصبح بَعدُ جزءًا من السوق الثقافي والأدبي الكبير للعالم العربي، لكنَّ هذا نفسه قد يكون لمصلحة تلك التجارب الفردية والصغيرة. فاتخاذ مسافة من السوق يعني ضمنًا عدم الخضوع لقوانينها واشتراطاتها وذوقها، التي تتحكم فيها روابط قرَّاء بلا بوصلة وبلا تأسيس معرفي، ويسهل التلاعب بهم أو تجنيدهم لصالح كيانات أو ضد أخرى، وأخيرًا، لجان تحكيم الجوائز، وقوائم الأفضل مبيعًا، وإلحاح بعض الكتَّاب في ظهورهم الإعلامي وفي الفضاء الإلكتروني بحيث يصعب التهرُّب من قراءة أعمالهم.

الابتعاد عن هذا كله، إذا اقترن بمحاولات النشر الذاتي، قد يمنح الكاتب قسطًا أوفر من الحرية الإبداعية وسقفًا أعلى من حرية التعبير؛ نظرًا لأنَّه لن يمر عبرَ آليات التصفية والمراقبة والفحص والتهذيب والتقليم. فيدرك أنَّ بوسعه كتابة ما يشاء، غير مقيد بشيء من حيث الموضوع أو اللغة أو الأسلوب، متجاوزًا الحدود التي عاشها أسلافه من الكتَّاب، حتَّى مَن نشروا كتبهم الورقية بأنفسهم؛ لأنَّه لن يُضطر إلى المرور عليهم لتوزيع نسخه، بل يكفيه أن يضغط بعض الأزرار ليصل كتابه إلى مَن يريد، آملًا ألَّا يغوص كتابه في محيط افتراضي من عناوين لا أوَّل له ولا آخِر.

شعر



السرابُ الحكيم

هيفاء الجبري

إن تكـنْ حكمةُ الأمورِ سرابًا
فلنعمَ الحكيمُ ذاك السرابُ

كلّ دربٍ سلكتَهُ دون جدوى
أنتَ جدواهُ والهدى والمآبُ

إنّ في القلبِ كلّ بابٍ ينادي
أين من ذلك النداء الجوابُ

وإذا البابُ كان أبدى صريرًا
فصداهُ إلى الحياة خطابُ

كيف ينجو الصدى إذا
ما تصدى
لمداهُ العداءُ والأحبابُ

مثلما هالَ حاطبًا أن عليهِ
تتهاوى الفؤوس والأخشابُ

ليس من ذعره بمدركِ ما قد
أضمرته له من الصلحِ غابُ

بينما تتركُ الرياحُ لتجري
يتعافى من الركودِ ترابُ

والسَّماءُ التي خُلِقنا نراها
يتجلّى لها بدمعٍ سحابُ

كلنا سائر لشيء تجلى
كم تجلى وراء سترٍ غيابُ

وإذا الحبُّ
مسّنا قال فينا
قائل : "مسَّنا بطهرٍ عذابُ"

حِملُ من؟ هذه الذنوب ليأسى
في سبيلٍ لكل ذنبٍ متابُ

والمحب المحب حاشاه ألا
يتعالى به لرب جنابُ

لم يكن حالمًا بفردوسه لولا
حنين بقلبه واحتطابُ

حلم لم يذر لدربٍ بلوغًا
ربّ وصل ألذُّ منه اقترابُ

حالهُ حيثما به الدربُ يجريُ :
كلُّ حلم بكل حلم يصابُ

والذي شق للحقيقة دربًا
فخطى الدرب في الخيال رحابُ

كم خيالٍ به تعرّى فؤادٌ
من عقول تقمصتها ثيابُ

هكذا العمرُ بين حلم وحلم
يتفانى ذهابه والإياب

وإذا الأرض خلدتنا فتلك
الأرضُ أمواتها عليها هضابُ

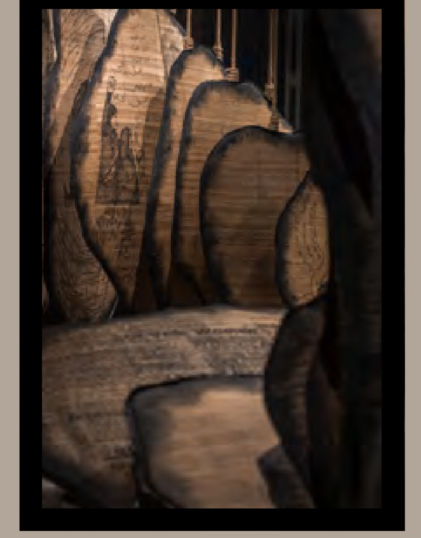
منال الضويان

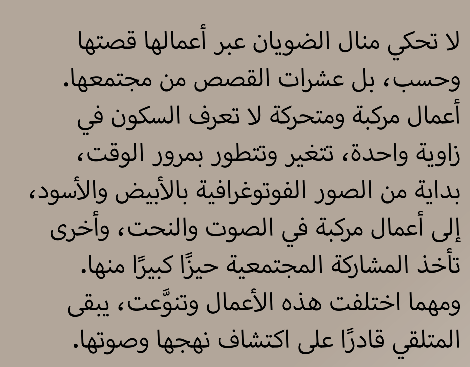
الفن بوصفه أداة للتدوين

بعد سنوات من العمل وعشرات المعارض، سنحت الفرصة لمنال الضويان لتمثيل بلدها في "بينالي البندقية 2024"، الذي تُعدُّ المشاركة فيه مفصلاً في مشوار الفنان، وتتويجًا لرحلة طويلة في لحظة معينة. لحظة منال الخاصة هذه أتت بعد اثني عشر عامًا من الحلم. وهي ترى أن أهمية "بينالي البندقية" تنطوي في أنه قائم على تمثيل كل فنان لبلده، وهو ما يجمع بين التشريف بهذا التمثيل والمسؤولية أمامه، إلى جانب التحدي الكبير في بحث الفنان عن صوته الخاص، فما الفنان دون صوت يُميِّزه؟ وهو ما قدَّمته عبر عملها "نطقت الرمال.. فتحرك الصوت".

روان طلال







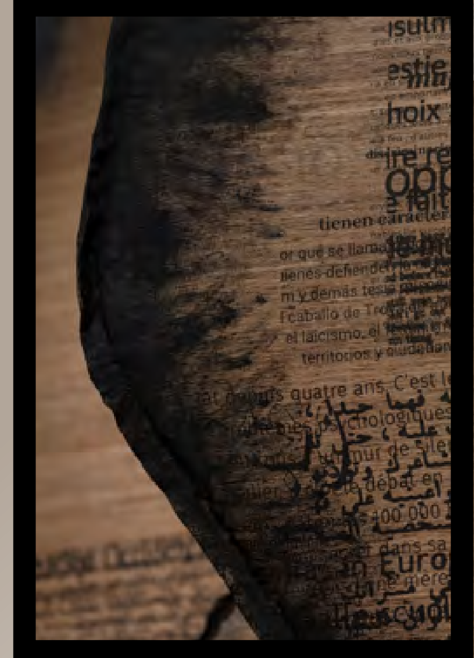
لا تحكي منال الضويان عبر أعمالها قصتها وحسب، بل عشرات القصص من مجتمعها. أعمال مركبة ومتحركة لا تعرف السكون في زاوية واحدة، تتغير وتتطور بمرور الوقت، بداية من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، إلى أعمال مركبة في الصوت والنحت، وأخرى تأخذ المشاركة المجتمعية حيزًا كبيرًا منها. ومهما اختلفت هذه الأعمال وتنوَّعت، يبقى المتلقي قادرًا على اكتشاف نهجها وصوتها.

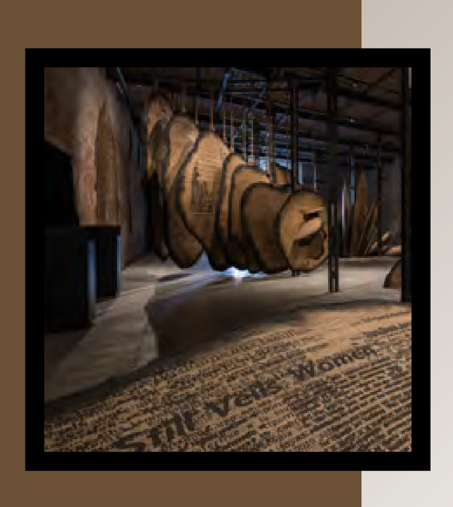
ثنائية الصوت والرمال

تأتي أعمال الضويان نتيجة بحث طويل سبقها، فأفكارها ليست لحظية. تضع أفكارها على الرف وتترك الوقت يأخذ مساره لتنضج. عندما تلقت الدعوة للمشاركة في بينالي البندقية، أفرغت رفها بحثًا عن أفكار قابلة للتطبيق وقادرة على أن تأخذها إلى حلمها. كانت إحدى هذه الأفكار من حقل "الشيبة" في الربع الخالي، حيث اكتشفت منال أن للرمال صوتًا لا يشبه صوتًا آخر، وذلك خلال مشاركتها في رحلة نظَّمتها أرامكو السعودية إلى هناك قبل بضع سنوات. فعندما كانت تدفع الرمال على الكثبان، كانت هذه الرمال تنهار مثل السيل مرفقة بصوت يُشبه الأنين. ومن الرف أخرجت فكرة الغناء الجمعي، التي تحوَّلت وتشكَّلت خلال ورش العمل التي حضرتها مع مجموعة من النساء والأطفال؛ لتسجيل أصواتهم وبكلمات من إبداعهم، فأتت فكرة الصوت والرمال.



"نطقت الرمال فتحرك الصوت"، بينالي البندقية، 2024م.





"الفنان يملأ الفراغ ما بين الصحفي والمؤرخ، وله دور جوهري في هذا التدوين؛ دور الفنان مختلف لأنه يأتي محملًا بالمشاعر والأحاسيس".

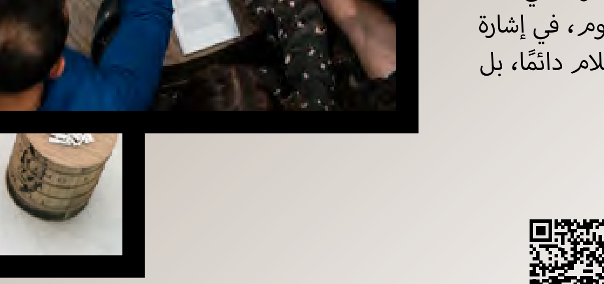
وردة الصحراء في البندقية

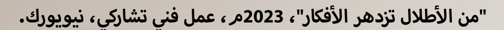
انطلاقًا من رقصات الرجال التي بدأت كأحد طقوس التجهيز للحرب، مثل الدحَّة والعرضة، بحثت منال عن رقصات النساء المماثلة، فلم تجد لها تدوينًا. لكنها وجدتها بين الناس، وتروي: "أثناء بحثي هذا، دُعيت إلى حضور حفل زواج نسائي في العُلا، نظرًا للعلاقة الرائعة التي تجمعني بأهل المنطقة، وتفاجأت بنساء يرقصن الدحَّة! كانت هذه الرقصة بمنزلة إشارة ورسالة بأن هذه الرقصات موجودة أيضًا ولو لم تكن قد دُوِّنت سابقًا".

بدأت الضويان بتشكيل عملها بواسطة مكبرات صوت دمجت فيها أصوات النساء مع أصوات الرمال؛ لتحاكي فكرة المردِّدين في الدحَّة. ولأن ثيمة البينالي لهذا العام هي "الغرباء في كل مكان"، ركَّزت منال على المرأة السعودية التي ترى أنها مهمشةً في لغة الغرب، ورمزت إليها بوردة الصحراء. هذه الوردة التي تتشكَّل تحت ظروف قاسية في المنطقة الشرقية من السعودية مسقط رأس الفنانة؛ إذ تبدأ في التكوُّن بعد انهمار مطر شديد ملحوقًا بموجة حر شديدة، فتتبلور وتتكوَّن.

محاكاةً للشاعر الذي يضبط إيقاع رقصة الدحَّة، هناك وردة الصحراء الأولى، وسمتها بكلمات استُخدمت باستمرار لوصف المرأة السعودية في صحف العالم بمختلف لغاتها خلال السنوات الخمسين الماضية، لكنها حاولت طمس هذه الكلمات عبر الطبقات المتعددة، حتى تسلبها قوتها. وفي منتصف العمل تمامًا نجد وردة الصحراء الأخرى معلقة في الهواء، مزينة برسوم النساء المشاركات في ورش العمل.

أعطت منال المُشاهد لعملها تجربةً كاملة ليعيشها عبر الاستماع والمشاهدة، ثم التحرك في الركن وفق تركيبها للعمل، واستخدام جسمه حتى يصل إلى وردة الصحراء التي تحاكي واقع المرأة السعودية اليوم، في إشارة إلى أن الحقيقة لا تُنشر عبر الإعلام دائمًا، بل عليك أن تبحث عنها!





"من الأطلال تزدهر الأفكار"، 2023م، عمل فني تشاركي، نيويورك.



من ذاكرة القافلة:
"الملف المُصوَّر: منال الضويان"، من العدد يوليو-أغسطس 2005م.

الشعر في كل مكان

أعمال متكاملة ولافتة، بدءًا من العناوين الشاعرية التي تُسمِّي بها أعمالها: "نطقت الرمال.. فتحرك الصوت"، "يا ترى هل تراني؟"، "يسوقنا الحنين إلى البحر، لكن الرغبة تبقينا بعيدًا عن الشاطئ"، "حبهم مثل كل حب.. وموتهم مثل كل موت"، وغيرها الكثير.. وتُعيد الضويان هذا إلى شعورها بالمتعة في البحث بين الكلمات عن طيف شاعري يُجسِّد الفكرة ويسلم مفاتيحها الأولى للمتلقي. "لا أترجم عناوين أعمال، بل أتعامل مع كل لغة وفق معطياتها، في اللغة العربية نقرأ ما بين السطور، بينما تميل اللغة الإنجليزية إلى المباشرة". ويمكن القول إن هذه الشاعرية في العناوين، هي إحدى سمات أعمالها التي لا تتنازل عنها.

لا تستكين بطبعها إلى خامة معينة، بل تعيد تشكيل كل ما قد تصل إليه يداها؛ لتخلق تباينًا في أعمالها تستخدمه لرواية القصص. وتقول: "لدي فضول كبير، أحب القراءة والبحث، والحديث إلى الناس، سافرت مرات عدة لأجل الحصول على قصة.. هذه الرحلة الطويلة ما قبل العمل الفني، تمثل جوهر المتعة بالنسبة إليَّ، ويأتي العمل بعدها".

لأعمال الضويان طابع جمالي واضح، وقد تخبِّئ خلف هذا الجمال قصة فاجعة، أو تدوِّن مأساةً لم يُلتفت إليها، تجذب انتباهة المتلقي أولًا، ثم تجعله ينغمس في القصة والبحث عمَّا وراءها. ولأن المتلقي يصبح شريكًا في العمل بفهمه الخاص له، ترى منال أن العمل الفني الناجح هو ما تخرج منه بأسئلة، لا أجوبة.

الفن بوصفه أداة للتدوين

تتميز أعمال منال بطابع محلي لا يمكن تجاوزه، تنطلق من مجتمعها بأعمال تشبهه. تمسكت بخطها، وقاومت الأصوات التي دعتها إلى تقديم أعمال بلغة بعيدة عن عالمها. فهي ترى أن أعمالها تشف عن تجربة إنسانية، فيها من الصدق الكثير، وهذا ما يجعل أي إنسان مهما كانت لغته، ومهما كانت خلفيته الثقافية، قادرًا على قراءتها، وأن تمسَّ فيه شيئًا ما.

وثَّقت منال عبر كثير من أعمالها قفزات مهمة في حياة المرأة السعودية، بوعي تام لتقاطعاتها وشكلها، واصفةً التجمعات النسائية باعتبارها مركز قوة لا ضعف؛ إذ وفرت لهن هذه التجمعات مساحات آمنة للتعبير عن رأيهن في كثير من أمور الحياة بعيدًا عن حضور الرجل. ولا تأتي أعمالها من وراء مظلوميات، بل من رغبة صارخة في التدوين.

في عملها "صدمة"، بحثت منال في الفراغ الذي لا تسدُّه الصحافة؛ إذ قدَّمت رصدًا لتعامل الصحف مع حوادث موت المعلمات، التي كانت تُنقل بوصفها أخبارًا عابرة لا وجود لأي أثر لهنَّ فيها، بل وكنَّ يُجرَّدن من أسمائهن أحيانًا! إذ يُحكم عليهن بموت مزدوج: الموت وغياب الأثر. فكانت الفنانة تحاول حسب حديثها أن تنتصر لهن، لأسمائهن. وتعلق قائلة: "الفنان يملأ الفراغ ما بين الصحفي والمؤرخ، وله دور جوهري في هذا التدوين؛ دور الفنان مختلف لأنه يأتي محملًا بالمشاعر والأحاسيس".





حمَام لا يستطيع التحليق دون تصريح، "في الهوا سوا"، 2011م.

ولا تنحصر أعمال الضويان في تدوين معاصر لحياة المرأة، والمحطات المهمة في حياتها، بل تمتد كذلك إلى البيئة، والتاريخ والحضارات، والمجتمع السعودي بوصفه كتلة واحدة. ففي عملها "يا ترى هل تراني؟"، ناقشت ظاهرة اختفاء البحيرات والواحات في الصحراء، مشيرةً إلى تغيرات المناخ التي تواجه العالم اليوم، عبر ترامبولين موزعة في فجوات جبال في العُلا.

بفطرتها بدأت منال في الفن التشاركي، عبر التصوير أولًا، ثم إشراك المجتمع في بقية أعمالها. تستحضر عملها "في الهوا سوا" حين بدأت الفكرة بإيميل مرسل إلى 30 امرأة تطلب منهن مشاركتها بورقة إذن السفر، آنذاك، ليفاجئها لاحقًا وصول أكثر من 100 ورقة إليها، فأطلقت حماماتها التي تؤرخ لمرحلة مهمة في حياة المرأة السعودية. ثم في عملها "اسمي"، الذي ناقش ميل المجتمع في فترة ما إلى عدم ذكر اسم المرأة. ثم تطوَّر بعد ذلك شكل الإشراك المجتمعي عبر سلسلة من ورش العمل التي تسبق التنفيذ؛ لتكتشف لاحقًا أن هذا نوع من الفن يعرفه العالم. أمَّا هي، فوصلت إليه بالفطرة والتجربة.

وعن سرِّ رغبتها في التدوين، تقول: "المتاحف تعالج التاريخ بطريقة مختلفة، ومن متاحف العالم فهمنا أكثر عن تاريخ الحضارات المختلفة. ولهذا، على الفنان من وجهة نظري أن يكون صاحب مصداقية، ويتحدث بلسان مجتمعه. أحب أن أشتغل فيه، وأقدم أعمالًا تشبهه، هذا ما يقربني إلى الحق، ويجعلني جزءًا من حراك التدوين بالفن".

محطات أولى وأحلام كبيرة

ما قبل البدايات، كانت منال الطفلة تشارك في مسابقة الرسم للأطفال، وهي مسابقة كانت تنظمها أرامكو السعودية. لكنها، وعلى عكس إخوتها، لم تفز ولا مرة! ومع هذا لم تتوقف، لم تشعر بالفشل، فهي لم تكن تعي حقيقةً ما كانت تحاول عمله. استمر الأمر في الاكتشاف عبر متجر خالها الذي يعرض ويبيع أدوات فنية، وهي الطفلة بفضولها الكبير كانت تقضي ساعات طويلة، تشكّل الصلصال، وتعبث بالألوان، بلا وعي في لحظتها بأن هذا يشكِّل صورةً لفنانة مختلفة، لكنها تعي هذا الأثر الآن.

وبخوف الآباء على مستقبل أبنائهم، عارض والدها رغبتها في دراسة الفن، فانخرطت في دراسة علوم الحاسب في مرحلتي البكالوريوس والماجستير، والتحقت بالعمل في أرامكو السعودية، لكنها لم تتخلَّ عن حلمها في دراسة الفن، فكانت تلتحق بأي فرصة لدراسة الفن مساءً في فترة الماجستير. والساعات المسروقة لدراسة الفن، التي كانت والدتها تدفع تكاليفها سرًا، هي ما كانت تزرع الطمأنينة في روح منال. فدرست فنون الطباعة، وأُقيم لها أول معرض فني في إسبانيا، ثم عادت إلى أرامكو وعملت ضمن فريق الفنون رئيسةً لقسم التصوير الفوتوغرافي، وتعرَّفت على الغرفة المظلمة وباتت تقضي أيام الإجازات الأسبوعية بالكامل فيها، تعالج صورها وتطبعها. هذه الصور عرضتها فيما بعد، وللمرة الأولى، في أرامكو. وتقول: "لأرامكو فضل لا أنساه عليّ، والقافلة أول مجلة نشرت لي أعمالي عام 2005م".

والتقت منال الفنانةَ السعودية الراحلة منيرة موصلي في أروقة أرامكو، وكانت المرة الأولى التي تلتقي فيها امرأةً سعودية تعرّف بنفسها ويعرفها المجتمع أنها فنانة!

في عام 2009م، أتتها دعوة لإقامة فنية في لندن امتدت ستة أشهر، وبعد هذه الإقامة أتت لحظة الاستقالة من أرامكو، وتحوّل المسار في حياتها، حيث وهبت حياتها للفن قبل أن تلتحق بكلية الفنون في لندن عام 2016م.

وعن المحطات التي لا تنساها، تذكر الضويان أن أولاها كانت اقتناء متحفين في إيطاليا لبعض أعمالها، بعد عرضها لعملها الفوتوغرافي في دبي، واعترافها أمام نفسها بصفة الفنانة. وطبعًا هناك "بينالي البندقية"، وتحديدًا ما ينطوي عليه من دعم لا محدود، وثقة كبيرة من الحكومة والأشخاص الذين أسهموا في تشكيل العمل عبر انخراطهم في ورش العمل. وفي الحديث عن الأحلام الكبيرة، تقول: "حلمي أن يصبح لدينا متحف للفن المعاصر في بلدي، وأن أقدِّم فيه معرضًا فرديًا، يحضره أفراد المجتمع".









قصص ومحطات ترويها منال عبر أعمالها: "نطقت الرمال.. فتحرك الصوت"، "أنا"، "اسمي"، "يا ترى هل تراني؟".

الحُبُّ تحت الميكروسكوب

على الرغم من أن موضوع الحب استحوذ على كثير من الأعمال الإبداعية في معظم الحضارات لفهم كُنهه، فقد ظلَّ عصيًا على ذلك. أمَّا اليومَ، ومع التقدم في علم الأعصاب والمخ، والتطور في أجهزة الرؤية والتصوير الدقيق، تبيَّن للعلماء في المختبرات أن كل نوع من الحب، مثل الحب الرومانسي، أو حب الأبناء والأصدقاء وحتى الحيوانات وما إلى ذلك، يترافق مع تنشيط الدماغ لمناطق محددة وإطلاق ناقلات عصبية كيميائية معيَّنة استجابة لذلك. فهل كشف العلماء سرَّ هذا اللغز، أم زاده غموضًا؟ مهما يكن، يقول عالم الفلك الأمريكي المعروف كارل ساغان: "بالنسبة إلى مخلوقات صغيرة مثلنا، لا يمكن تحمُّل هذا الاتساع الهائل للكون إلا من خلال الحب".

ياسر أبو الحسب



لا نبالغ إن قلنا إنَّ الحب واحد من أغرب المشاعر البشرية. نرى المُحب، وإن كان حكيمًا، يتصرف أحيانًا باندفاع وغباء لا يتناسب أبدًا مع شخصيته؛ إذ يهيمن "الحبيب" على تفكيره تمامًا. وهذا مجرد وجه من وجوه ما يسمّيه علماء النفس "التفكير المقتحم"، فحبيبك يقيم في رأسك لا يغادرها. قد تنشب حروب وتُقدَّم التضحيات بالحياة نفسها بسبب الحب. حتى إن الشخص نفسه قد يتعجَّب من تصرفات قد فعلها وهو تحت ذلك تأثير عاطفته، وكيف كان يرى محبوبه من خلال منظار وردي لا يُبدي عيوبه؛ ولذا سمعنا الشاعر الإنجليزي تشوسر يقول: "الحب أعمى".

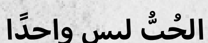
يتعدى التأثير مجرد الحس العابر بالفرح أو الحزن، بل يتمادى في كثير من الأحيان ليسبب تأثيرات جسدية سلبية بسبب الابتعاد عمَّن نحب. ورأينا كيف أن الأساطير كانت تنسج عن الحب في كل الحضارات: روميو وجولييت، باريس وهيلين، قيس وليلى.

والحب في البشر مُتفرد، فليس معتادًا في مملكة الحيوان ذلك الارتباط طويل الأمد بين الذكر والأنثى الذي نراه في البشر، أو حتى علاقة "الصداقة" بين أفراد ليسوا من العائلة نفسها. ولذلك خضع "الحب"، ربَّما أكثر من كل المشاعر الإنسانية الأخرى، إلى دراسات متفحصة من الفلاسفة والعلماء على مرِّ التاريخ.

من أقدم النصوص الفلسفية التي ناقشت الحب على نحو واسع هو نص "الندوة"، الذي يُعدُّ من أهم أعمال أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو مجموعة خطب يُلقيها بعض الحكماء في ندوة تتناول جوانب مختلفة من الحب، مثل نشأة الحب وطبيعته.

وفي القرنين الأخيرين، ظهر علماء كثيرون من مجالات علمية شتى حاولوا فهم الحب، أو على الأقل كان لنظرتهم إلى السلوك الإنساني أثر كبير في فهم أعمق للحب.

ولكن مع التقدُّم الكبير في علوم الأعصاب والمخ وتقنيات التصوير، بدأت العلوم التجريبية تحاول استقصاء ذلك الشعور في منبعه وفهمه على نحو أوسع.



الحُبُّ ليس واحدًا

ليس الحب كما أسلفنا نوعًا واحدًا، بل هناك حب لشريكة الحياة وحب للصديق وحب للأبناء وحب للحيوانات الأليفة التي نعتني بها، بل أيضًا حب بعض المظاهر الطبيعية المحددة، مثل غروب الشمس وغير ذلك. هذا الاختلاف تعيه أدمغتنا جيدًا، وتستجيب على نحو مختلف لكل نوع من تلك الأنواع.

فأخيرًا، أُجريت دراسة حديثة في جامعة ألتو في فنلندا، ونُشرت في مجلة علمية (Cerebral Cortex) أغسطس 2024م، لمحاولة معرفة الاستجابات الدماغية المختلفة لتلك الأنواع من الحب عن طريق قياس النشاط الدماغي الذي يثيره كل نوع من هذه الأنواع؛ وذلك باستخدام التصوير المغناطيسي الوظيفي. وتوصل الباحثون إلى أن النشاط الدماغي المرتبط بحب الأبناء هو الأكبر. ففي هذا النوع من الحب، كان هناك نشاط عميق في نظام المكافأة في الدماغ في منطقة النواة المخططية، أو ما يُعرف بالجسم المخطط (Striatum)، التي لها علاقة بالتخطيط واتخاذ القرارت. ولم يُلاحظ هذا في أي نوع آخر من الحب، حتى الحب بين الجنسين. وهذا النوع من حب الأبناء أظهر أيضًا نشاطًا في منطقة المهاد المسؤولة عن الوعي والانتباه. وهذا يبدو منطقيًا جدًا، فالتخطيط واتخاذ القرارات هي أشياء لازمة لتربية الأطفال.

وبعد هذا الحب الأبوي جاء الحب الرومانسي من ناحية شدة النشاط الدماغي. ويلي كل ذلك النشاط الناتج عن حب غير الأقارب، مثل حب الأصدقاء. ثم يأتي حب الطبيعة الذي أظهر هو الآخر نشاطًا في بعض أجزاء المخ. وكانت المفاجأة كبيرة عندما أظهر الدماغ نشاطًا مميَّزًا في المخ لدى الخاضعين للدراسة ممن اقتنوا حيوانًا أليفًا. فالنشاط الدماغي لم تختلف شدته فحسب، بل تغيرت مناطقه في الدماغ أيضًا.

وقاس العلماء النشاط الدماغي بعد أن أخبروا الخاضعين للتجربة بمواقف لها علاقة بنوع معين من أنواع الحب المذكورة، ليسمحوا لهم بالتفكير في الموقف بعمق وتركيز.



الدوبامين والدماغ

تُعد الدكتورة هيلين فيشر (1945م – 2024م)، واحدة من أشهر علماء الأنثروبولوجيا في العالم، ولها كتاب ملهم في هذا الصدد عنوانه "لماذا نُحب؟"، مترجم إلى العربية. وهي تُقسِّم الحب إلى ثلاث مراحل رئيسة: الرغبة والانجذاب والتعلّق، وفي كل مرحلة منها يتصرف المخ بطريقة مختلفة تجعل العلاقة تتطور من الرغبة؛ لتصل إلى الرغبة في العيش أطولَ فترة مع الطرف الآخر.

فبعد دراسات عديدة في هذا المضمار، وُجِد أن الانجذاب العاطفي يُطلِق في المخ فيضانًا من المواد الكيميائية، ربَّما أشهرها الدوبامين، وهو هرمون مسؤول بدرجة كبيرة عن السعادة والتحفيز، وتفعيل ما يسمَّى بـ"نظام المُكافأة" في المخ. وارتفاعه في المخ يؤدي إلى زيادة كبيرة في قدرة الإنسان على التركيز على شيء معين، وهذا ما يفسِّر ذلك التفكير المستمر فيمَن نُحب. كما أنه مرتبط بزيادة النشوة والابتهاج.

وترتبط زيادة الدوبامين أيضًا بزيادة الطاقة عمومًا، وبعض الأرق وفقدان الشهية وارتفاع معدل دقات القلب والقلق، وكلها أعراض معتادة لدى الوقوع في بئر الحب العميقة.

بالعودة إلى أنواع الحب العديدة التي أشرنا إليها سابقًا، وجد الباحثون أيضًا أن بعضًا من تلك الأنواع يعزِّز بعضه بعضًا. فهرمون الأكسيتوسين الذي يُفرز في إطار الحب بين الزوجين، له أدوار مهمة في الحمل والولادة والارتباط بالرضيع، وكأن حب الرجل لزوجته يساعد بصورة ما على تعضيد ارتباط الأم برضيعها.

هذا الهرمون نفسه (الأكسيتوسين) يعزِّز مشاعر الرضا والهدوء والأمان. وإضافة إليه، هناك هرمون الفازوبريسين، وكلاهما يرتبطان أكثر بمرحلة الارتباط طويل الأمد بين الشريكين. ووجد العلماء أنَّه عند حقن الحيوانات بهذين الهرمونين، فإن هذا يُساعد على ترابط الأزواج، فيجعل كل زوج أكثر ميلًا للارتباط بشخص واحد، وهذا الارتباط نفسه يزيد، وتزيد معه الرغبة في حماية الشريك.

ويؤثر الحب أيضًا في الأعصاب، فهو يُعطل المسارات العصبية المسببة لبعض المشاعر السلبية مثل الخوف. فعندما ننغمس في تجربة رومانسية، فإن الآلية العصبية المسؤولة عن تقييم الناس تتعطّل، وتحديدًا تقييم مَن وقعنا في حبّه؛ لذلك فإننا نعيد ما قيل قديمًا: "الحب أعمى".

وكما أن هناك كثيرًا من المواد التي تُطلق في المخ عند الوقوع في الحب، فهناك أيضًا احتمال أن تنقص بعض المواد الأخرى أثناء ذلك. فمثلًا، هناك هرمون السيروتونين، الذي يتسبب نقصه في فقدان الإرادة والتفكير المستمر فيمَن نحب. هذا النقص في السيروتونين قد يُسبب في بعض الحالات شكلًا من الوساوس. فالدوبامين والسيروتونين إذًا، علاقتهما علاقة عكسية إن زاد أحدهما يقل الآخر، والفيضان الدوباميني الناشئ عن الحب يصاحبه انخفاض في مستوى السيروتونين، يغمسنا في تفكير لا ينتهي بمن نحب.

ولكن نود أن ننبّه هنا إلى أن تعامل مخ الذكر وجسده مع فيضان الهرمونات ونقصانها، يختلف بالتأكيد عن تعامل الأنثى معه، حتى الهرمونات نفسها لن تُفرز بالأنواع والكميات نفسها.



القلب المكسور

يمثِّل فقدان الحب عبئًا كبيرًا على المخ، وعلى الجسد عامة. إذ إن أشهر ما يسببه الهجر هو الغضب، والغضب يجهد القلب ويرفع ضغط الدم، ويضعف المناعة؛ وقد يجد المرء نفسه مصابًا بجفاف الحلق أو نزلات البرد بعد أن يهجره مَن يحب! هذا طبعًا بالإضافة إلى مشاعر الإحباط واليأس، بل الاكتئاب الذي يصيب المهجورين، بل إن هناك من يموت من جراء ذلك بسبب توقف القلب أو الجلطات الناجمة عن الاكتئاب. كما يمكن أن يصل الأمر إلى القيام بأعمال عنيفة غير عاقلة ضد الذات أو ضد الآخر.

وكما قلنا مع الحب نقول مع فقدانه. إذ يتعامل الذكر والأنثى مع الهجر بطريقتين مختلفتين نوعًا ما. فالإناث، مثلًا، أكثر ميلًا للإصابة بالاكتئاب، وفقدان الوزن واضطرابات النوم، فيتحدَّثن كثيرًا ولا يستطعن التركيز. في حين أن الذكور أكثر ميلًا لإيذاء الذات من الإناث بعد هجرهم! ومنبع الكثير من تلك الأعراض هو انخفاض إنتاج خلايا المخ من الدوبامين، فيدخل الخمول واللامبالاة والاكتئاب إلى المخ من الباب الكبير.

ظل الحب لغزًا كبيرًا منذ أن وعت البشرية، وكما قلنا دَرَسَه العلماء والفلاسفة منذ آلاف السنوات حتى عصرنا هذا ليحاولوا فك شفرته، وسيستمرون في ذلك. لأن فهم الحب، بقدر ما هو شيء مُلغز، مثير للفضول بسبب تأثيراته العميقة في النفس. إذ إنه مفيد من نواحٍ علاجية ترتبط بالصحة العقلية للأفراد. ويُمكن لهذا الفهم أن يساعدنا على سبيل المثال في علاج اضطرابات مثل "اضطرابات التعلق" وغيرها من الاضطرابات.

العمارة في زمن الكوارث الطبيعية

دور الهندسة بين بناء الملاجئ وإعادة تشكيل المجتمع المتضرر

عقب وقوع أي كارثة طبيعية، وعند الانطلاق في معالجة ذيولها وترميم ما تضرر، تتجه الأنظار صوب الهندسة المعمارية، أملًا في أن تتمكن من استنباط حلول أو وسائل تحول دون تكرار ما أسفرت عنه هذه الكارثة من دمار وضحايا، أو للإقلال من حجم هذه الخسائر. وبالفعل، قطعت الهندسة المعمارية شوطًا كبيرًا خلال القرن الماضي في مجال استنباط حلول نجحت في تخفيض الخسائر الناتجة من بعض الكوارث الطبيعية.

علاء حليفي

نظرًا للهجرة المتزايدة من الأرياف إلى الحواضر منذ الثورة الصناعية، أصبح وقع الكوارث الطبيعية على البشر مضاعفًا نتيجة اكتظاظ المدن بهم. وعلى الرغم من أن الهندسة المعمارية لا تستطيع منع هذه الكوارث، فإنها تمتلك القدرة على تقليل الأضرار المرتبطة بها والمساعدة على حماية الأرض وسكانها. فالأحداث المؤسفة التي وقعت على مدار السنوات القليلة الماضية، مثل الزلزال الذي ضرب وسط تركيا وشمال غرب سوريا، وزلزال الحوز بالمغرب، والفيضانات وانهيار السدود في ليبيا، وحرائق الغابات التي دمرت مدينة لاهينا بهاواي؛ كلها تُظهر بوضوح الحاجة المُلحة إلى تنفيذ تدابيرَ وقائية وتخفيفية، إضافة إلى الاستعداد لاتخاذ إجراءات احترازية للتدخل السريع في حالات الطوارئ.

عمارة ما بعد الدمار: تصميم الملاجئ

عند وقوع الكوارث الطبيعية، فإن التركيز الفوري ينصب على توفير المساعدة والمأوى وضمان السلامة للمتضررين. وفي أعقاب هذه الأحداث، يؤدي المهندسون المعماريون دورًا حيويًا في إعادة تشييد مجتمعات مستدامة قادرة على مواجهة التحديات المستقبلية. يجري ذلك عن طريق تصميم ملاجئ مؤقتة في حالات الطوارئ، وإعادة بناء البنية التحتية، وإعمار المناطق المنكوبة.

فبعد تقديم الإسعافات الأولية للمتضررين، وفي ظل الكوارث الطبيعية والأوضاع غير المستقرة في عدد من بقاع العالم، يصبح توفير مأوى آمن للأفراد والأسر النازحة من أبرز الاحتياجات العاجلة. وهنا يستخدم المهندسون المعماريون معارفهم ومهاراتهم لتصميم المساكن المؤقتة وبنائها، آخذين في الاعتبار أيضًا العوامل الثقافية والمناخية والاجتماعية للمناطق المتضررة.

لأن الكوارث الطبيعية تشكِّل تحديات جديدة لميدان العمارة وتخطيط المدن، أصبحت هندسة الطوارئ أكثر فأكثر جزءًا مهمًا من الهندسة المعمارية.

وفي أعقاب الزلازل أو الأعاصير أو الفيضانات، يتعاون المعماريون بشكل وثيق مع منظمات الإغاثة والمجتمعات المحلية لتقييم الأضرار ووضع إستراتيجيات للنشر السريع لملاجئ الطوارئ؛ وذلك باستخدام تقنيات وموادَّ مبتكرة لإنشاء ملاجئ خفيفة الوزن وسهلة التجميع يُمكنها تحمُّل الظروف القاسية في مناطق الكوارث.

تطوُّر جديد في تصميم الملاجئ

والحال أن تصميم الملاجئ في المناطق المنكوبة، أو ما يُعرف بـ"هندسة الطوارئ"، أصبح اليوم جزءًا أساسًا ومهمًا في ميدان الهندسة المعمارية. فبعدما كان تصميمها مجرد إجراء احترازي مخصص لزمن الكوارث، صار اليوم بمنزلة تيار معماري وإنساني له أفكاره ومبادئه الخاصة. فالملاجئ التي يحتاج إليها ضحايا أي كارثة، هي بمنزلة مساكنهم الجديدة التي سوف يقضون فيها أشهرًا طويلة إلى حين حصولهم على مساكن دائمة. إذ تحوَّلت هذه الملاجئ في نظر المعماريين اليوم من مجرد أماكن مؤقتة لمساعدة المنكوبين، إلى أكثر الأعمال المعمارية إنسانيةً.

وقد شهد تصميم الملاجئ في زمن الكوارث تطورًا كبيرًا في شكله أو مضمونه، وأصبح له أهداف أساسية تحكمه، مثل التكامل مع ثقافة وعادات البناء المحلية، والتشييد السريع للمأوى، وكذلك التكلفة المنخفضة للبناء عن طريق استخدام المواد المُعاد تدويرها. ويهدف هذا النهج إلى إعادة استخدام الموارد بدلًا من التخلُّص منها، وهو ما يقلل من الضرر البيئي الناتج من عمليات البناء، كما أنه يعزِّز الاستدامة والتنمية المحلية.



مخلفات الزلزال الذي ضرب ولاية كاليفورنيا في تسعينيات القرن الماضي.



نموذج الملجأ الذي اقترحه شيجيرو بان لفاجعة الحوز بالمملكة المغربية، 2023م.

روّاد عمارة الطوارئ

يعدُّ المعماري الياباني شيجيرو بان، الحاصل على جائزة "بريتزكر للهندسة المعمارية"، أحد رواد عمارة الطوارئ في العالم، بعدما اشتهر بتفانيه الثابت في جهود الإغاثة في حالات الكوارث في بلدان عديدة. فقد صمّم هذا المعماري ملاجئ إيكولوجية للمتضررين باستعمال أنابيب الورق المقوَّى. وقد شُيِّدَ آخر هذه الملاجئ في مدينة مراكش بعد فاجعة زلزال الحوز الذي ضرب المملكة المغربية في السنة الماضية مُخلِّفًا آلاف الضحايا البشرية، كما أدى إلى انهيار أكثر من ستين ألف منزل في المنطقة التي ضربها.

صمَّم شيجيرو بان ملاجئ الورق المقوَّى (Paper Log House)، أوَّل مرة، في عام 1995م، في أعقاب زلزال كوبي في اليابان؛ آخذًا في الاعتبار حلًا مستدامًا يستجيب لواقع الكارثة بسرعة وبأرخص المواد المتاحة. واعتمد التصميم على هيكل غير مكلف يُمكن أن يشيده أي شخص، كما يمكن في وقت لاحق تفكيكه وإعادة تدويره بسهولة.

ويمتاز ابتكار شيجيرو بأنه لا يحتاج إلى أية خبرة تقنية مسبقة. إذ تُبنى الجدران من ألواح خشبية تُدخل بين أعمدة الأنابيب الورقية، متباعدةً مسافة 1.2 متر بعضها عن بعض. أمَّا السقف، فيُصنع من أنابيب الورق المقوَّى والخشب. ويُمكن لكل وحدة سكنية أو ملجأ أن تستوعب ما يصل إلى أربعة أشخاص، ويمكن تجميعها بسهولة في مدة تتأرجح بين خمس وعشر دقائق بواسطة ثلاثة أشخاص.

يقول شيجيرو بان متحدثًا عن أعماله: "حتى في مناطق الكوارث، أريد إنشاء مبانٍ جميلة. أرغب في أن أحرك الناس وأحسن من حياتهم".

إعادة الإعمار

بعد وقوع الكارثة، وإيواء السكان في ملاجئ الطوارئ، يشرع المهندسون المعماريون في الخطوة التالية، ألا وهي تقييم الأضرار ووضع خطط إعادة الإعمار الشاملة. في البداية يُجرون مسوحات وتقييمات تفصيلية للأماكن المتضررة، لتحديد المناطق التي تتطلب الإصلاح أو التعزيز أو الهدم. وبناءً على هذه التقييمات، يطورون إستراتيجيات إعادة الإعمار التي تعطي الأولوية للسلامة والمرونة والاستدامة، ثم يتعاونون بشكل وثيق مع المخططين الحضريين والسلطات المحلية لإنشاء خطط تجديد حضري تُلبي احتياجات المجتمع على المدى الطويل، مثل: الإسكان والبنية التحتية والأماكن العامة.

تتجاوز إعادة الإعمار مجرد إعادة تشييد المباني؛ إذ تؤدي دورًا حيويًا في تشكيل المجتمعات المتضررة، واستعادة الأمل، وخلق مستقبل أكثر استدامة. ويمتد تأثير إعادة الإعمار بعد الكوارث إلى ما هو أبعد من المجال المادي؛ إذ إنها تُسهم في ترميم الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والبيئية للمناطق المتضررة. إضافة إلى ذلك، توفر مرحلة إعادة الإعمار فرصًا للمهندسين المعماريين للابتكار والإبداع والتفكير خارج الصندوق، بهدف التوصل إلى حلول جريئة لمواجهة التحديات الصعبة التي تطرحها كل كارثة. فيؤدي هذا غالبًا إلى تصميمات رائدة تدفع حدود الهندسة المعمارية التقليدية إلى أبعاد جديدة. وعلى سبيل المثال، في أعقاب إعصار كاترينا في عام

2005م، الذي يعدُّ أسوأ كارثة طبيعية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، اقترح المهندسون المعماريون بناء منازل عائمة بوصفها وسيلة للتخفيف من مخاطر الفيضانات في نيو أورلينز.

كما يجب التنبيه أن عملية إعادة الإعمار بعد الكوارث لا تقتصر فقط على إصلاح المباني والشوارع المتضررة، بل تشمل أيضًا تحسين قدرة المدن على مواجهة الكوارث المستقبلية. ومن خلال دمج المواد والتقنيات الصديقة للبيئة في جهود إعادة البناء، يمكن للمهندسين المعماريين المساعدة في التخفيف من المخاطر المستقبلية وتقليل تعرض المجتمعات للكوارث المماثلة. ولا يعود هذا النهج بالنفع على المتضررين بشكل مباشر فحسب، بل إنه يشكل أيضًا مثالًا يُحتذى به في المناطق الأخرى المعرضة للكوارث الطبيعية، وهو ما يمكِّنهم من استنباط الدروس اللازمة لتعزيز استعدادهم لمواجهة التحديات المستقبلية.

نظرة نحو المستقبل

في النهاية، تجدر الإشارة إلى أن المعمار المستدام وتصميم المدن في زمن الكوارث يمثلان تحديًا وفرصة في الوقت نفسه؛ إذ يُمكن أن تؤدي التصاميم المعمارية المبتكرة دورًا حيويًا في خلق مجتمعات مقاومة ومستدامة، كما يمكن أن توفر بيئات تعزِّز جودة الحياة للجميع؛ لأن الدروس المستنبطة من الكوارث التي يشهدها عالمنا حاليًا، يُمكنها أن تقود إلى تحوُّل إيجابي في شكل مدننا ومستقبلها.

إن الكوارث الطبيعية تشكِّل تحديات جديدة لميدان العمارة وتخطيط المدن، فقد أصبحت هندسة الطوارئ أكثر فأكثر جزءًا مهمًا من الهندسة المعمارية؛ لأنها تستشرف المستقبل عن طريق معالجتها لموضوعات معاصرة، مثل: إعادة تدوير المواد، والبناء الإيكولوجي، واستشراف المستقبل.

فما الدروس المستفادة من كوارث العالم الحالي؟

يجب أن تكون البنية المعمارية المستقبلية مستدامة بيئيًا، ومصمّمة ومنفّذة بتكنولوجيا خضراء تعتمد على موارد متجددة، مع مقاومة فعّالة للكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والزلازل. وكذلك يجب أن تكون مرنة تتكيف مع احتياجات المجتمعات المحلية، وتعزِّز الحياة الاجتماعية وكفاءة الاستخدامات وإدارة الموارد، وذلك لبناء مستقبل أكثر استدامة وأمانًا للأجيال القادمة، كما يُعبِّر المثل "نحن لا نرث الأرض من أجدادنا، بل نستعيرها من أبنائنا".



آثار إعصار كاترينا سنة 2005م بالولايات المتحدة الأمريكية.

النفايات البلاستيكية للبناء القابل للنفخ



يُشكِّل الاستهتار بالتعامل مع النفايات البلاستيكية ضررًا كبيرًا على الأنظمة البيئية البرية والمـائية. فهذه النفـايات تُعدُّ من أسباب التغيرات المناخية وفقدان التنوُّع البيولوجي. وفي وقت فشلت فيه معظم محاولات معالجتها، لم يبقَ لنا سوى الاستعانة بالخيال لإيجاد الحلول، مثل تجميع النفايات على اليابسة وإعادة استخدامها حيثما يمكن ذلك. ومن آخر ما تفتَّق عنه الخيال تصميم أبنية منها قابلة للنفخ، وتجميعها في مكان واحد في البحار، نعدُّه قارة ثامنة، ونوفر كل أسباب الحياة لمن يعيش فيها.

حسن الخاطر

تُخلِّف الكوارث الطبيعية المتزايدة أوضاعًا صعبة على ملايين البشر، ولا سيَّما في مجال الإسكان. إذ جاء في تقرير المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لعام 2023م، أن عدد الذين يُهجَّرون كل عام بسبب هذه الكوارث بلغ نحو 20 مليون شخص. وهذا ما يؤدي إلى زيادة التنافس على الموارد المحدودة حيثما يحلون، وهو ما يسبب الحروب ومزيدًا من التهجير. وبات توفير المساعدات الفورية ضروريًا، وبخاصة فيما يتعلق بالسكن ومستلزماته.

هياكل قابلة للنفخ

المبدأ الأساس للهياكل القابلة للنفخ بسيط جدًّا، وهو ضخُّ الهواء في هيكل محصور ومغلق، بحيث تسمح القدرة على الانكماش والتمدد المستمر بنقل هذه الهياكل بسهولة عند الحاجة. وإضافة إلى قابليتها للطي وسهولة التجميع والتفكيك، فإنها تتميز بالخصائص الشفافة؛ إذ من الممكن أن يصبح الضوء عنصرًا محوريًا في التصميم، وهو ما يولِّد تأثيرات بصرية متنوعة، وهذا يعزِّز الهندسة المعمارية القابلة للنفخ، التي لا تنحصر فقط من خلال شكلها، ولكن أيضًا في كيفية اندماجها في البيئة الحضرية. وهذا هو السبب الرئيس في أن بعض تطبيقاتها الحالية المحدودة، موجودة في المشاريع الفنية والمعارض والأجنحة التي تُقام فترةً زمنية محددة.

تجربة أولى

على صعيد تطبيق الفكرة على الأبنية، قام طلاب الهندسة المعمارية في جامعة برات الأمريكية عام 2021م، ببناء منشآت قابلة للنفخ استنادًا إلى أبحاثهم حول كيفية تقليل البلاستيك الزائد وإعادة استخدامه في التصميم. إذ استخدموا النفايات البلاستيكية، مثل: أكياس القمامة وأغطية التنظيف واللفائف البلاستيكية والتغليف المرن، وثبّتوا هذه الهياكل في الحرم الجامعي، كما جاء في نشرة "أخبار برات" (Pratt News) في 15 ديسمبر 2021م.

وفي الواقع، تُقدِّم الهياكل القابلة للنفخ مجموعة واسعة من الأفكار القابلة للتطبيق في مجال الصناعة وإدارة الفعاليات والهندسة المعمارية والهندسة المدنية والطيران (المنطاد) والحالات الطارئة والفضاء. وكذلك تُقدِّم الهياكل القابلة للنفخ إمكانات جديدة لمستقبل الملاجئ الطارئة، سواء أكان الأمر يتعلق بالاستجابة للكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والزلازل، أم تقديم مساعدات في مخيمات اللاجئين؛ إذ إن وجود مثل هذه الأبنية يؤدي إلى إحداث قفزة كبيرة في الاستجابة للكوارث.

ناطحة سحاب قابلة للنفخ

ومن الأفكار الواعدة حول البناء القابل للنفخ، فاز فريق من ثلاثة مصممين بولنديين، في عام 2018م، بالجائزة الذهبية في مسابقة ناطحات السحاب، كما جاء في موقع "إعادة التفكير في المستقبل" (Rethinking the Future) في يونيو 2022م. وكانت الفكرة تصميم ناطحة سحاب قابلة للنفخ، يمكن إنزالها بواسطة طائرات الهليكوبتر إلى مناطق الكوارث، ثم نفخها إلى ارتفاعها بالكامل، البالغ نحو 100 متر، لتتسع لنحو 1000 شخص في طوابق متعددة. ويمكن لهذا المبنى أن يكون أيضًا مستوصفًا للإسعافات الأولية أو مزرعةً عمودية لإنتاج الغذاء الذي تشتد الحاجة إليه في مناطق الكوارث. وعلى الرغم من أن فكرة ناطحة السحاب القابلة للنفخ خيالية وبقيت مجرد تصميم، فإن تنفيذها يبدو مسألة وقت؛ لأن التقنيات موجودة وهي قيد التطوير، كما جاء في مجلة "بيغ ثينك" (Big Think) في 18 مايو 2018م.



في الفضاء

لا يتوقف استخدام الهياكل القابلة للنفخ على كوكب الأرض فحسب، بل يُمكن لتطبيقاتها أن تُستخدم خارجه في الفضاء وعلى القمر وكواكب المجموعة الشمسية. وهناك دراسات حديثة، أجرتها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) ووكالة الفضاء الأوروبية (إيسا)، حول إنشاء قاعدة على سطح القمر قابلة للنفخ. فهذه الهياكل تتميز بخصائص عديدة مقارنة بالوحدات الصلبة، مثل: كفاءة التعبئة والتغليف، وسهولة التوسع، والمرونة. وقد صرَّح رئيس قسم الابتكار والتصميم في شركة الهندسة المعمارية "هاسل"، زافييه دي كستيلييه، أن فكرة إنشاء مساكن قابلة للنفخ على سطح القمر تبدو وكأنها خيال علمي، لكن هذه الأنواع من الأغشية يجري اختبارها بالفعل على متن محطة الفضاء الدولية، كما أشار موقع الشركة.

القارة الثامنة العائمة

بالانتقال إلى الأنظمة البيئية المائية، صممت المهندسة المعمارية السلوفاكية، لينكا بيتراكوفا، مشروعًا واعدًا سُمِّي "القارة الثامنة". وحصد هذا التصميم "الجائزة الكبرى"، في عام 2020م، من المؤسسة الفرنسية "جاك روجري"، وهي أعلى جائزة فرنسية للهندسة المعمارية البحرية. ويتطلع مشروع "القارة الثامنة" إلى إحداث تأثير إيجابي على المحيطات، من خلال التخلص من النفايات من على سطح الماء، وإعادة تدوير البلاستيك أثناء وجوده في المحيطات. إضافة إلى أن المشروع يدعم مشاريع أبحاث المحيطات، ومجموعة من الاستخدامات الثانوية التي سوف تساعد في التخلص من النفايات البلاستيكية ودفع عجلة البحث البيئي. وتحصل المحطة العائمة المتخيلة على طاقتها من الطاقة المتجددة باستخدام طاقة الأمواج والألواح الشمسية التي تغطي البيوت البلاستيكية.

تقع القارة الثامنة في بقعة القمامة الكبرى في المحيط الهادئ. وبحسب الموسوعة البريطانية، فإن هذه البقعة هي منطقة في المحيط الهادئ بين هاواي وكاليفورنيا، تتميز بتركيز عالٍ من النفايات البلاستيكية. وقد قُورنت مساحتها بمساحة ولاية تكساس أو ألاسكا في الولايات المتحدة الأمريكية، أو دولة أفغانستان.

إن القمامة التي تصل إلى المحيط من الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية ومن الساحل الشرقي لليابان، تحملها التيارات المائية مثل: تيار كاليفورنيا والتيار الاستوائي الشمالي وتيار شمال المحيط الهادئ وتيار كوروشيو من اليابان، إلى الدوامة شبه الاستوائية في شمال المحيط الهادئ، التي يعمل دورانها في اتجاه عقارب الساعة على جمع المواد الصلبة مثل البلاستيك واحتجازها.

تصميمها

تتكون هذه القارة الخيالية من خمسة أجزاء رئيسة: الحاجز الذي يعمل على جمع النفايات البلاستيكية من المحيط، ويستفيد من طاقة المد والجزر؛ والمجمّع الذي يقوم بفرز النفايات وتحليلها وتخزينها؛ ومركز البحث والتعليم، وهو مكان لدراسة وعرض الجوانب المقلقة بشكل متزايد في البيئات المائية؛ والبيوت البلاستيكية التي تُستخدم لزراعة النباتات بالطريقة المائية المعروفة باسم الزراعة المائية إضافة إلى تحلية المياه؛ والجزء الخامس يتكون من أماكن المعيشة مع مرافق الدعم. وعلى الرغم من أن كل جزء في المحطة العائمة له وظيفته الخاصة والمحددة جيدًا، فإن ترابط جميع الأجزاء يجعلها تحقق الاكتفاء الذاتي.

فالحاجز الذي يطفو على سطح الماء يُسخِّر طاقة المد والجزر لتشغيل التوربينات لجمع النفايات البلاستيكية ونقلها إلى المجمع الذي يقع في المنتصف لمعالجتها. في حين تتولَّى الألواح الشمسية التي تغطي البيوت البلاستيكية، توفير طاقة كافية لتسخين خزانات المياه لتبخيرها وتحليتها. وبعد استخراج المياه العادمة، تُضخ المياه النظيفة المفلترة في خزانات المياه من أجل تحليتها أو استخدامها في زراعة النباتات.

وتشير لينكا بيتراكوفا في مشروعها إلى أن المحيط يعاني، ونحن بحاجة إلى المساعدة في استعادة توازنه من أجل بقاء كوكبنا على قيد الحياة. ولا يمكننا تحقيق ذلك من خلال التكنولوجيا فقط، بل نحتاج إلى منصة متعددة التخصصات لتثقيف الناس وتغيير علاقتهم بالبيئة البحرية. ولعلَّ اليوم هو الوقت المناسب لتخيّل مستقبل أنظف ومستدام بيئيًا.

وعلى الرغم من أن مشروع "القارة الثامنة" مشروع خيالي، وتواجهه صعوبات عديدة، منها التحديات المناخية العنيفة التي تتمثل في الأعاصير القوية، وما يتطلبه من دعم مالي كبير؛ فإنه يقدِّم أفكارًا إبداعية في حل مشكلة بيئية تهدد كوكب الأرض.



ميكروبيوم البيئة المبنية

آثاره على الصحة العامة ودوره في تشكيل الحيز الحضري

تزخر بيئات البشر المبنية بالكثير من مجموعات الكائنات الحية الدقيقة التي تجاور مضيفيها من البشر وغيرهم. ومع تصاعد التحضر واكتظاظ السكان وانتشار الأوبئة، بات استكشاف تفاعل ميكروبيوم البيئة المبنية مع الميكروبيوم البشري والصحة أمرًا حيويًا بشكل متزايد. إذ يؤدي هذا التفاعل دورًا محوريًا، ليس فقط في مكافحة الأمراض المعدية وتعزيز التنمية المناعية الصحية، بل أيضًا في تطوُّر وظيفة المدينة وشكلها منذ نشوء أول حيِّز حضري في التاريخ وحتى اليوم. لذا، تُسلِّط التطورات الأخيرة في أبحاث الميكروبيوم الضوء على الحاجة إلى مناهج مبتكرة في إنشاء مساحات معيشية جديدة تُعزِّز الجانب الصحي والمناعي في الميكروبيوم وتقلل من الجوانب الممرِضة.

أمين نجيب

يعجُّ جسم الإنسان بتريليونات الميكروبات، من فيروسات وبكتيريا وفطريات وغيرها، ويفوق عدد خلاياها خلايا الجسم نفسه. كما تستضيف الهياكل المبنية بيئات معقدة من هذه الكائنات الحية الدقيقة التي تتفاعل معها. ومع أن دراسة الميكروبات تعود إلى أواخر القرن السابع عشر، فإن دراسة الميكروبيوم الذي هو تفاعل هذه الميكروبات كمجموعات مع البيئة التي تعيش فيها، تُعد حقلًا علميًا حديثًا. وبدأت الأبحاث الجديدة تكشف عن تبعات تاريخية مهمة لهذا التفاعل بين هاتين البيئتين، ليس فقط على الصحة، بل على الاجتماع البشري أيضًا.

تجدر الإشارة في البداية إلى أنه ليس صحيحًا ربط الميكروبات بالأمراض فقط، كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن؛ إذ إنها تؤدي أيضًا دورًا حيويًا في بقائنا وازدهارنا عبر علاقة تكافلية معقدة، بدءًا من إنتاج الأكسجين إلى المساعدة في الهضم. وقد وصفت مجلة القافلة (مايو - يونيو، 2019) هذه العلاقة بدقة: "يُطلق على العلاقة التي تحكم التفاعل طويل الأمد بين كائنين حيَّين مختلفين اسم التكافل. عندما تكون هذه العلاقة التكافلية مفيدةً لكليهما، تُعرف باسم التبادلية. وعندما تكون مفيدة لواحد منهما، بينما يكون المضيف غير متأثر، تُعرف بالمعايشة. أخيرًا، يمكن أن تكون العلاقة مفيدةً لواحد، ولكنها ضارةٌ للمضيف، فتسمَّى عند ذلك علاقةً طفيلية؛ وهذه الأخيرة هي العلاقة في حالة المرض".

ميكروبيوم الصيادين وجامعي الثمار

حتى وقت قريب، كانت أبحاث الميكروبيوم تركِّز على الأشخاص الذين يعيشون في المناطق الحضرية الحديثة. لكن هذه البيئة كانت عرضة لتدخلات تكنولوجية حديثة على حياة البشر، مثل الإفراط في النظافة، واستهلاك الأطعمة المكررة مثل السكر الأبيض والخبز الأبيض وما إلى ذلك، واستخدام المضادات الحيوية، وجميعها لها تأثير كبير بمرور الوقت على الدور الوظيفي للميكروبيوم في المجتمعات الصناعية. وقد أدت هذه الجوانب من أسلوب الحياة إلى إلغاء كثير من الوظائف التكافلية الأصلية للميكروبيوم التي كانت تُسهم في تثبيت أجسامنا ضد الكائنات الحية الدقيقة الغريبة.

بدأ العلماء توًّا بفهم كيفية تطوُّر الميكروبيوم بوصفه نظامًا بيئيًا ديناميكيًا يساعد في تيسير صحة الإنسان، وكذلك في إعادة تشكيل بيئته السكنية.

متوسط ميكروبيوم الأمعاء

730
نوعًا من ميكروبات الأمعاء
شعب هادزا
مجتمع ما قبل الزراعة

436
نوعًا من ميكروبات الأمعاء
ا لنيبال
المجتمع الزراعي

277
نوعًا من ميكروبات الأمعاء
كاليفورنيا
المجتمع الحديث

اليوم، مع التحول في أبحاث الميكروبيوم نحو مقارنته بالمجتمعات السابقة على العصر الصناعي، وعلى ما قبل الزراعة، بدأ العلماء توًّا فهم كيفية تطوره على مدار حياتنا بوصفه نظامًا بيئيًا ديناميكيًا يساعد في تيسير صحة الإنسان، وكذلك في إعادة تشكيل بيئته السكنية.

في هذا السياق، جاء في دراسة مقارنة، وهي الأولى من نوعها، أجراها فريق من الباحثين من معهد ماكس بلانك الألماني، وبحثت تسلسل الحمض النووي لميكروبات الأمعاء من بعض أعضاء شعب هادزا، الذين لا يزالون يعيشون حياة الصيد وجمع الثمار في شمال تنزانيا، وقارنتها بتلك الموجودة لدى أشخاص في نيبال الزراعية وكاليفورنيا المجتمع الحديث. ووجدت الدراسة، التي نُشرت في مجلة "نيتشر" (Nature) في 23 يونيو 2023م، أن شعب هادزا يميل إلى وجود مزيد من الكائنات الحية الدقيقة في الأمعاء مقارنة بالأشخاص في المجموعات الأخرى، وأكدت أن نمط الحياة الغربي يقلل من تنوع مجموعات الأمعاء.

كان لدى شعب هادزا في المتوسط 730 نوعًا من ميكروبات الأمعاء لكل شخص، في حين احتوى متوسط ميكروبيوم الأمعاء في كاليفورنيا على 277 نوعًا فقط. وجاءت ميكروبات الأمعاء النيبالية في المنتصف؛ أي أن الأشخاص الذين يعيشون نمط حياة قائمًا على الزراعة لديهم في المتوسط 436 نوعًا من ميكروبات الأمعاء. ومن المعروف أن الغنى في التنوع قادر على مقاومة الوجود الدائم للطفيليات والمسببات للأمراض، ويمكنه الاستجابة لتقلبات النظام الغذائي الناجمة عن إمدادات غذائية غير متوقعة. ونتيجة لهذا، كان الميكروبيوم البشري للأسلاف بالتأكيد يحتوي على مجموعات متنوعة من الميكروبات، وهو ما وفَّر المرونة الوظيفية التي رافقت استعمار الكرة الأرضية التي تُشكِّل إرثنا التكيفي.

اقرأ القافلة:
الميكروبيوم والصحة،
من العدد مايو-يونيو
2019م



تشاتال هويوك.. أول مدينة في التاريخ

بعد انتهاء العصر الجليدي الأخير منذ حوالي 10000 عام، بدأت مجموعات من الصيادين وجامعي الثمار بممارسة الزراعة والاستقرار في مجموعات تُعدُّ بداية نشوء المدن. وهذا ما يراه علماء الآثار الحيوية على أنه كان بداية تغييرات كبيرة في العلاقة بين الميكروبيوم داخل الجسم وميكروبيوم البيئة المبنية.

أولى هذه المجتمعات الزراعية الكبيرة، المعروفة حتى اليوم، هي مدينة تشاتال هويوك، التي اكتُشفت عام 1958م على يد عالم الآثار البريطاني جيمس ميلارت، والتي ظهرت حوالي عام 7000 قبل الميلاد واستمرَّت إلى نحو عام 6000 قبل الميلاد. وهي تقع جنوب الأناضول وتطل على سهل قونية في تركيا الحديثة.

بلغ عدد سكان المدينة في ذروته نحو 8000 نسمة. وبُنيت منازلها بشكل متلاصق مثل الشقق ومن دون مساحة بينها. وكان السكان يأتون ويغادرون عبر السلالم إلى أسطح المنازل، وربَّما كان ذلك لاعتبارات أمنية. وقد استنتج العلماء الذين يدرسون آثارها أن هؤلاء السكان كانوا من بين أوائل البشر الذين عانوا بعض مخاطر الحياة الحضرية الحديثة نسبيًا. فقد تعرضوا للاكتظاظ السكاني، وللأمراض المعدية، وللعنف وللمشكلات البيئية.

هذا ما أفاد به فريق دولي من علماء الآثار الحيوية في ورقة بُنيت على 25 عامًا من دراسة بقايا بشرية جرى اكتشافها في تشاتال هويوك، ونُشرت في مجلة علمية (PNAS)، في 17 يونيو 2019م. وتصف الدراسة كيف كان حال الانتقال الأول من نمط حياة الصيد والجمع البدوي إلى حياة أكثر استقرارًا مبنية حول الزراعة، كما قال المؤلف الرئيس للدراسة وأستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة ولاية أوهايو، كلارك سبنسر لارسن: "كانت تشاتال هويوك واحدة من أوائل المجتمعات الحضرية الأولية في العالم، وقد شهد السكان ما يحدث عندما تضع كثيرًا من الأشخاص معًا في منطقة صغيرة فترةً طويلة من الزمن".



رسم تخيلي لمدينة "تشاتال هويوك" يعكس التفاصيل المعمارية للمنازل الطينية المتصلة، وأنماط الحياة اليومية لإحدى أقدم المستوطنات البشرية في العصر الحجري الحديث.

وأضاف لارسن أن النظام الغذائي الغني بالحبوب أدى سريعًا إلى إصابة بعض السكان بتسوس الأسنان، وهو ما يُسمَّى أحد "أمراض الحضارة". وأظهرت النتائج أن نحو 10% إلى 13% من أسنان البالغين الذين عُثر عليهم في الموقع أظهرت أدلة على تسوسها، وارتفاع معدل الإصابة بأمراض أخرى دلَّت عليها آثار العدوى في عظامهم. ويرجع ذلك على الأرجح، إلى الازدحام وسوء النظافة. إذ يعود تاريخ البراز المليء بالطفيليات إلى الأيام الأولى من تشاتال هويوك. وقد أظهرت الحفريات أن الجدران الداخلية والأرضيات أُعيد تلبيسها بالطين مرات عديدة. وأظهر تحليل هذا الطين آثارًا لبراز الحيوانات والبشر.

عثر علماء الآثار أيضًا على عظام بشرية متداخلة مع عظام ماشية في المدافن وأكوام القمامة. ومن المرجح أن يكون ازدحام الناس والحيوانات قد أدى إلى ظهور أمراض حيوانية المنشأ في المدينة. ويُعيد الحمض النووي القديم وجود مرض السل في الماشية في المنطقة إلى عام 8500 قبل الميلاد؛ أي قبل ظهور المدينة بـ1500 سنة، وظهر بعد ذلك مرض السل في عظام الأطفال البشر في تشاتال هويوك. ويحدد الحمض النووي في بقايا بشرية قديمة تاريخ مرض السالمونيلا إلى فترة متأخرة من المدينة. وبافتراض أن عدوى الأمراض في العصر الحجري الحديث زادت بمرور الوقت، فربَّما وصلت المستوطنات الكثيفة مثل منطقة تشاتال هويوك إلى نقطة تحوُّل، حيث تتفوّق آثار المرض على فوائد العيش معًا عن كثب.

بعد نحو ألف عام من ظهورها، أي بحلول عام 6000 قبل الميلاد، هُجِّرت تشاتال هويوك بشكل غامض، كما جاء في دراسة نُشرت في "أخبار جامعة أوهايو" في 18 يونيو 2019م. وتشتت السكان في مستوطنات أصغر في السهول المحيطة وما وراءها. كما تفرقت أيضًا مجموعات سكانية زراعية كبيرة أخرى في المنطقة، وأصبح رعي الماشية البدوي أكثر انتشارًا. وبالنسبة إلى تلك المجموعات السكانية التي استمرت، أصبحت المنازل المصنوعة من الطين منفصلة الآن، على النقيض من المنازل المتكتلة في تشاتال هويوك.

ثقافة جديدة في تريبيليا القديمة

بعد نحو 2000 عام، أو بحلول عام 4000 قبل الميلاد تقريبًا، عادت التجمعات السكانية الحضرية الكبيرة إلى الظهور مرة أخرى، لكن هذه المرة في المستوطنات الكبرى لثقافة تريبيليا القديمة، غربي البحر الأسود في منطقة بين أوكرانيا ومولدوفا اليوم، كما تشير الآثار التي شرحت أبعادها نشرة "المتحف الأوكراني". ويقول عالم الأركيولوجيا من جامعة كمبريدج، سايمون غارينون، وعالم الأنثروبولوجيا من جامعة تينسي، ألكسندر بنتلي، إن اكتشاف هذه المدن الكبيرة يدحض الاعتقاد السائد أن أولى المدن وُجِدت في بلاد ما بين النهرين.

هذه المرة كان التصميم مختلفًا عن حي تشاتال هويوك المزدحم؛ إذ كانت مئات المنازل الخشبية المكونة من طابقين متباعدة بانتظام في أشكال بيضاوية متحدة المركز. كما كانت متجمعة في أحياء على شكل فطيرة، ولكل حي منها مبنى مخصصٌ للاجتماع الخاص به. ويشير هذا التصميم منخفض الكثافة إلى أنه ربَّما ساعد في منع أي تفشٍ للأمراض من استنزاف المستوطنة برمَّتها، سواء أعرف سكانها ذلك أم لا، كما أشار بنتلي في مجلة "كونفيرزيشن" (Conversation) في 16 أكتوبر 2024م.

وتشير مجلة "الأعمال الفلسفية للجمعية الملكية: قسم البيولوجيا" في 12 فبراير 2011م، إلى أن سكان تريبيليا لم يكونوا في حاجة إلى التخطيط الواعي لتصميم حيِّهم لمساعدة سكانه على البقاء. فمع الوقت، يتكوَّن ما يدفع إلى تجنب علامات الأمراض المعدية، وهو ما يُسمَّى بـ"القرف" وهو نظام نفسي تطوري يحمي الكائنات الحية من العدوى من خلال سلوك تجنب الأمراض.

مع ذلك، هُجِّرت المستوطنات الضخمة في تريبيليا بحلول عام 3000 قبل الميلاد. فهل كانت ناقلات الأمراض الجديدة أكبر مما تستطيع هذه المدن القديمة استيعابه؟ وكما حدث في تشاتال هويوك قبل ذلك، تفرَّق الناس إلى مستوطنات أصغر. ويتكهن بعض علماء الوراثة بأن مستوطنات تريبيليا هُجرت بسبب أصول الطاعون في المنطقة آنذاك، كما جاء في مجلة "سيل" (Cell) في 10 يناير 2019م.

مدن ما بين النهرين وغيرها

ليس من المعلوم حاليًا، إن كانت هذه الخبرات الغنية بالمعلومات قد وصلت إلى مناطق أخرى، لكن المدن التي ظهرت إلى الشرق والجنوب بعد ذلك كان تصميمها مختلفًا. فقد نشأت أولى المدن في بلاد ما بين النهرين حوالي عام 3500 قبل الميلاد، وسرعان ما تطورت مدن أخرى في مصر ووادي السند والصين وفي الحضارة المينوية في اليونان. وكانت هذه المدن التي يبلغ عدد سكانها عشرات الآلاف تعج بالحرفيين المتخصصين في أحياء متباعدة.

هذه المرة، لم يعِش الناس في مراكز المدن جنبًا إلى جنب مع الماشية أو الأغنام، بل كانت المدن بمنزلة مراكز للتجارة الإقليمية. وكانت المواد الغذائية تُستورد إلى المدينة وتُخزن في صوامع حبوب كبيرة مثل تلك الموجودة في عاصمة الحثيين، خاتوشا، التي تقع في مرتفعات الأناضول والتي كانت قادرة على استيعاب ما يكفي من الحبوب لإطعام عشرين ألف شخص مدَّةَ عام. كما جرى تسهيل الصرف الصحي من خلال أعمال المياه العامة، مثل القنوات في مدينة الوركاء على نهر الفرات، أو آبار المياه وحمامٍ عام كبير في مدينة موهينجو دارو على نهر السند.

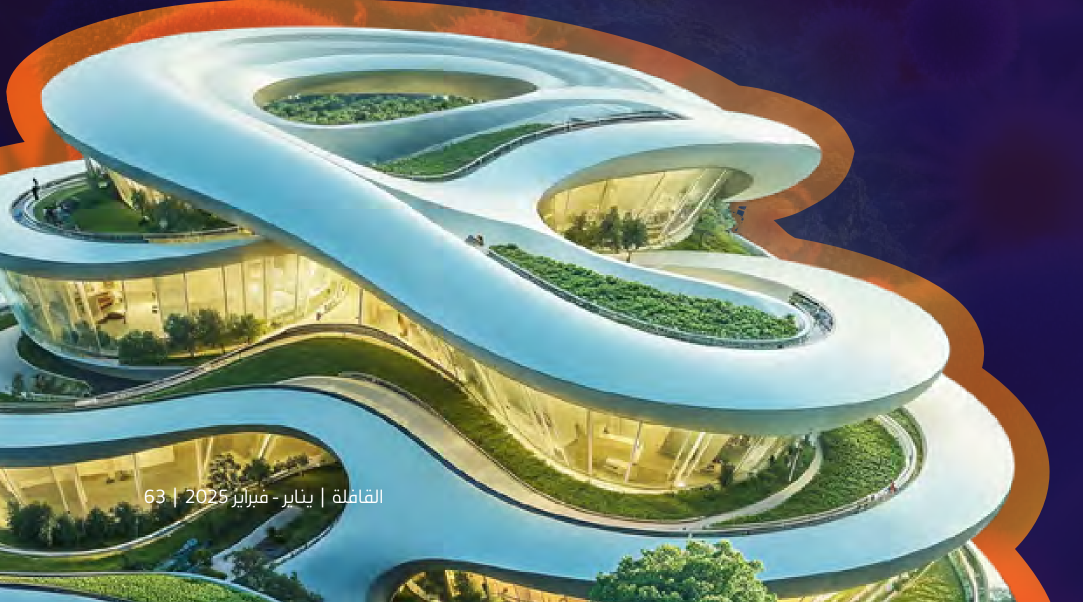
تحاشي انتقال الأمراض، ولو من باب الاشمئزاز فقط، هو ما دفع إلى تطوير التخطيط الحضري وفصل المساكن بعضها عن بعض منذ الألف الرابع قبل الميلاد.

التخطيط العمراني

يعدُّ بعض علماء الآثار أن التخطيط العمراني المتعمد لدرء أخطار الأمراض، قد بدأ في هذه المدن الأخيرة، وتطوَّر إلى حقل علمي في القرن التاسع عشر، وصولًا إلى المدن الجديدة الحديثة.

ومع الفهم الحديث للميكروبيوم وأهميته في تعزيز الصحة العامة ومكافحة الجوائح، بدأ الاهتمام يتزايد لتشكيل هذه المجتمعات الميكروبية بطرق تعزز المناعة عن طريق تصميم الأبنية. ومع ذلك، فإن تقاطع هذا المجال مع الهندسة المعمارية الحديثة لا يزال محدودًا؛ نظرًا لحداثة أبحاث الميكروبيوم. وحتى ذلك الحين، يُمكن القيام بخطوات عديدة، مثل استخدام مواد طبيعية كالخشب، الذي يمكن أن يؤوي ميكروبات مفيدة، أو من خلال تصميم أنظمة تهوية تعزز التنوع الميكروبي.

ومن الممكن أن تتضمن المباني جدرانًا حية تضم نباتات وميكروبات متنوعة. كما يمكن للنباتات الداخلية أن تُسهم في توفير بيئة ميكروبية أكثر صحة. فالنباتات لا تعمل على تنقية الهواء فحسب، بل تعمل أيضًا على تنمية مجتمعات ميكروبية متنوعة داخل المنزل، أو استخدام مواد بناء مملوءة بجراثيم بكتيرية مفيدة يُمكن تنشيطها عند الحاجة. وقد تساعد هذه المواد في تقليل عدد الميكروبات الضارة مع تعريضنا في الوقت نفسه لميكروبات مفيدة بحسب مقالة في مجلة "ميكروبيوم" في عددها 82، 2019م.





وصفة علاج من الطبيعة وإليها

أشجـار المـانغروف

تُعدُّ الحلول المعتمدة على الطبيعة إستراتيجيات مفضَّلة لمواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والبيئيِّة؛ لأنها تعالج جوانب معينة من دون أن تضر بجوانب أخرى. فالعلاقة بين الطبيعة والمجتمع تزداد أهمية مع تأثر الموارد الغذائية والمياه المتاحة والدخل والصحة والاستقرار بشكل متزايد بالتغيُّرات البيئية السلبية الحاصلة. ولهذا السبب، توسَّعت حديثًا الأبحاث العلمية المتعلقة بالحلول المعتمدة على الطبيعة في معالجة الظواهر المناخية المتطرفة وتعزيز وظيفة النظم البيئية، ومن أبرزها تعزيز غابات المانغروف التي تُعدُّ من النظم البيئية الحيوية التي توفر كثيرًا من الفوائد على هذا الصعيد.

فريق القافلة، صهيب الحاج حسين، جوري المعيوف

قبل نحو ألفي عام، أشار عالم الطبيعة الروماني بلينيوس الأكبر (23 - 79م) إلى أشجار المانغروف بقوله: "توجد أشجار ذات طبيعة رائعة على شاطئ البحر الأحمر". وعرفها العرب وكتبوا عنها الكثير، وسمُّوها "القَرْم". ومن المعروف أيضًا أن الطبيب ابن سينا عُرف في المجتمعات الغربية، بجانب شهرته الطبية، لوصفه الشائق لدورة حياة شجرة المانغروف، فسمُّوها علميًا على اسمه (Avecinnia Marina).

ومع ذلك، فإن هذا الاهتمام التاريخي يتناقض مع الإهمال الذي تعرضت له هذه الشجرة في الحضارة المعاصرة. فالتحضر الواسع، ولا سيَّما على الشواطئ حيث تنمو، أدَّى إلى تدهور غاباتها حول العالم. لكن العلم الحديث يحاول من خلال الأبحاث المكثفة حولها إعادة الاعتبار لأهميتها بوصفها عنصرًا رئيسًا في الحلول المعتمدة على الطبيعة لمواجهة الكوارث الناتجة عن التدهور البيئي.

أهمية هذه الشجرة

إن قدرة أشجار المانغروف الفريدة على التكيُّف تمكّنها من العيش والازدهار في البيئات الساحلية والمياه المالحة، وتوفر موئلًا مهمًا لأنواع برية وبحرية أخرى. وتشكِّل في الوقت نفسه حواجزَ طبيعية ضد العواصف وتآكل التربة وارتفاع مستوى مياه البحار وحتى موجات التسونامي. وهي توفر موائل حيوية لعدد لا يُحصى من الأنواع؛ فبحسب تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة 2023م، فإن 1400 نوع من النبات والحيوان تعتمد على هذه الأشجار.

إضافة إلى ذلك، توفر أشجار المانغروف مجموعة واسعة من الفوائد الحيوية لكل من البيئة ورفاهية الإنسان. إذ تمتص أنظمة جذورها الكثيفة طاقة الأمواج وتقلل من تأثيرها على المجتمعات الساحلية، فتحمي الأرواح والبنية الأساسية وسبل العيش. كما تعمل مثل حاضنات حيوية للحياة البحرية، وتوفر المأوى ومناطق التكاثر للأسماك وسرطانات البحر، وهو ما يعزِّز التنوع البيولوجي ويدعم مصايد الأسماك.

ومن الفوائد المهمة التي تتمتع بها أشجار المانغروف أنها تعدُّ مرشحات طبيعية. فهي تحبس الرواسب والمعادن الثقيلة والملوّثات من جريان المياه على الأرض، وتمنع هذه الملوثات من الوصول إلى الشعاب المرجانية وغيرها من البيئات البحرية الحساسة. ومن خلال عزل ثاني أكسيد الكربون، تؤدي أشجار المانغروف دورًا لا يُستهان به في معالجة تغير المناخ، وهو ما يجعل الحفاظ عليها أمرًا ضروريًا، كما جاء في برنامج الأمم المتحدة للبيئة: تفاصيل حول احتجاز الكربون بواسطة أشجار المانغروف، 2024م. ولمزيد من المعلومات عن خصائص أشجار المانغروف، وأماكن نموها حول العالم وأنواعها المختلفة يمكن مطالعة مقالة "المانغروف"، التي نشرتها "القافلة" في عدد نوفمبر - ديسمبر 2010م.

حماية المجتمعات من الكوارث الطبيعية

تشكِّل أشجار المانغروف، بالنسبة إلى مجتمعات عديدة، خط الدفاع الأول ضد الفيضانات والعواصف. إذ يمكن للموجة التي تمر على بعد 100 متر فقط من غابة المانغروف أن تفقد ثلثي طاقتها، كما تقول منظمة "التحالف الدولي للمانغروف" 2021م. في فلوريدا، على سبيل المثال، كانت أشجار المانغروف حجر الأساس للتخفيف من الكوارث. وبحسب تقرير "منظمة الحفاظ على البيئة" عام 2019م، فإن أشجار المانغروف أسهمت في حماية أكثر من نصف مليون شخص خلال إعصار "إيرما" في عام 2017م.

كما خلُصت دراسة واسعة أجرتها جامعة كمبريدج مع بعض منظمات البيئة إلى: "أن الدور الذي تؤديه أشجار المانغروف في حماية سواحلنا من المخاطر الطبيعية، مثل العواصف وأمواج التسونامي وتآكل السواحل، مُعترفٌ به على نطاق واسع". كما ذكرت مقالة "القافلة"، المشار إليها آنفًا، أن أبحاثًا عديدة استنتجت أن أشجار المانغروف تستوعب بين 70% و90% من قوة أمواج تسونامي. فعند حدوث التسونامي الكبير في شرق آسيا عام 2004م، "لقي شخصان فقط حتفهما في قرية كابوهينوالا في سريلانكا، التي يحيط بها 200 هكتار من غابات المانغروف الكثيفة، في حين أن قرية أخرى اسمها واندوروبا، ومحاطة بغابات مانغروف متدهورة، عانت خسائر كبيرة قدّرت بما يُراوح بين 5,000 و6,000 حالة وفاة".

تشكِّل غابات المانغروف حواجزَ طبيعية ضد العواصف وتآكل التربة وارتفاع مستوى مياه البحار وحتى موجات التسونامي. وتوفر موائل لنحو 1400 نوع من النبات والحيوان.



فوائدها الاقتصادية للمجتمعات المحلية

بالنسبة إلى 1.5 مليار شخص، تعدُّ الأسماك المصدر الأهم للبروتين. وفي البلدان ذات الدخل المنخفض التي تعاني عجزًا غذائيًا، يأتي نحو 20% من متوسط تناول البروتين الحيواني من الأسماك. ومن هذه الناحية، يؤدي اختفاء أشجار المانغروف إلى عواقب وخيمة على مصايد الأسماك في البلدان النامية. وعلى العكس من ذلك، فإن استعادة هذه الأشجار من شأنها أن تضيف إلى المياه الساحلية كل عام 60 تريليون سمكة ولافقاريات صغيرة صالحة للأكل وذات قيمة تجارية، مما يوفر دفعًا كبيرًا للأمن الغذائي، وفقًا لما ذكره برنامج الأمم المتحدة للبيئة في مقالة نُشرت في 25 يوليو 2023م.

في شرق آسيا، حيث توجد النسبة الكبرى من غابات المانغروف، تعتمد المجتمعات المحلية مباشرة على هذه الغابات. فعلى سبيل المثال، في منطقة أياروادي في ميانمار، توفر المنتجات التي تُجمع من غابات المانغروف مثل: الحطب والأسماك وسرطانات البحر والجمبري، 43% من إجمالي دخل كل أسرة. وفي كمبوديا تستمد المجتمعات المعتمدة على غابات المانغروف، مثل مجتمع صيد الأسماك "بيم كراسوب"، نحو 90% من الأسماك و85% من إجمالي دخلها من الأنواع المرتبطة بالمانغروف. بينما في منطقة سونداربانز الهندية، يعتمد أكثر من 21% من الأسر كليًا على المانغروف في معيشتهم، وحوالي 46% على نصف دخلهم من الغابة، كما جاء في دراسة نشرها موقع "ريسرش غيت" (Research Gate) في ديسمبر 2023م.

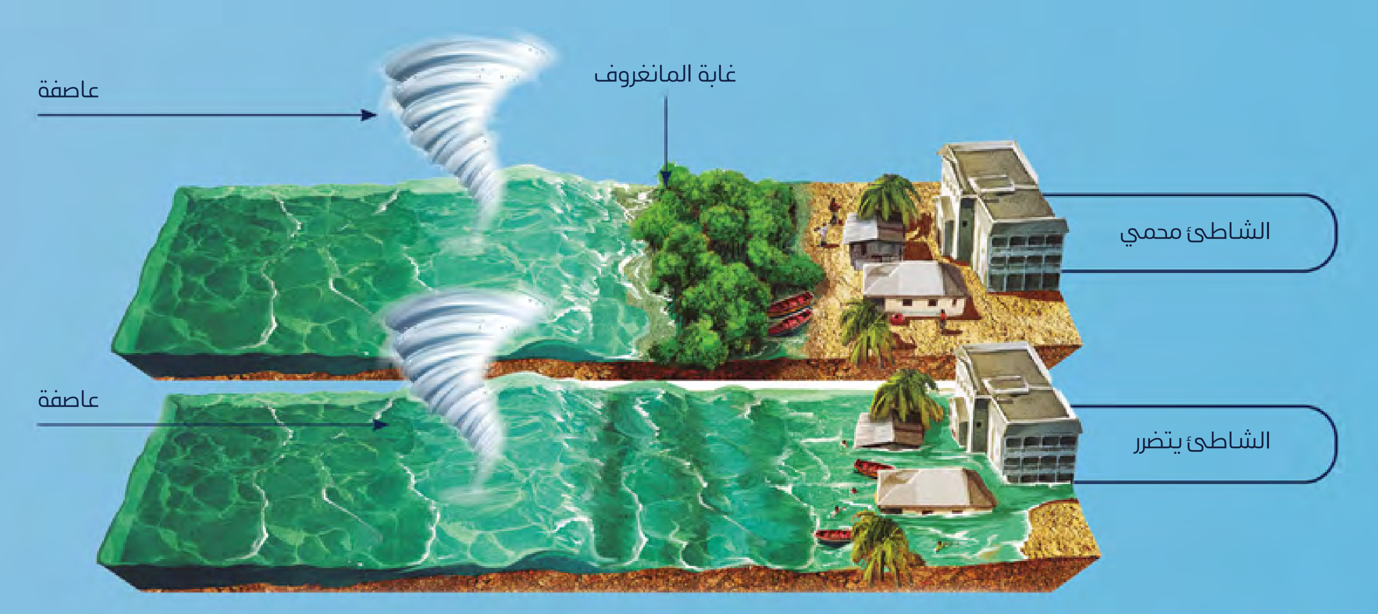
تدهور غابات واختفاء ثقافات

وعلى الرغم من كل تلك الفوائد، أعلن الاتحاد الدولي لصون الطبيعة ومواردها في تقييمه الأخير في مايو 2024م: "أن 50% من النظم البيئية للمانغروف التي خضعت للتقييم معرضة لخطر الانهيار". فالتهديدات من التوسع الحضري مستمرة، وتتطلب جهودًا عاجلة للحفاظ على هذه الشجرة. فحماية أشجار المانغروف واستعادة حيويتها أمرٌ ضروري ليس فقط للتنوع البيولوجي، ولكن أيضًا لسبل عيش تلك المجتمعات التي تعتمد على هذه النظم البيئية. ومن المؤسف أن تكون المنطقة التي تحتوي على أكبر غابات المانغروف، والتي توفر فوائد متنوعة لمختلف المجتمعات الساحلية في جنوب شرق آسيا، هي التي تظهر أعلى معدلات فقدانها على مستوى العالم.

وعلى الرغم من وجود كثير من المجتمعات الساحلية جنبًا إلى جنب مع نظام غابات المانغروف البيئي منذ فترة طويلة، فإن الدراسات التي تستكشف قيمتها بوصفها موطنًا "بيوثقافيًا" لا تزال مفقودة. والموطن البيوثقافي، مثل غابات المانغروف، هو المكان الذي لا يؤوي الأنواع فحسب، بل يحمل أيضًا المعرفة والخبرات المحلية المميزة حول الإدارة العملية للتنوع البيولوجي وخدمات النظام البيئي والزراعة وما يخلفه أثر الإنسان على الطبيعة. واستمرار تدهور غابات المانغروف في جنوب شرق آسيا، قد يؤدي أيضًا إلى خسارة محتملة لأنظمة المعرفة المختلفة، واختفاء الثقافات الإثنية. وقد أصبحت هذه المشكلة العالمية واضحة، وبدأ العلماء التحذير من التهديدات التي تتعرض لها أنظمة المعرفة الأصلية كما جاء في المصدر السابق.

اقرأ القافلة: المانغروف، من العدد نوفمبر-ديسمبر 2010م.

أشجار المانغروف تحمي المناطق الساحلية أثناء العواصف



كيف تجد بذور المانغروف طريقها إلى الساحل؟



المملكة وتجديد غابات المانغروف

لهذه الأسباب جميعها أولت المملكة العربية السعودية، ومراكز الأبحاث في جامعات المملكة وخارجها، أهمية خاصة لمواجهة خطر تدهور غابات المانغروف. ففي سياق إستراتيجية المملكة للتنمية المستدامة، ومن ضمنها "مبادرة السعودية الخضراء"، يأتي التركيز على أشجار المانغروف في الوقت المناسب. إذ تدرك المملكة أهمية أنظمتها البيئية الساحلية، كما تدرك أن حماية هذه الأشجار لا تعزِّز التنوع البيولوجي فحسب، بل تعزِّز أيضًا قدرة المجتمع على الصمود في مواجهة تأثيرات المناخ. ويتماشى هذا النهج مع الأولويات الوطنية وأهداف الاستدامة العالمية، مما يُظهر الالتزام بمستقبل أكثر خضرة ومرونة، كما جاء في رؤية المملكة 2030.

ويبرز في هذا السياق إسهام أرامكو السعودية في تعزيز هذه الغابات، حيث استثمرت الشركة في حلول المناخ الطبيعية للتعويض عن الانبعاثات الكربونية إلى جانب أهداف عديدة أخرى. وبنهاية عام 2024م، يكون عدد إجمالي أشجار المانغروف التي زرعتها الشركة قد بلغ أكثر من 40 مليون شجرة على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي، في إطار الهدف المرحلي الذي وضعته الشركة لزراعة 300 مليون شجرة مانغروف في المملكة بحلول 2035م.

كما صمَّمت الشركة متنزه المانغروف البيئي في رأس تنورة المخصص لتثقيف المجتمع المحلي، من تلاميذ المدارس إلى العائلات والسياح الزائرين، حول أشجار المانغروف وفوائدها البيئية والاقتصادية، حيث بُني ممشى خشبي يمكّن الزوار من التجوُّل ومشاهدة غابة المانغروف عن قُرب.

الجامعات ومراكز الأبحاث السعودية

وأسهمت الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية السعودية في الجهد العالمي لتعزيز أشجار المانغروف من خلال عشرات الأبحاث والدراسات العينية، التي نُشرت في المجلات العلمية العالمية المرموقة، والمشاركة في تنفيذ كثير من المشاريع المتعلقة بتعزيز غابات المانغروف في المملكة. وتجدر الإشارة هنا إلى دراسة مهمة أجراها باحثون من جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية "كاوست"، مع آخرين من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في عام 2020م، حول العلاقة بين أشجار المانغروف وارتفاع مستوى مياه البحار الخطير الذي يهدد مئات ملايين البشر حول العالم بالنزوح. ووجدت الدراسة أن معدلات ترسُّب التربة حول جذوع المانغروف وجذورها على الشواطئ تفوق معدلات ارتفاع مياه البحار على المدى القصير. هذا إذا لم يكن هناك نشاط بشري معاكس.

توضح هذه النتائج بجلاء أن كثيرًا من المشكلات البيئية التي تعانيها الكرة الأرضية قابل للحل بواسطة الحلول المعتمدة على الطبيعة، ومن بينها الاعتناء بأشجار المانغروف.



السفر قد يُبطئ الشيخوخة

نشر باحثون من جامعة إديث كوان في أستراليا دراسةً في سبتمبر 2024م، وجدت أن السفر قد يكون إحدى أفضل الوسائل لإبطاء الشيخوخة. وطبَّق الباحثون نظرية الإنتروبيا في الفيزياء على الأنشطة النموذجية المرتبطة بالسفر، فاكتشفوا مجموعة كبيرة من الفوائد الصحية المهمة.

الإنتروبيا هي ميل عالمي للأنظمة نحو الفوضى. ويُستخدم هذا المصطلح على نطاق واسع في الفيزياء. ولكن له أيضًا تطبيقًا في علم الأحياء، حيث يصف ميل الأنظمة البيولوجية إلى الانتقال من حالة شبابية منخفضة الإنتروبيا إلى حالة عالية الإنتروبيا. ولمزيد من المعلومات عن الإنتروبيا انظر مقالة "القافلة" "الإنتروبيا وثورة المعلومات" مارس - أبريل 2019م.

تقول السيدة فانجلي هو، من جامعة إيست كوانتان: "الشيخوخة بوصفها عملية، لا رجعة فيها. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إيقافها، فإنه يمكن إبطاؤها". ويمكن للسفر أن يعطل معدل الإنتروبيا النموذجي، حيث يمكن للتجارب الإيجابية أن تخفف الإنتروبيا وتحسِّن الصحة. في حين يُمكن للتجارب السلبية أن تزيدها، وهو ما يعرض الصحة للخطر في هذه العملية.

إن التعرُّض لبيئات جديدة والانخراط في أنشطة مريحة يمكن أن يؤدي إلى تحفيز استجابة الجسم للتوتر وزيادة معدل الأيض، أو عملية تحويل الغذاء إلى طاقة، وتحسين قدرة الجسم على التنظيم الذاتي.

ويتضمن السفر أيضًا الوقت الذي يمارس فيه الأشخاص أنشطة بدنية معتدلة، مثل المشي والتنزه وركوب الدراجات والتسلق، التي ثبت أنها تعمل على تحسين الصحة البدنية والعقلية. كما يسمح السفر بمقابلة أشخاص جدد وتسهيل التفاعل الاجتماعي، وهو أمر ضروري للصحة العقلية.

من ناحية أخرى، قد يُعرِّض السفر الأفراد أيضًا لتهديدات مختلفة مثل الأمراض والحوادث والعنف، وكلها عوامل تزيد من الإنتروبيا. ولذا، يُنصح السيَّاح دائمًا بالحذر والبحث الأولي عن الأمكنة والمجتمعات الهادئة والآمنة.

التصوير الطبي أدق من أي وقت مضى

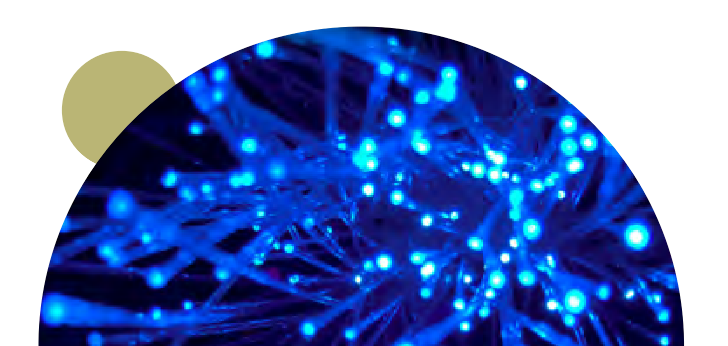
نجح باحثون من كلية لندن الجامعية في اختراع واختبار ماسح ضوئي محمول جديد، وقادر على توليد صور ضوئية ثلاثية الأبعاد عالية الدقة، وهو ما يسهل اكتشاف العلامات المبكرة للأمراض.

التصوير الضوئي الصوتي المقطعي ليس بالأمر الجديد، وهو يعمل بإطلاق نبضات ليزر قصيرة جدًا على الأنسجة البيولوجية المعينة، فتمتص هذه الأنسجة جزءًا من هذه الطاقة، وفق لون الهدف، فيتسبب في زيادة طفيفة في الحرارة والضغط. وهذا ما يؤدي بدوره إلى توليد موجة فوق صوتية خافتة تحتوي على معلومات حول هذه الأنسجة. وتجري العملية برمَّتها في جزء من الثانية فقط.

وما يميز الماسح الضوئي الجديد عن الأجيال السابقة هو السرعة العالية التي يحدث بها توليد الصور. فبفضله أصبحت جلسات التصوير تستغرق بضع ثوانٍ فقط، بعدما كانت تستغرق ساعة في السابق. وبالنسبة إلى المرضى المسنين والضعفاء، يمثل هذا تحسنًا مذهلًا في خدمة الرعاية الطبية. كما تعمل السرعة العالية على تعزيز وضوح الصورة، وهو ما يسمح بتصوير العمليات الديناميكية التي تحدث في الوقت الفعلي في الجسم. ويمكن لهذه العمليات التي لم نشهدها من قبل أن تساعد في دراسة الأمراض بشكل أدق.

اختبر باحثو الكلية هذا الجهاز على مرضى مصابين بالسكري والتهاب المفاصل الروماتويدي وسرطان الثدي. وفي حالة مرضى السكري، تمكن الباحثون من اكتشاف العلامات المبكرة للتلف في الأوعية الدموية الصغيرة في أرجل المرضى، وهو ما يساعد في تفادي البتر إذا خضع المرضى لعلاج هذه العلامات مبكرًا.

ويمكن أن يكون هذا الماسح الضوئي ضروريًا أيضًا في تشخيص السرطان. فغالبًا ما تحتوي الأورام على كثافة عالية من الأوعية الدموية الصغيرة التي تكون صغيرة جدًا، بحيث لا يمكن رؤيتها باستخدام تقنيات التصوير الأخرى. وقال الباحث في كلية لندن الجامعية، والمشارك في اختراع الماسح الضوئي، الدكتور نام هوينه، إن الجراحين سيكونون الآن قادرين بشكل أفضل على إزالة الورم تمامًا، وهو ما يقلل من خطر تكرار ظهوره.





"ليلة النجوم" مليئة بالفيزياء الواقعية

تُخفي لوحة "النجوم"، وهي تحفة أعمال فينسنت فان جوخ، رؤية علمية لم تُكتشف منذ أن وضع الرسَّام الهولندي فرشاته على القماش في عام 1889م، وحتى وقت قريب. إذ إنها تثير الآن اهتمام العلماء وليس نقاد الفن فقط.

تُمثِّل "ليلة النجوم" بدقةٍ قانون ميكانيكا السوائل، الذي صاغه، أوَّل مرة، أندريه كولموغوروف بعد 52 عامًا فقط من انتهاء العمل على اللوحة. ووفقًا لتقرير مجلة علمية (Hyperallergic) نُشر في أكتوبر 2024م، اكتشف هذا الارتباط بين اللوحة والقانون باحثون من الصين وفرنسا متخصصون في ديناميكيات السوائل؛ أحدهما فني، والآخر علمي، ونُشرت دراستهم في مجلة "فيزياء الموائع" (Physics of Fluids) بواسطة المعهد الأمريكي للفيزياء.

تُجسِّد حركة الهواء في اللوحة فنيًا الدوامات البيضاء والصفراء للرياح على الخلفية الزرقاء الداكنة للسماء الليلية. وتحتوي "ليلة النجوم" على 14 دوامة، وقد حلَّل العلماء كل واحدة منها بعناية، وقاسوا طول كل ضربة فرشاة والمسافة بين ضربات الفرشاة المجاورة وكذلك سطوعها. ثم استخدموا سطوع الألوان للاستدلال على الطاقة الحركية التي تحملها كل دوامة.

ما وجدوه هو أن تصوير "فان جوخ" لحركة الهواء المضطربة يتبع تمامًا قانون كولموغوروف 5-/3 (ناقص خمسة على ثلاثة)، الذي ينص على أن الطاقة داخل النظام المضطرب تتحرك في شلالات، فينتقل جزء من الطاقة من الدوامات الأكبر إلى الدوامات الأصغر، ومن تلك الدوامات إلى دوامات أصغر، وهكذا.

إضافة إلى ذلك، تتبع "ليلة النجوم" أيضًا قانون باتشيلور، الذي جرى اشتقاقه من نتائج كولموغوروف بعد 18 عامًا من نشر البحث الأصلي، و70 عامًا من تاريخ اللوحة. وينص قانون باتشيلور على أن عدد الدوامات الكبرى نسبة إلى عدد الدوامات الأصغر وتلك إلى الدوامات الأصغر منها، يلتزم دائمًا بنسب محددة.

ونُقل عن يونغ شيانغ هوانغ، المؤلف المشارك للدراسة، قوله في مقال في مجلة "ساينس ديلي"، في سبتمبر 2024م: "إنها تكشف عن فهم عميق وبدهي للظواهر الطبيعية". فقد تمكن "فان جوخ" من أن يلتقط في قطعة فنية ما صاغه العلماء لاحقًا في الرياضيات.



مايكل عطية

يُعدُّ السير مايكل عطية من أهم الأسماء في مجال الرياضيات في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد حظي بتقدير كبير من خلال الجوائز العديدة التي نالها، ومنها: جائزة آبل، وميدالية فيلدز، ولقب فارس الحَدَث الذي هو جزء من منظومة الشرف البريطاني، كما حاز جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم.

وُلِد مايكل في هامستيد في لندن، 22 أبريل 1929م، لأمٍ إسكتلندية وأب لبناني تعلَّم منه اللغة العربية بوصفها لغة أولى. كان والده إدوارد عطية المولود في بينو في شمال لبنان مؤلفًا وموظفًا، وشغل منصبًا حكوميًا في السودان عندما كان خاضعًا للسيطرة البريطانية، وكان هذا هو المكان الذي قضى فيه مايكل بعض سنوات طفولته. ثم التحق بكلية فيكتوريا المرموقة، حيث ترقّى خلال عامين بسبب أدائه الرياضي الاستثنائي.

تلقى مايكل خمسة عروض لمنحة دراسية، واستقر في كلية ترينيتي بجامعة كامبريدج؛ لأنها قدمت أفضل منهج رياضي. وأظهر في دراسته تفضيلًا واضحًا للهندسة، وحصل على الدكتوراة في عام 1955م تحت إشراف السير وليام فالانس دوغلاس هودج.

خلال حياته المهنية، ألقى محاضرات في كامبريدج وبرينستون وأكسفورد، وأُثني عليه لإلقائه النشط وصوته القوي، لكن دعوته الحقيقية كانت البحث. فبناءً على عمله السابق مع عالم الرياضيات الألماني فريدريش هيرزبروخ، وضع ما يُعرف بـ"نظرية K" في الرياضيات. وأمضى هو وعالم الرياضيات الأمريكي إيزادور سينجر 20 عامًا في تطوير نظرية "مؤشر عطية - سينجر" التي تُستخدم على نطاق واسع في الهندسة والطوبولوجيا، وهو أهم عمل في حياتهما المهنية، نالا من خلاله جائزة آبل في عام 2004م.

وجدت أعمال عديدة لمايكل عطية تطبيقًا في الفيزياء، وعلَّم هو نفسه علماء فيزياء من المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، مثل الحاصل على ميدالية فيلدز إدوارد ويتن، حيث أوضح لهم المفاهيم الرياضية التي يمكن أن تكون مفيدة في أبحاثهم.

لم يضعف شغفه بالرياضيات قطُّ. فحتى بعد التقاعد، استمر في إلقاء محاضرات منتظمة في الجامعات حول العالم، واستمر في البحث حتى وفاته في 11 يناير 2019م.

مجهر

الهواتف الذكية أخطر على الأطفال مما كان يُظن

د. محمد سناجلة
مؤسس اتحاد كتاب الإنترنت العرب

في كتابه الجديد "الجيل القلق" (2024م)، يدعو عالم النفس الاجتماعي، جوناثان هايدت، إلى ثورة في كيفية تعامل الآباء مع الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي بالنسبة إلى أبنائهم وأطفالهم. وبعبارة بسيطة، يكتب هايدت أنه ينبغي للأطفال أن يحظوا بقدر ضئيل من الوصول إلى أي منهما، أو لا ينبغي أن يحصلوا عليه على الإطلاق، حتى يبلغوا السادسة عشرة من العمر.

والسبب وراء دعوة هايدت هذه أن الدراسات والأبحاث العلمية تشير إلى أن كثيرًا من الأطفال والمراهقين يعانون بالفعل الاكتئاب والقلق والتوحُّد بسبب الهواتف الذكية ومنصات التواصل الاجتماعي.

وفي تقرير صدر خلال العام الماضي، أعربت "الجمعية الأمريكية لعلم النفس" عن قلقها من الهواتف الذكية ومنصات التواصل الاجتماعي، بسبب تصميماتها "غير الآمنة بطبيعتها للأطفال". ويقول التقرير "إن الأطفال لا يتمتعون بالخبرة والحكمة وضبط النفس لإدارة أنفسهم على هذه المنصات". وتقول الجمعية إن العبء لا ينبغي أن يقع بالكامل على عاتق الآباء أو متاجر التطبيقات أو الشباب، بل يجب أن يقع على عاتق مطوّري المنصة.

ولكن، ربّما لا يستطيع الآباء الاعتماد على المطوّرين، وهذا ما يقودنا إلى الاستنتاج المذهل الذي توصل إليه هايدت: "نحن عند نقطة تحوُّل كمجتمع، وإذا لم يتخذ الكبار القرار، فإنهم قد يعرضون الصحة العقلية لجميع الأطفال للخطر إلى أجل غير مُسمًّى".

من اضطراب النوم إلى الصحة العقلية

ويشير مركز كونواي الطبي الأمريكي إلى أن هناك آثارًا صحية وعقلية كثيرة للهواتف الذكية على صحة الأطفال ونموهم السليم، ومن أبرزها: اضطراب النوم، وانخفاض النشاط البدني، والعزلة الاجتماعية، والتنمر الإلكتروني، وتضرر العقلية.

وفي هذا السياق، أظهرت الأبحاث الصادرة عن الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال (2023م) أن استخدام الهواتف الذكية قبل النوم يمكن أن يُعطّل أنماط النوم لدى الأطفال. إذ يتداخل الضوء الأزرق المنبعث من الشاشات مع إنتاج الميلاتونين، وهو الهرمون المسؤول عن تنظيم النوم. وعندما لا يحصل الأطفال على قسط كافٍ من النوم، فإنهم يصبحون أكثر تقلبًا في المزاج، ويصبح التركيز أصعب، ويؤثر ذلك في أدائهم في المدرسة. كما يؤدي الالتصاق بالشاشات إلى نمط حياة خامل. ويرتبط هذا الافتقار إلى النشاط البدني بزيادة خطر الإصابة بالسمنة والمشكلات الصحية المرتبطة بها، ويتسبب في آلام في الكتفين والظهر والرقبة.

ثم إن الإفراط في استخدام الشاشات يُعيق التفاعلات الاجتماعية وجهًا لوجه، التي تعدُّ ضرورية لتنمية مهارات التواصل والتفاعل الشخصي. وهذا ما قد يدفع الطفل إلى اختيار عزل نفسه عن الأصدقاء والعائلة، وهو ما يُضعف مهاراته الاجتماعية.

وأكدت أبحاث الأكاديمية، المذكورة آنفًا، أن انتشار وسائل التواصل الاجتماعي يؤدي إلى تعريض الأطفال لخطر التنمر الإلكتروني، وهو ما يُسهم في الإصابة بالقلق والاكتئاب وانخفاض احترام الذات.

وفيما يتعلق بصحة الشباب، توصلت دراسة أجرتها شركة "سابين لابز" (Sapien Labs) في 15 مايو 2023م، إلى أنهم يعانون نتائج أسوأ فيما يتعلق بالصحة العقلية كلما حصلوا على هاتف ذكي في وقت مبكر من طفولتهم.

ويُوصي المتخصص بطب الأطفال والحاصل على عدة جوائز طبية عالمية، الدكتور محمد عطا رحال، بعدم استخدام الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عامين لهذه الأجهزة. أمَّا الأطفال الأكبر، فيُستحسن ألا يتجاوز وقت استخدامهم للهواتف والأجهزة الإلكترونية ساعة كل يوم. وينصح باعتماد ما يعرف بقاعدة "20-20-20"، ويشرح ذلك بالقول: "كل 20 دقيقة، توقف مدة 20 ثانية، وانظر إلى مسافة 20 قدمًا".

واقع الحال في المملكة

وأشارت إحصائية أجرتها شركة "نورتون" الأمريكية المتخصصة، عن انتشار الهواتف الذكية بين الأطفال في عدة دول أوروبية وشرق أوسطية من بينها المملكة، إلى أن الطفل السعودي هو من بين الأصغر سنًّا ممن يحصلون على هاتف ذكي، كما جاء في موقع "عالم التقنية" (نوفمبر 2018م).

كما جاء في إحصائية حديثة أوردها "منتدى الأسرة السعودية" في جلسة عقدها في الرياض في 14 ديسمبر 2024م، أن الطفل السعودي يستخدم الهاتف الذكي بمعدل 4 ساعات يوميًا، بينما يستخدم 91% من الأسر الهاتف الذكي، وهو ما جعل الأهل يشعرون بالعزلة أحيانًا. ودعا إلى رفع الوعي لدى المجتمع، ومؤسسات الدولة بأهمية استدراك آثار التقنية على الأسرة، وآليات استثمارها بما يخدم وحدة الأسرة ودورها الأساسي في التنمية.

صحيح أن طفولتنا تشكّلت في الشوارع والملاعب والحارات ونحن نلعب مع أقراننا، ونمَونا وكبرنا بشكل طبيعي بعيدًا عن الإنترنت والهواتف الذكية، ولكن الزمن لن يعود للخلف. فنحن نعيش الآن في زمن الثورة الصناعية الرابعة، وأصبحت الهواتف الذكية جزءًا أساسيًا من واقعنا كبارًا وصغارًا. غير أنه لا يمكننا أن نغامر بمستقبل أطفالنا الذي هو مستقبل الأمة والعالم. ولهذا، علينا أن نضع حدودًا، ومن أهم الحدود عدم منح الهواتف الذكية لأطفالنا قبل سن الرابعة عشرة على أقل تقدير، كما يوصي كثير من الدراسات ذكرها موقع (.Research com) في 14 أكتوبر 2024م. وكما فعل بيل غيتس، الذي لم يسمح لأطفاله بامتلاك هاتف ذكي قبل بلوغهم سن الرابعة عشرة، وتحديد ساعات معينة لهم للعب بهواتفهم، ومراقبة ما يفعلونه بهذه الهواتف، وإلا فإننا سنجد أنفسنا قد فقدنا السيطرة لا على أطفالنا فحسب، بل على مستقبلنا كله.

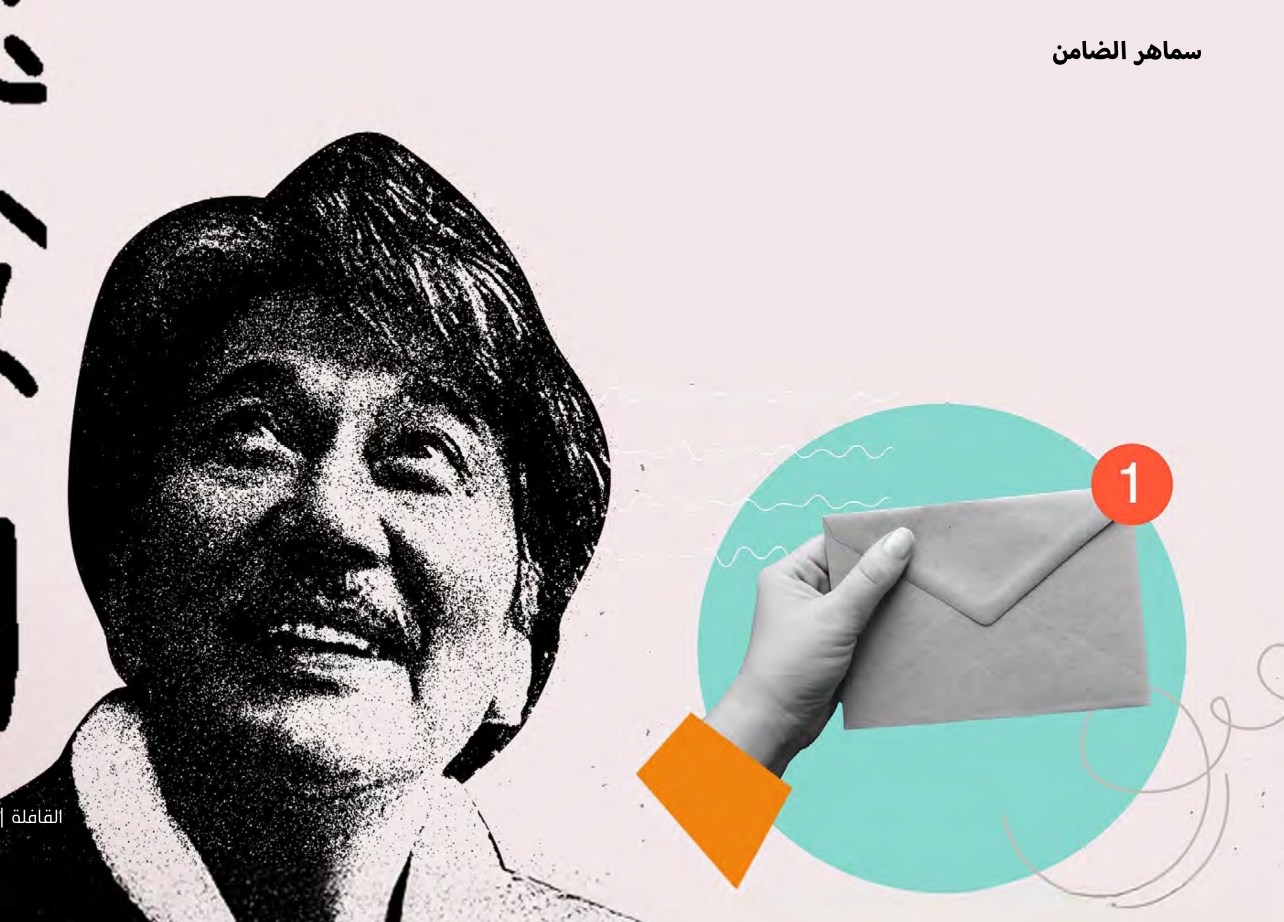


روتين الصباح

بين "الأيام المثالية" والواقع

"أيام مثالية" هو عنوان الفيلم الأخير للمخرج الألماني فيم فندرز، الذي يعرض بهدوء وكلام قليل تفاصيل حياة الشخصية الرئيسة، الياباني هيراياما، بخاصة روتينه الصباحي وما يليه. وهذا ما يدفع المشاهد إلى الالتفات صوب روتينه الصباحي الخاص، وإلقاء نظرة مدققة عليه، ويمكن أن تكون ناقدة، نظرًا لما للخطوات الروتينية الأولى التي نبدأ بها يومنا من تأثير في تسيير أمور حياتنا اليومية.

سماهر الضامن





من المرات القليلة التي تحتفي فيها السينما بالصباح وروتينه ما نراه في فيلم "أيام مثالية"، الذي يحافظ بطله "هيراياما" على روتين صباحي هادئ، متكرر بشكل طبيعي وعضوي حتى في طريقة استيقاظه من النوم. فهو يستيقظ قبل شروق الشمس عند سماعه لصوت مكنسة رجل عجوز يُنظِّف الشارع المقابل لنافذة غرفته في الوقت نفسه كل يوم؛ صوت ناعم يمشِّط خصلات الطريق ويزيح أوراق الشجر بحنو. ربَّما يفكِّر البعض خلال هذه المشاهد في أصوات المنبهات التي تُعلن على رؤوسنا بدء المعركة اليومية حين نستيقظ على رنينها أو زعيقها، بحسب النغمة المختارة لرنين المنبه؛ لنتأهب بالفزع ونتجيش بطاقة الانزعاج منذ لحظة اليوم الأولى، تلك اللحظة التي نشعر فيها أننا انتُزعنا من هنيء نومنا وأحلامنا، فنودُّ لو نضيف عليها عشر دقائق أخرى، ثم عشرًا أخرى إلى ما لا نهاية.

لحظة الاستيقاظ هي اللحظة التي يتصارع فيها العقل والجسد، والواجبات، وقائمة المهمات، والوظيفة. فكم يا تُرى عدد مَن يستطيعون الاعتماد على تنبيه الساعة البيولوجية في الاستيقاظ، أو حتى صياح الديك أو تغريد العصافير، بعد أن أصبحت البصمة إلزامية في أكثر المؤسسات والشركات؟ ثم كم يا تُرى عدد الذين لم يُدمنوا عادة تفقد الرسائل النصية والإيميلات ومحتوى تطبيقات التواصل الاجتماعي في أول لحظات الصباح، ونحن بين النوم واليقظة، طالما أن أجهزة الجوال هي أول ما نمسك به لإسكات المنبه أو لمعرفة الوقت بعد اختفاء الساعات من الجدران!

على النقيض من هذا الصداع الصباحي، الذي أصبح أمرًا اعتياديًا لكثير من البشر، يُبرز الفيلم حالة رومانسية للروتين الصباحي لـ"هيراياما" ونعومة بدايات أيامه. فحالما ينهض يطوي فراشه بتلقائية، ويمارس طقوس العناية الشخصية بترتيب متكرر لا يتبدل، ويعتني بنباتاته المنزلية، ثم يستعد للعمل ويلتقط المفاتيح والمحفظة المصفوفة بعناية على رف صغير بجوار الباب. يخرج ويتنفس هواء الصباح الغزير، يشتري مشروبًا من آلة البيع المجاورة، ثم يقود السيارة إلى موقع العمل وهو يستمع من مشغِّل الكاسيت لأغانٍ من روائع الستينيات والسبعينيات أثناء المرور بالشوارع نفسها. ينظر هيراياما في طريقه إلى الأبراج والمباني نفسها في مدينة طوكيو، ثم يقوم بعمله اليومي (تنظيف المراحيض العامة) بحرص وتفانٍ. وفي اليوم التالي يعيد الكرة بالحماس والرضا والنشاط نفسه.

التكرار لضبط الإيقاع

تتكرر مشاهد هذا الروتين الصباحي في الفيلم مرات عديدة، ومع ذلك لا تبدو مُملة بقدر ما تصبح مع التكرار ودودةً أليفةً تحفظها عين المشاهد وتتوقعها ذاكرته. يعيد السيد هيراياما روتينه الصباحي فيبدو عالمه سعيدًا مغمورًا بالهناء، ولا سيَّما حين يستمع للأغاني ذات المزاج النوستالجي مثل "بيت الشمس المشرقة" لفرقة "ذا أنيملز"، أو أغنية "جالس على دكة الخليج" لأوتس ريدينغ.

الرضا الذي لا يفارق ملامح وجه البطل، والحماس البادي في لغة جسده (تحية لقدرات كوجي ياكوشوا التمثيلية العظيمة) يكشف افتتانه بما يقوم به كل صباح وبتكراره للتفاصيل نفسها. ذلك التكرار الغامض للعادات البسيطة، الذي نتصوَّره أحيانا قاتلًا ورتيبًا، يبدو بالنسبة إلى هيراياما مصدرًا للراحة ودافعًا للتجدد والقدرة على الاستمرار. فتثبيت تفاصيل صباحاته البسيطة والحميمة يضبط إيقاعه الهادئ، ويحفظ توازنه، ويحصِّنه من الغرق في العالم الاستهلاكي سريع الإيقاع، الذي يهيم به كل من وما حوله خارج المنزل.

استمرار النظام المعهود مصدر سعادة

يُختتم المشهد النهائي في الفيلم بلقطة مقربة ثابتة على وجه هيراياما، وهو يقود السيارة ويستمع إلى أغنية نينا سيمون: "أشعر بالرضا"، وهي أغنية تحتفي بالفجر وولادة اليوم الجديد بروتينه المستعاد وكائناته من فراشات وأسماك ونسائم تبدأ دورة يومها، وتُختتم الأغنية بعبارة توكيد على الشعور بالأمان لاستمرار الحياة بنظامها المعهود: "إنه فجر جديد، إنه يوم جديد، إنها حياة جديدة لي، وأنا أشعر بالرضا". كلمات الأغنية ولحنها ينعكسان ببراعة على ملامح هيراياما التي تقول كل شيء عن السعي والرضا والسعادة والمعاناة والألم في وجه واحد. تقول سيمون في نهاية الأغنية: "النوم بأمان عندما ينتهي اليوم؛ ذلك ما أعنيه، وهذا العالم القديم هو عالم جديد وعالم جريء بالنسبة إلي، وأنا أشعر بالرضا". ربَّما لم يسبق أن قُرئت هذه الأغنية قراءة إيكولوجية، لكنها ملائمة تمامًا لمثل هذه الغاية. فالشعور بالرضا والسعادة نابع من الحقيقة البسيطة التي لا نتوقف عندها كثيرًا، وهي تجدد الحياة، وولادة الفجر، ومشاركة الكائنات هذه السمفونية الأبدية المتجددة.

الروتين الصباحي النقيض

على أن الروتين ليس حالمًا هكذا على الدوام، ولا يعدُّ بالضرورة فاتنًا أو مسليًا أو مدخلًا مضمونًا إلى دوائر الراحة والاسترخاء والاتصال بالطبيعة. ففي نمط الحياة الاستهلاكي السريع المعاصر، من السهل جدًا أن ترتبك جداولنا ويضطرب نومنا، وتتسرب أوقاتنا وأعمارنا في غفلة أمام ملاحقة فيض المحتوى والتحديثات التقنية والمنتجات المتجددة والاستهلاك والموضة المتغيرة والأشخاص العابرين.

ليس من السهل أن نتدرع بالصرامة، ونتمترس خلف عادة يومية تتطلب الصبر والإعراض عن المُلهيات والمشتتات، وإغلاق التنبيهات، ومقاومة الشعور بأنه يفوتنا الكثير ونحن في معتزل العادة والروتين. الروتين الذي يرفع شعار البطء والتأني والتوقف والتكرار والاستعادة في وجه التسارع والتحديث والمنتج التالي و"الترند" الأخير. من السهل في نمط الحياة هذا أن يسيل الوقت، فلا ينتبه العقل لمروره. ويحتاج العقل، كما يقول أرسطو، إلى أن يشعر بالتغيير ليُدرك أن الوقت يمر ويتغير، فلا يدمج لحظة آنية سابقة بأخرى لاحقة.



تثبيت عادات الصباح البسيطة يضبط إيقاع الحياة الهادئ ويحفظ التوازن، ويحصننا من الغرق في العالم الاستهلاكي سريع الإيقاع، الذي يهيم به كل من وما حولنا خارج المنزل.

الاهتمام الجديد بهذه المسألة

الاهتمام الجديد بالروتين الصباحي، وطقوس المبدعين والمؤثرين والمنجزين فيه، هو مؤشر على محاولة العودة إلى تلك الحالة العضوية من الانسجام مع الطبيعة، أو على الأقل توظيفها والاستفادة منها للوصول إلى أقصى درجات الكفاءة والإنتاجية المتلائمة مع الحياة المعاصرة. ولا أدل على ذلك من شيوع الكلمة في المنصات المتخصصة في التحفيز على نمط العيش الإيجابي. وفي مقاطع أو كتب تطوير الذات، أو جاذبية المحتوى المتعلق بروتين الصباح في حسابات المؤثرين على وسائل التواصل، والخوارزميات التي يمكنها استشراف الغايات والرغبات والاحتياجات بمساعدة البيانات الضخمة؛ ما يفسر تزايد المحتوى الإلكتروني حول روتين الصباح والعادات اليومية التي تُلبي حاجة كثير من البشر للوصول إلى نموذج يوائم بين نمط الحياة المعاصر والنمط العضوي.

تُقدّم بعض المواقع والمنصات نصائح ووصايا ونماذج جيدة، وأحيانًا مثالية، لكيفية قضاء الساعات الأولى من اليوم في أنشطة وعادات مكررة تعزّز الإنتاجية وتساعد على الظهور للحياة بطاقة أكبر ومزاج أفضل. لكن، أَيكون الروتين بهذه الصيغة هو العادة أو الممارسة الحسنة التي نحقق درجة جيدة من الالتزام بها، أم أنه مجرد إدمان متابعة محتوى المؤثرين والانضمام إلى جحافل المستهلكين للمحتوى الترويجي المُصمَّم من دون مراعاة للفروق الشخصية والفردية وأنماط العيش المختلفة للبشر؟ لا يمكن أن ينكر أحد الطابع الحسن لكثير من الممارسات التي تقترحها تلك المنصات أو الأشخاص الذين يعرضون نمط روتينهم على قنواتهم الخاصة. لكن، لماذا تحتاج امرأة تعيش في الريف، مثلًا، روتينًا صباحيًا مكوَّنًا من وحدات زمنية، قد تمتد إلى ساعتين، موزعة بين ممارسات تُراوح بين العناية الشخصية وإعداد وجبة، ثم الرياضة الثقيلة، وبعدها الانتقال إلى قوائم المهام اليومية بعد فترة استرخاء وتأمل أو يوغا؟ فغالبًا سيكون لهذه المرأة روتينها الصباحي العضوي الذي يتماشى مع طبيعة يومها واحتياجاتها ومهامها التي تُنجزها بشكل يومي أو دوري.

الأمر لا يقتصر على رفع الإنتاجية

إن مشكلة وصايا الروتين الصباحي ومقترحاته التي توفرها الوسائط الحديثة، على الرغم من جاذبيتها ووجاهتها أحيانًا، تكمن غالبًا في تركيزها على مفهوم "رفع الإنتاجية"، وهذا من أشنع ما تفعله الاستهلاكية؛ إذ تسعى إلى تسليع الأشياء وإفراغها من قيمتها ومعناها وبعدها غير المادي واختزالها في جانب الإنتاجية وتحقيق المكاسب وتقليل وقت العمل والكدح، والميل إلى السهولة وتبسيط الأشياء وتسطيحها حتى نصبح مستهلكين للروتين من دون ارتباط فعلي بما يعنيه لنا وما يفعله بنا.

هذه ليست نزعة تشاؤمية على كل حال، وليست دعـوة لرفض الوسائل والمقترحات التي يمكن فعلًا أن تُسهم في رفع جودة الحياة والإنتاج، لكنه التحفظ على تحويل الإنسان إلى آلة وُجِدت لتعمل وتنتج من دون وعي أو تفكير فيما تعمل وفيما تنتج، وفي أثره على الذات والكائنات والكون.

هنالك اهتمام متزايد مؤخرًا بعادات المبدعين، ولا سيَّما الكتَّاب، لأن الكتابة ممارسة تتطلب قدرًا كبيرًا من الصبر والالتزام. والواقع أن هذا قدَّم نماذج حسنة، وأعاد التقدير والمجد للروتين الصباحي تحديدًا. فقد تحدَّث كثير من المبدعين عن الروتين الذي يتضمن الاستيقاظ في وقت يومي ثابت، وممارسة الكتابة لساعات في الصباح المبكر وقت برودة الشمس، يسبقها البعض بممارسة الرياضة أو الاستماع إلى الموسيقى. فيندر أن يكون هناك كاتب جاد وملتزم ومنجز، إلا وكان الروتين جزءًا من أسلوب حياته. أمَّا الفلاسفة والمفكرون، فطالما تحدثوا عن ترويض النفس وإلزامها بالعادة الإيجابية المتكررة، وعن قدرتها الساحرة على إمدادهم بالصبر وتدريبهم على الجَلد والالتزام، ومساعدتهم على تصفية الذهن وشحذ القدرات الخاملة.

في مذكراته التي تُرجمت، أخيرًا، عن دار أدب، تحدث الروائي هاروكي موراكامي عن عادة الجري التي رباها على مدى عقود منذ بدأ الكتابة. يتحدث موراكامي عن قيمة وجود تلك العادة في حد ذاتها، وأن وجودها أهم من طبيعتها. ويتحدث عن التحديات في ترويض العقل والجسد، وعن الأوقات التي لا تطاوعه فيها نفسه على النهوض، فيسعى للبحث عن أعذار كي يستسلم للكسل. يذكر مقابلته مع العدّاء الأولمبي توشيهيكو سيكو، التي جرت بعد اعتزال الأخير للجري مباشرة، حين سأله موراكامي هل كان عدّاء في مستواه يشعر بعدم الرغبة في الجري في بعض الأيام؟ فكانت إجابة العداء الصادمة والمحرجة نوعًا ما لموراكامي: "نعم. طوال الوقت!" بنبرة صوت ثابتة. يقول موراكامي إنه تعلم منها أن "الألم حتمي لكن المعاناة اختيار".

إن تبني مشروع حياة طويل الأمد والاستمرار فيه سنوات ليس بالمهمة السهلة، ولا هو بالفلسفة التي توفر نمط عيش جذاب وسريع النتائج، بل إنه نظام صارم كما الطبيعة، يتطلب تدريبًا على تقبل المعاناة من خلال العادات البسيطة والروتين المستمر. وسواء أكان روتيننا الصباحي هو المشي، أم تنظيف المنزل، أم مزاولة الرياضة، فإن تشكيل العادات والصبر على رتابتها يحوِّلها مع الوقت إلى مسكّن طبيعي يؤهلنا للمهمات الكبرى ويساعدنا على التحرُّر من عبء الرتابة والروتين، من خلال تقبل الرتابة والتكرار والحفاظ على بعض تفاصيل الصباح التي تعود على الذات بالرضا وعلى الوقت بالانضباط.

أغاني الصباح قد تكون روتينًا، كما هو الحال مع هيراياما الذي يستمتع بألحان ذات مزاج نوستالجي، ومنها أعمال فرقة "ذا أنيملز".



لحظة الاستيقاظ هي اللحظة التي يتصارع فيها العقل والجسد، والواجبات، وقائمة المهمات. وفي الاستعداد لمواجهة كل ذلك تبرز أهمية الروتين الصباحي.

الأسر المنتجة

غراس وحصاد وآفاق واعدة

أعلنت وزارة الثقافة في المملكة تسمية العام الحالي 2025م "عام الحِرف اليدوية"، تعزيزًا لهذا القطاع لما له من أهمية على المستويين الثقافي والاقتصادي. وكما هو معلوم، تتميَّز الحِرف اليدوية عن غيرها من المنتجات بأنها ثمار عمل على مستوى الأسرة، يختمر بهدوء في زوايا البيوت، ويعتمد في الإنتاج على ممارسات مستدامة، ونقل المهارات الحرفية عبر الأجيال. ويمكن للحِرف اليدوية أن تنتعش أو أن تكبو في ظروف وأماكن معيّنة، ولكن من المتفق عليه ثقافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا أنها تستحق التنمية.

فريق القافلة وشروق المرزوق
تصوير: عبدالله الشيخ



"الأسر المنتجة" مصطلح يُطلق على الأسر التي تسعى إلى توفير جزء من احتياجاتها الخاصة من خلال الاعتماد على المهارات التي تملكها، فتنتج وتبيع ما تصنعه في المنزل بهدف زيادة دخلها ورفع مستوى معيشتها، وهو ما يُبعد عنها شبح العوز، أو الاعتماد على الدخل المحدود لفرد واحد من الأسرة. ويشتمل هذا المفهوم على أنشطة مختلفة، مثل: الحرف اليدوية، والأطعمة، والمشغولات الفنية الأخرى.

وينتشر مصطلح "الأسر المنتجة" أكثر ما ينتشر في بلدان الشرق الأوسط مقارنة بمصطلح "الأعمال المنزلية"، الذي يُستخدم عادةً في مناطق أخرى من العالم. وقد شهد مفهوم الأسر المنتجة في منطقة الخليج العربي تطورًا ملحوظًا على مدى العقود القليلة الماضية، وهو ما يعكس التحوُّلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الأوسع في المنطقة. وتبلور هذا التطور بالتحوُّلات والتدابير الاقتصادية والسياسات الحكومية التي تهدف إلى تمكين الأسر، وخاصة النساء.

تاريخيًا، عملت الأسر، في المقام الأول، بوصفها وحدات ممتدة تعمل في الزراعة أو الحرف اليدوية. وكانت تُسهم في الاقتصادات المحلية من خلال العمل الجماعي. ومع ذلك، أدى التوسع الحضري السريع، منذ أواخر القرن العشرين، إلى الانتقال نحو هياكل الأسرة النووية. وصاحب هذا التحوُّل تغييرات في الأدوار الاقتصادية؛ إذ صارت الأسر تسعى بشكل متزايد إلى مصادر دخل بديلة تتجاوز الوسائل التقليدية.

في السنوات الأخيرة، أدرك كثير من الحكومات في الخليج العربي، ولا سيَّما في المملكة، أهمية الأسر المنتجة في التنمية الاقتصادية، وأولت اهتمامًا خاصًا بهذه الأسر لتشجيعها وتحفيزها وتعزيز إسهاماتها الاقتصادية؛ فكان لها مكانها في "رؤية السعودية 2030"، التي حددت من بين أهدافها زيادة مساهمة المنشآت الصغيرة والمتوسطة، ومنها الأسر المنتجة، في إجمالي الناتج المحلي من 20% إلى 35%.

ومن الخطوات البارزة التي اتخذتها الجهات الحكومية في هذا المجال، نقل برنامج الأسر المنتجة وبرنامج التدريب المهني والحرفي للنساء، من وكالة وزارة العمل والتنمية الاجتماعية للضمان الاجتماعي إلى بنك التنمية الاجتماعية، وتخصيص نحو 240 مليون ريال سنويًا لبرنامج الأسر المنتجة، و50 مليون ريال سنويًا لبرنامج التدريب المهني والحرفي، وتأسيس "المركز الوطني للمنشآت العائلية" لبناء منظومة متكاملة لاستدامة المنشآت العائلية وتنميتها، ودعم ما يقارب 165 أسرة مستفيدة، تسترد كل منها نحو 50 ألف ريال من خلال وسطاء التمويل خلال ثلاثة أعوام. وإضافة إلى الدعم الحكومي، اعتمدت شركات ومؤسسات خاصة عدة خيارات لتحفيز الأسر المنتجة.

التمكين الاقتصادي ومشاركة المرأة

لا ترتبط أعمال الأسر المنتجة بناطحات السحاب الشاهقة، ولا بالمجمعات التجارية مترامية الأطراف، بل عادةً ما تُنجِز أعمالها في المنازل، بمشاركة من أفراد العائلة، وخاصة النساء، والشباب ذوي المؤهلات التعليمية المتوسطة والمنخفضة، الذين قد يواجهون تحديات في دخول سوق العمل. وغالبًا ما تقود النساء أعمال هذه الأسر، مستغلات مهاراتهن في الحرف اليدوية أو الطبخ لتوليد الدخل مع موازنة المسؤوليات الأسرية.

ونتيجة لذلك، تؤدي هذه المنتجات دورًا مهمًا في تمكين المرأة اقتصاديًا واجتماعيًا؛ إذ توفر لها فرصًا للعمل من المنزل أو في ورش عمل صغيرة، وهو ما يتيح لها التوفيق بين متطلبات الأسرة والعمل. ومع نمو مشاريع الأسر المنتجة، فإنها تخلق فرص عمل للآخرين في مجتمعاتها؛ إذ كثيرًا ما تتطلب أعمال الأسرة الواحدة عمالة إضافية، وهو ما قد يقلل بنسبة مهمة من معدلات البطالة، ويُسهم في خلق سوق عمل أكثر ديناميكية من خلال توفير خيارات عمل مرنة تتوافق مع احتياجات السكان المحليين.

الأسر المنتجة مثال حي على ريادة الأعمال، تعمل بهدوء في المنازل، وتعزِّز الاقتصاد المحلي، وتضمن استدامة تقاليد حرفية عريقة.





من جهة أخرى، يمتد تأثير ما تنتجه هذه الأسر إلى أبعد من دائرتها المباشرة لتعزز التنمية الاقتصادية المحلية؛ لأنها تحصل على المواد محليًا، وتلبِّي احتياجات الأسواق المحلية. فمن خلال شراء المواد الأساسية من المنتجين القريبين وبيع منتجاتها داخل المجتمع، تحافظ هذه الأسر على تداول الأموال محليًا، فتعمل هذه الممارسة على تعزيز المرونة الاقتصادية وتقليل الاعتماد على الأسواق الخارجية. وعلى سبيل المثال، تعتمد جميع العائلات التي تنتج الحرف اليدوية من الفخار المصنوع يدويًا على توريد الطين من المصنّعين المحليين، ومن ثَمَّ، تعزيز كل من الحرف اليدوية المحلية والاستدامة الاقتصادية. كما تشارك الكثير من الأعمال العائلية الصغيرة في إنتاج الأطعمة والحلويات، بما يدعم المزارعين المحليين والممارسات الزراعية بشكل مباشر. ففي المملكة، تُسهم الأسر المصنِّعة لمنتجات التمور، مثل عصير التمر أو التمور المحشوة، في الحفاظ على الممارسات الزراعية التقليدية مع تعزيز الزراعة المحلية. ولمَّا كانت صناعة التمور تعدُّ حيوية لاقتصاد المملكة، تساعد الأسر العاملة في استدامة هذا القطاع من خلال ضمان زراعة الأصناف التقليدية وتسويقها بشكل فعَّال.

وما تنتجه هذه الأسر من حِرف ومشغولات يدوية عادةً ما يحمل معه قصة شخصية أو مجموعة من المشاعر، ويكون مصنوعًا باهتمام ودقة أكبر؛ فيؤدي إلى تعزيز مكانتها وقدرتها على التميُّز. ومن خلال التركيز على الجودة بدلًا من الكمية، يمكن لهذه الأسر إنشاء أسواق متخصصة لمنتجاتها، التي غالبًا ما تُقدَّر لأصالتها وارتباطها بالتراث الثقافي. وهذا الجانب الاقتصادي حيوي؛ لأنه يشجِّع على استمرار الممارسات التقليدية مع توفير سبل العيش لأفراد تلك الأسر.



الحفاظ على التراث الثقافي

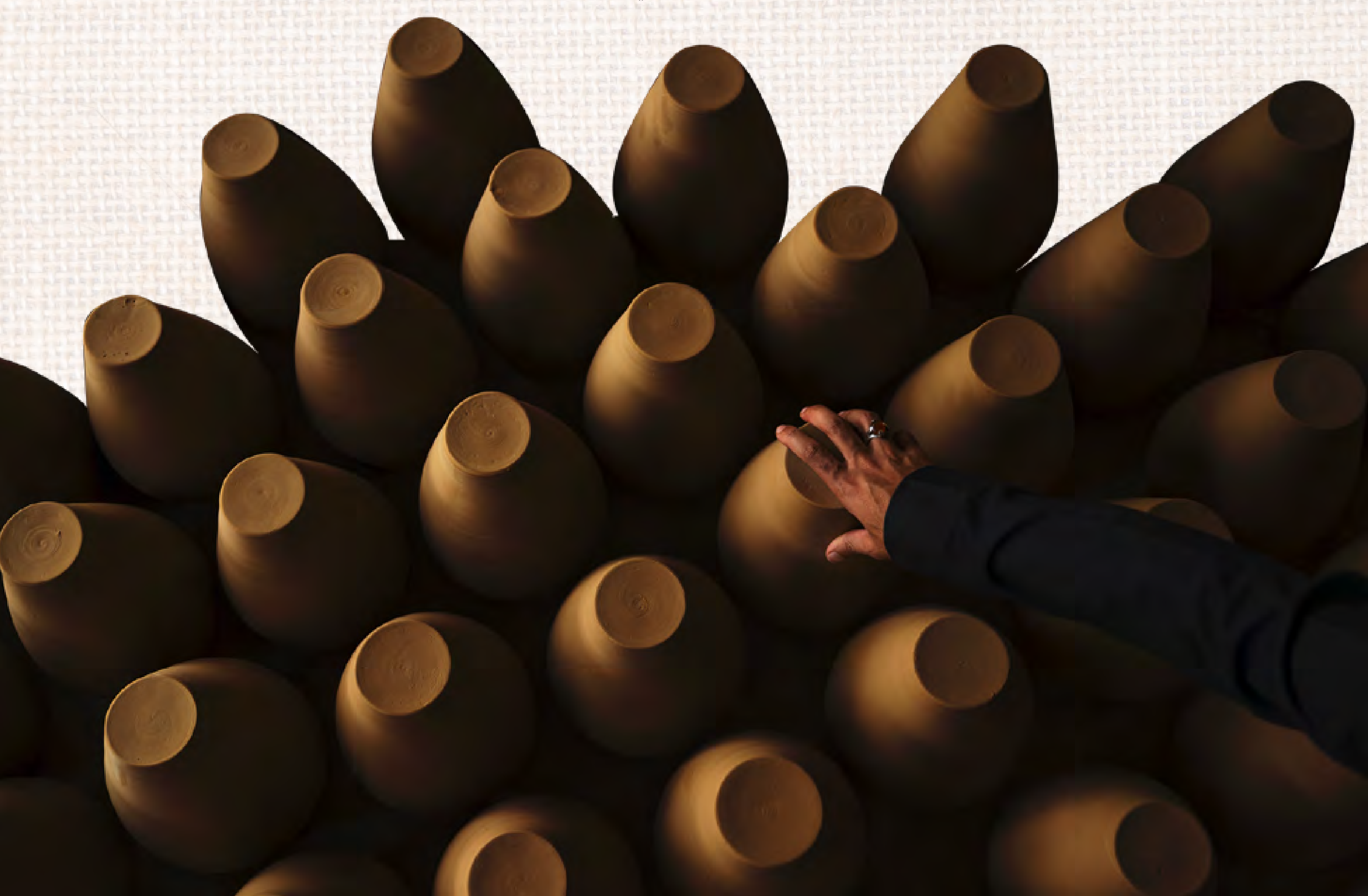
عندما نتطلع إلى إسهام الأسر المنتجة في المحافظة على التراث الثقافي، نلحظ في الدرجة الأولى أن أكثر ما تشمله نشاطات هذه الأسر هو صناعة الحلويات والأطعمة، ولكنها تتضمن أيضًا أعمال الحياكة والغزل ونسج الصوف، والرسم على القماش، ونقش الحناء، والنحت على الخشب، وصناعة الأدوية العشبية، والبخور والعطور، وصناعة الإكسسوارات المنزلية، وتلوين المرايا الزجاجية، والرسم بأنواعه، وتصميم الأشكال والمجسمات، وتلوين الفخار، والصناديق الخشبية التراثية، وتنسيق الزهور، إضافة إلى الخزفيات والأواني النحاسية.

ونظرًا لأن معظم هذه المنتجات تنضوي تحت الحِرف التقليدية، فغالبًا ما تعمل هذه الوحدات العائلية الصغيرة بوصفها أوصياء على هذه الحِرف والممارسات التقليدية؛ فتحافظ على المهارات والمعرفة التي تنتقل عبر الأجيال. وفي المملكة، يصنع الحرفيون المهرة، في بعض الأسر، سلعًا يدوية تجسد تقنيات وأساليب عمرها قرون. ففي مجال حياكة السدو، وهي حرفة كانت تمارسها في المقام الأول نساء البدو، يكون النتاج منسوجات معقدة تُستخدم لأغراض مختلفة، من العناصر الزخرفية إلى القطع الوظيفية مثل الخيام والوسائد، وهي غالبًا ما تتميز بأنماط هندسية تحكي قصصًا عن البيئة الصحراوية والحياة البدوية. ويمكن لبعض المنتجات من السدو التقليدي أن ترتقي إلى مستوى التحف الفنية التي يدفع الهواة أثمانًا باهظة للاستحواذ عليها.

ومن جهة أخرى، يُعدُّ الطعام جانبًا أساسًا آخر للهوية الثقافية التي تحافظ عليها المؤسسات العائلية الصغيرة. وثمَّة عائلات عديدة متخصصة في المطبخ السعودي التقليدي، وتُقدِّم أطباقًا تقليدية مثل: الكبسة والجريش والحلويات المختلفة المصنوعة من التمور. وتتجذَّر هذه الممارسات في فن الطبخ بعمق في العادات المحلية، وتعكس وفرة الزراعة في المنطقة.

دعم رسمي وغير رسمي

ولأن هذه الأسر تُسهم في إبقاء السرديات الثقافية حية، إضافة إلى دورها المركزي في التمكين الاقتصادي لمجتمعاتها المحلية، ولأن من بين أبرز التحديات التي تواجهها إيجاد أسواق لتصريف أعمالها، استُحدث كثيرٌ من الأنشطة والفعاليات التي تعمل على دعمها وإيجاد أسواق لتساعدها على تصريف منتجاتها. ومن هذه الفعاليات في المملكة، تحويل سوق المواشي في مدينة النعيرية، التي تبعد عن الدمام قرابة 200 كيلومتر، منذ حوالي ثلاثة عقود، إلى سوق للأسر المنتجة لبيع المشغولات اليدوية والسمن البري والأقط، وقد أُطلِق عليه، أخيرًا، اسم "سوق الأسر المنتجة". كما أُدخلت عليه بعض التنظيمات الحديثة، ليصبح مقصدًا لأكثر من مائة سيدة، بعضهن تجاوزن الستين من العمر. وتزداد مبيعاتهن خلال فترات الربيع والشتاء، وكذلك خلال مهرجان النعيرية الصيفي السنوي.







وإلى ذلك، هناك معرض "صنعتي"، الذي يُنظَّم سنويًا في المنطقة الشرقية من المملكة، ويُعدُّ منصة مثالية لعرض المنتجات المحلية وإبراز جوانب من التراث الثقافي السعودي؛ إذ يُسهم في تعزيز الهوية الوطنية ويعكس التنوع الثقافي للبلاد. أمَّا هدفه الأساس، فهو تطوير الأسر المنتجة وأصحاب الحرف اليدوية وتأهيلهم من خلال توفير فرص تسويقية لهم، وتعريف الجمهور بمنتجاتهم. كما يسعى إلى تشجيع هذه الأسر على تأسيس مشاريعها الخاصة وتحقيق دخل مستدام. ويشكِّل هذا المعرض منصة للتواصل المباشر بين المنتجين والجمهور، وهو ما يساعد على استمرارية أعمالهم. وخلال عام 2023م، شارك في المعرض نحو 300 أسرة منتجة و25 جمعية أهلية، وهو ما يدل على التنوُّع الكبير في المنتجات المعروضة التي شملت الحرف اليدوية، والأزياء، والعطور، والمشروبات التقليدية.

ومن ناحية الجهات غير الرسمية، فتجدر الإشارة إلى شركة "المائة الأولى" (Top100)، وهي شركة متخصصة لأنشطة الأسر المنتجة، أنشئت عام 2020م، وذات مهمة اجتماعية واضحة، تهتم بالأسر التي تبيع المأكولات والأعمال الإبداعية، إلى جانب حماية كثير من العادات والمهارات والتحف الفنية. وقد تأسَّست هذه الشركة انطلاقًا من تلمّس الاحتياجات، وأهمية الاستثمار في الموارد المتاحة بالمملكة، ودمجه بالتقنية وتفعيل التطبيقات الإلكترونية لتيسير عمليات الإنتاج وتمكينها. وتهدف أيضًا إلى بناء مؤشر للصحة، وزيادة متوسط العمر المتوقع للفرد، وتنمية دخل الأسرة على المدى الطويل، وتحسين مستويات المعيشة، وتحفيز جانب ريادة الأعمال.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى مركز "جنى"، الذي تأسَّس عام 2010م في المملكة، وهو عبارة عن مشروع اقتصادي اجتماعي يُقدِّم خدمات القروض الحسنة للسيدات لإنشاء مشاريع تجارية تضمن تحسين مداخيلهن المادية، وتُحقِّق لهن موقعًا أكثر فعاليّة في المجتمع. فإذا كانت الأسر المنتجة تدعم الحِرف المحلية وتحافظ على الهوية الثقافية، وتعزِّز الاقتصادات المحلية، والاستدامة، والروابط المجتمعية، وتشجِّع الإبداع، فضلًا عن أنها تغذِّي الشعور بالانتماء، وتُعدُّ مثالًا حيًا على ريادة الأعمال؛ فليس من المستغرب أن تُولَى كل هذا الاهتمام، وأن يُحتفى بها، ولو بطريقة غير مباشرة، عند الاحتفاء بالحرف اليدوية في المملكة عام 2025م.

يُعدُّ معرض "صنعتي" منصة مثالية لعرض المنتجات المحلية وإبراز جوانب من التراث الثقافي السعودي؛ إذ يُسهم في تعزيز الهوية الوطنية ويعكس التنوع الثقافي للبلاد.



الأكل الأخلاقي
مراوغة المصطلح وصعوبة التنفيذ

من المألوف ظهور تعبير "الأكل الأخلاقي" في الأدبيات الغربية، لكن ظهوره في البلدان العربية يحوله إلى إحدى الصرعات الصادمة التي استوردتها "الميديا" الحديثة. فالشائع هو أن لكل شخص معاييره الخاصة بالنسبة إلى الطعام، وتُراوح هذه المعايير بين إطلاق العنان للذائقة الشخصية، ومراعاة الاعتبارات الصحية وغيرها، وصولًا إلى عامل التكلفة عند ذوي المداخيل المحدودة. أمَّا السؤال الجديد، فهو: كيف يمكن لهذا الأكل الذي نعرفه أن يكون أخلاقيًا؟

شيرين أبو النجا





ظهرت بوادر الأكل الأخلاقي، من دون تسميته هكذا، في العالم العربي من خلال مظاهر محددة مثل: المنتجات العضوية، واتباع الأنظمة الغذائية النباتية، وتلافي استخدام البلاستيك قدر الإمكان، وما شابه ذلك؛ وهي مظاهر أقبل عليها البعض من أجل الحفاظ على الصحة. ومثلما يحدث دائمًا، تأتي كل ظاهرة جديدة وهي تسحب معها وسائل المقاومة الموجهة ضدها. فالمنتجات العضوية؛ أي تلك التي لا تُستخدم في زراعتها مواد كيميائية وغير معدلة وراثيًا، ربَّما لا تتمتع بالمصداقية الكافية التي تجعل المستهلك يُقبل عليها، فضلًا عن ارتفاع أثمانها. أمَّا البلاستيك، وخاصة عبوات المياه والعلب والأكياس، فهي أدوات عملية ونافعة في الحياة اليومية لمعظم الناس، وذات تكلفة أقل من تكلفة الزجاج. أمَّا المشكلة، فيرى البعض أنها تكمن في الإفراط في الاستهلاك وغياب الدعم المؤسسي لعملية إعادة التدوير.

تبقى الأنظمة النباتية وهي تسعى للحصول على مكان في الثقافة والقناعات الفكرية، وهو أمر ليس سهلًا دائمًا في مجتمعات تتجذر فيها أهمية اللحم إلى حد قد يحوِّل حياة الشخص النباتي إلى مثار للفكاهة والاستخفاف، فضلًا عن عدم قدرته على التكيف مع ثقافة غير مجهّزة لهذا النظام الغذائي، حتى إنها تربط بينه وبين العوز والاحتياج.

لكل هذه الأسباب وغيرها، يصبح الأكل الأخلاقي إحدى المعضلات التي لا يمكن العمل على حلها بشكل فردي. فاستهلاك الأكل هو أحد القطاعات المؤثرة في النظام الاقتصادي الرأسمالي؛ إذ يتحول الربح والمنافسة إلى عاملين أساسين لقيام المنظومة. وبذلك، فإن الاختيارات الفردية لا تؤثر مطلقًا في صلابة المنظومة الربحية ولا منظومة العرض والطلب.

بوادر الأكل الأخلاقي، من دون تسميته هكذا، بدأت تنتشر في العالم العربي، ومن مظاهرها المنتجات العضوية واتباع الأنظمة الغذائية النباتية.



أهمية الوعي بمختلف جوانب خياراتنا

في سبيل تحقيق أعلى ربح تعمد بعض الشركات الغذائية إلى تقديم صور جذابة لمنتجاتها، مع التأكيد على أنها أفضل منتج للصحة. ولكن الأكل الأخلاقي لا يقتصر على اختيار المنتجات العضوية وما أشبهها، بل يشمل أيضًا الوعي بالآثار البيئية والاجتماعية والصحية لخياراتنا الغذائية، واتخاذ قرارات مستنيرة تعكس قيمنا وتفضيلاتنا. فالغذاء الأخلاقي هو وسيلة لتناول الطعام والطهي تحترم جميع الكائنات الحية.

فعلى سبيل المثال، يتطلب الأكل الأخلاقي ملاحظة ما يُسمَّى "الأميال الغذائية"؛ أي المسافة التي يقطعها الطعام من مكان إنتاجه حتى وصوله إلى المستهلك، وضرورة الوعي بالبصمة الكربونية؛ أي كمية ثاني أكسيد الكربون الذي ينبعث أثناء النقل. يبدو هذا الأمر حيويًا لمن يرغب في فهم جوهر منظومة الأكل الأخلاقي. فالأمر لا يقتصر على نوعية الطعام، بل يأخذ أيضًا في الحسبان تكلفة وصوله إلينا وما تسبب فيه خلال إنتاجه ونقله؛ بما في ذلك أثره على المنتجات المحلية التي تتراجع لحساب السلعة المستوردة مثلًا، وهذا ما يؤدي إلى تراجع مؤشر النمو وتدني دخل المزارع. أمَّا مسألة تلوث البيئة، فهي أمر أخلاقي، أو بالأحرى لا أخلاقي في هذه الحالة.

علَّة السعي إلى تحقيق أرباح إضافية

تكمن المفارقة في أن السوق تسعى إلى تحقيق ربح عبر النقل أو الاستيراد، وهو ما يزيد من المخاطر البيئية. ومن جهة أخرى، يتحقق هذا الربح على حساب المنتِج المحلي. وكأن هناك علاقة طردية، فكلَّما ازداد السعي إلى الربح ازداد التلوث البيئي. لكن العلاقة عكسية في حالة المزارع، فكلَّما ازداد ربح الشركات المستوردة هبط الدخل المعيشي للمزارع، وتراجع المنتج المحلي وفقَد قيمته بشكل يغيّر الذائقة والثقافة. كما حدث، مثلًا، مع ظاهرة الوجبات الجاهزة التي تشمل أطعمة معدَّة من

لحوم وخضار تُنتج بالجملة، لتكون دون غيرها مادة وجبات في بعض المطاعم. وأدى رواجها عالميًا إلى ظهور فئة واسعة من المستهلكين ترى في الوجبات السريعة علامة على الحداثة والرقي الحضاري. وهي تخدم المُنتِج أيضًا، فهي أسرع وأرخص وقادرة على خدمة طبقة عريضة من المستهلكين في وقت قصير.

الحيوان يستحق معاملة أفضل

تندرج كل هذه الإشكاليات تحت مُسمَّى "التجارة العادلة"، وهي حركة عالمية تهدف إلى تحسين الأسعار وظروف العمل وشروط التجارة للمزارعين والعمال في الدول النامية. كما تهدف إلى تعزيز الممارسات التجارية العادلة بين المنتج والمستهلك.

ففي سبيل تحقيق المزيد من الأرباح، قد لا تتوانى التجارة عن الإتيان بأمور تهدِّد صحة الإنسان، مثل التعديل الوراثي لأنواع الخضار والفاكهة، وإنتاجها في غير مواسمها. وإضافة إلى ذلك، قد تُعامل الحيوانات، التي تمدنا باللحم والألبان والبيض، بقسوة تجعلها في حالة توتر دائم وإجهاد، ويُفرض عليها سلوك ليس من طبيعتها، مع شُح الظروف الملائمة للحيوان من ناحية المأكل والمساحة والماء والرعاية في بعض المزارع الضخمة.

وعلى الرغم من أن مفهوم الرفق بالحيوان أصبح منتشرًا ومعروفًا لدى الجميع، ولديه مقاربات مختلفة من جهات متعددة، فإن هذا لا يضمن وجود أي ممارسة عملية وفق هذا المفهوم في كثير من مزارع الحيوانات.

الأكل الأخلاقي سلوك يحتاج إلى وعي متقد وجاد وخيارات واضحة وجذرية، وهما أمران يحتاجان إلى الاستدامة.

درءًا لمزيد من التدهور

ربّما يجب أن نتذكر دائمًا أن نتائج هذا الانتهاك المنظَّم للطبيعة والتربة والحيوانات وأجسامنا، هي التدمير التدريجي وغير المحسوس للكوكب. وقد بدأنا نشهد هذا فعليًا في أزمة تغيُّر المناخ وظهور الأوبئة وزيادة معدلات عدم القدرة على الإنجاب في الأجيال الصاعدة وزيادة الأمراض السرطانية والأمراض المناعية.

تنبَّه النقد الأدبي إلى هذا التدمير المُقنَّع مبكرًا، فظهرت مدرسة النقد البيئي (قبل ظهور الدراسات البيئية) منذ عام 1978م، وهو مصطلح أطلقه ويليام روكرت في مقاله الشهير "الأدب والبيئة". ومنذ تسعينيات القرن الماضي تحوَّل النقد البيئي إلى مقاربة نقدية راسخة تسعى إلى قراءة النص من زاوية العلاقات بين الشخصيات وكل البيئة المحيطة بها. ثم صعد النقد النسوي البيئي (إيكوفيمينزم) بوصفه إطارًا للتفكير في العلاقة بين البشر والبيئة، وهو ما يؤدي إلى إدراك الأصول المشتركة بين الاضطهاد الاجتماعي ودمار البيئة، كما تقول ماريا ميس وفاندانا شيفا في كتابهما المشترك "إيكوفيمينزم" الصادر عام 2014م. ويركِّز هذا النقد عمومًا على العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ومدى الانتهاكات التي يمارسها الإنسان على الطبيعة بوصفها، من وجهة نظره، جمادًا يقع تحت إمرته، ويدخل الأكل في هذه القراءات النقدية باعتبار الطبيعة هي مصدره.



مواصفات الأكل الأخلاقي

بوجه عام، حدَّد "مجلس أخلاقيات الطعام"، وهو جمعية غير حكومية تأسست عام 1998م في إنجلترا، المعايير الأساسية لقياس مدى التزام الشخص بالطعام الأخلاقي. وتأتي رعاية الحيوان بما يضمن حقوقه على رأس القائمة. فمثلًا، الشخص النباتي الذي لا يأكل اللحم لأنه لا يحب مذاقه لا يعد ملتزمًا، فالاختيارات لا بدَّ من أن تكون مبنية على وعي. وثانيًا، إنقاذ الكوكب من المواد الكيميائية والصناعية التي تؤثر على الحياة الطبيعية والتربة الزراعية بما يمنع الاستدامة. وثالثًا، نظام الأكل الصحي ليحافظ الشخص على صحته وصحة غيره (على الأقل من معدلات السمنة المتزايدة ومرض السكر). وأخيرًا، مبدأ التجارة العادلة التي تضمن ربحًا عادلًا للمزارع وتسمح للمستهلك بالوصول إلى نوعية جيدة من الطعام.

الأكل الأخلاقي هو جزء أصيل من مسألة الحفاظ على البيئة وإنقاذ الكوكب من الأخطار التي تحيط به. وهو سلوك يحتاج إلى وعي متقد وجاد وخيارات واضحة وجذرية، وهما أمران يحتاجان إلى الاستدامة؛ لأن المنفعة التجارية تستهدف تحديدًا توجيه الخيارات لمصلحتها عبر الصور والإعلانات البرّاقة لتحقيق المزيد من الربح ولو كان ذلك على حساب كوكب. كما حدث عام 2018م في سويسرا، حيث صوَّت المواطنون بأغلبية كبيرة ضد مبادرتين شعبيتين تتعلقان بالغذاء العادل والزراعة. جاء ذلك بعد أن عمد بعض رجال الأعمال والمؤسسات على تحريض الناخبين للتصويت ضد المبادرتين بحجة القلق من ارتفاع الأسعار والخيارات المتاحة، فيما استهدفت المبادرتان تحسين نوعية الغذاء المُقدَّم لهم عبر الارتقاء بمستويات الزراعة المحلية والنهوض المستدام بها!

شانغريلا
مدينة الحُلم القديم

لعلَّ اسم "شانغريلا" مرَّ بنا مقرونًا بمعاني الرفاهية وسحر الشرق الأقصى، في أسماء الفنادق والمطاعم وكل ما يمتُّ للمخيال الآسيوي الثري. لكن شانغريلا كذلك هو اسم مدينة صينية تقع في مقاطعة يونّان جنوب البلاد، على تخوم إقليم التبت الشاسع، وعلى الحدود مع فيتنام ومن ورائها لاوس وبورما، التي تُشكِّل مع كمبوديا وتايلاند شبه جزيرة سمَّاها الفرنسيون يومًا "الهند الصينية"، في دلالة على كونها نقطة انصهار الحضارتين الآسيويتين المهيبتين. وكذلك هي شانغريلا؛ صينية بقدر ما هي تبتية. وعاء تمتزج فيه ثقافات شرقية عدة لتكون نسيجًا وحدَها في خريطة الصين المتنوعة بتنوع إثنياتها وتراثها.

د. أشرف فقيه



المنظر من فوق المعبد البوذي في قلب شانغريلا.



برج الصلاة مُطلًّا على شانغريلا القديمة.

اسم مختلق لحلم قديم

حين نتحدث عن شانغريلا، فإننا نتطرق لمسمًّى بات يُشكِّل مفهومًا في الوجدان الجمعي، ذا بُعد تاريخي وجغرافي، وذا بُعد ثقافي وفكري كذلك؛ لأن التسمية في الأصل طارئة على القاموس الصيني، وُلدت في قرائح الأدباء الأوروبيين أولًا، قبل أن تتلقفها الحكومات وتطلقها على بقعة جغرافية ارتأت أنها تُجسِّد الحلم القديم الذي رمز له الاسم.

ظهرت تسمية شانغريلا، أوَّل مرة، في الرواية المشهورة "الأفق المفقود"، التي نشرها البريطاني جيمس هيلتون عام 1933م. وتدور أحداث الرواية حول وادٍ ساحر مخبوء بين قمم الجبال الصينية، يسكنه مجتمع بوذي ينشد السلام والعدالة، تلجأ إليه حفنة من الأوروبيين ممن تعرضوا لكارثة جوية. وجاءت الرواية، آنذاك، لتجِّسد توجهًا استشراقيًا استعماريًا يرى فيه المنظّر الأوروبي أن القيم الدينية والإنسانية للمجتمعات الآسيوية كفيلة بإعادة احتضان المُثل الإنسانية السامية وتشكيلها، مع لمز للأفضلية الكامنة للعرق الأبيض وقدرته على الارتقاء بهذه المُثل وتطويرها.

بعيدًا عن أحداث الرواية، وعن حقيقة أن هيلتون لم يزر الصين في حياته، بل استعان في تصوره للمكان الذي تقع فيه أحداث روايته بما نشرته المجلات الجغرافية ومدونات المبشرين والعلماء الأوروبيين الذين كانوا ضمن الإرساليات العديدة التي استقرت في الصين، ووصفتها خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، إبان الهبة الأوروبية لاستكشاف الصين واستغلال خيراتها في ممارسة أقرب للاستعمار الكلاسيكي، إلا أنَّ ما يعنينا هنا هو أن تسمية "شانغريلا" هي من بنات أفكار المؤلف. ليس لها وجود حقيقي ولا أصل في اللغات الصينية. ويُعتقد أن هيلتون ربَّما نحتها أو اشتقها من لفظة مقاربة هي "شانبالا"، وتعني "الجنة" في اللهجات التبتية.

في عام 2001م، ولأجل تنشيط اقتصاد السياحة، غيَّرت الحكومة الصينية اسم محافظة جونغديان رسميًا إلى شانغري-لا (Shangri-La)، مع أنها تقع في مقاطعة يونّان لا مقاطعة التبت المجاورة التي شهدت الأحداث المختلقة لرواية هيلتون، مستغلةً طبيعتها المقاربة وثقافتها التي تتعايش في ظلها ديانات وأجناس عديدة، وبلدتها القديمة التي تبلغ من العمر ألف عام، وتعِد زيارتها برحلة حقيقية عبر الزمان.

يونّان.. البوابة إلى التبت وما بعدها

مقاطعة يونّان التي تضم محافظة وبلدة شانغريلا، هي إحدى مقاطعات الجنوب الصيني ذات التاريخ العريق. تبلغ مساحتها 400 ألف كيلومتر مربع، وعدد سكانها 49 مليون نسمة. وتتميز بتضاريسها المتنوعة التي تشكل فسيفساء جغرافية ساحرة. ويمتد هذا التنوع ليشمل الأقليات الصينية التي تسكنها من "خوي" مسلمين و"مياو" و"يي" و"باي" و"ناشي". ولكل منها لغتها وتقاليدها وأزياؤها التي تشكل معًا النسيج الملون لهذه المقاطعة الجميلة.

تاريخيًا، كانت يونّان جزءًا أصيلًا من الإمبراطورية الصينية منذ ألفي عام. ثم لمَّا توغل المغول في الصين خلال القرن الثالث عشر، مؤسسين إمبراطوريتهم المعروفة باسم "يوان"، دخلت يونّان في طاعة السادة الجدد طوعًا، ما ضمن لمدنها ألا تُدمر وتسوَّى بالأرض وفق العرف المنغولي. هكذا ازدهرت المنطقة وصارت بوابة طرق تجارية عدة ربطت الصين ببقية جنوب آسيا. ولا تزال قصور يونّان ومعابدها شاهدة على مجدها القديم، ويظل تاريخها مستودعًا لكثير من المحافل الثقافية والسياحية التي تجذب لها الزوار من داخل الصين ومن حول العالم عطفًا على أجوائها المقبولة معظم العام، بما فيها مزارع الأرز والقهوة في تلالها الجنوبية، وقممها الشمالية الشاهقة المكتسية بالثلوج، والأنهار الستة التي تمر عبرها وترسم ملامح وديانها وبحيراتها المتعددة.

وإضافة إلى محاذاة مقاطعة يونّان لكل من دول فيتنام ولاوس وبورما، فإنها تمتد في أقصى شمالها الشرقي لتلامس محافظة التبت الشاسعة التي دخلت في حمى جمهورية الصين الشعبية عام 1951م. وفي نقطة الالتقاء بين المقاطعتين تلك، تقع مدينتنا الحالمة شانغريلا ضمن محافظة تحمل الاسم نفسه.



حجاج في المعبد البوذي بشانغريلا القديمة.

شانغريلا.. مدينة الألف عام

أبرز ما يلفت نظر الواصل إلى شانغريلا عبر مطارها الإقليمي، ولا سيَّما إن كان قادمًا من إحدى مدن الصين الكبرى مثل بكين أو شانغهاي، هو الحضور اللافت للطبيعة في المساحات المفتوحة غير المختنقة بناطحات السحاب والمباني الضخمة شأنها شأن مدن الصين الكبرى. وتحيط بشانغريلا سلاسل جبلية تزيد المنظر بهاءً. وتقع المنطقة عمومًا على ارتفاع يُراوح بين ثلاثة وخمسة كيلومترات عن سطح البحر، ما يصم مناخها ويصعّب التنفس على غير المتمرسين على المرتفعات.

السمة الأخرى للمدينة تبرزها معالمها البوذية المندمجة بسلاسة محببة مع العمران الصيني التقليدي، لتعطيها سمتًا مميزًا يُمهِّد للدخول إلى فضاء التبت ذي الحضور الكثيف هنا في الملامح والطقوس والأزياء والمطبخ كموروث تاريخي أكيد. شانغريلا إذًا هي بوابة لثقافة التبت من منظور صيني، وبرزخ طبيعي يربط بين العالمين المتوازيين كلٍّ بمفرداته وشخصيته.

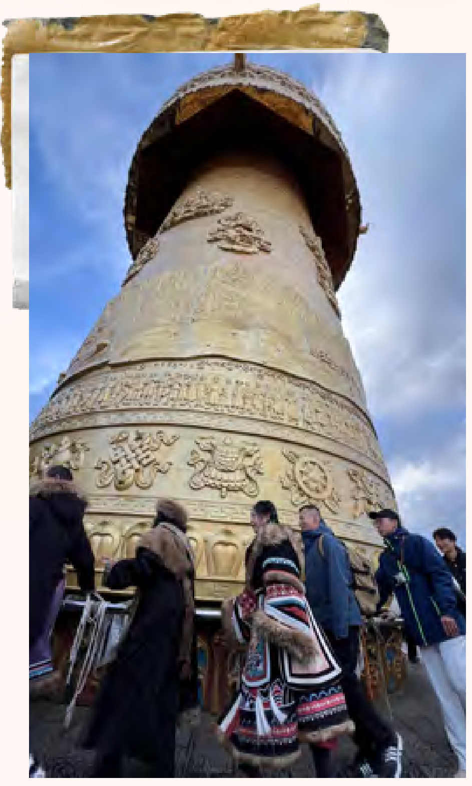
في عام 2001م، ولأجل تنشيط اقتصاد السياحة، غيَّرت الحكومة الصينية اسم محافظة جونغديان رسميًا إلى شانغري-لا.

بلدة شانغريلا القديمة مسوَّرة بما يميزها ويحفظها عن الجزء العصري الأحدث من المدينة، حيث تتوزع المباني الحكومية والفنادق العصرية. أمَّا الجزء القديم، فعمره ألف عام. ومما يُؤسف له أن حريقًا مريعًا قد التهم نصف مباني هذه البلدة القديمة عام 2014م فصيّرها رمادًا. ومع ذلك، ظلت عدة أجزاء منها سليمة ومحفوظة. أمَّا الجزء المحترق، فأعادت الحكومة الصينية بناءه لتحفظ للزائر فرصة الالتقاء بتراث عريق وخوض تجربة فريدة للارتحال إلى الماضي.

هذه التجربة تفرض نفسها عليك بصريًا ما إن تلج الدروب الضيقة للمدينة القديمة بحوانيتها وخاناتها العتيقة، وتترسخ في وجدانك أكثر حين ترتقي ببصرك لتطالع مبنى المعبد البوذي القائم على تلة عالية في قلب البلدة القديمة بدرجاته الصاعدة المكتظة بالحجاج والسيَّاح؛ لتأخذك إلى القمة حيث ينتصب برج الصلاة الذهبي الدوّار الذي يُعدُّ أبرز ملامح البلدة. هذا البرج هو معلم أساس في كثير من المعابد البوذية التي ستعرف أن لها مذاهب صينية وهندية وتبتية، وهذه الأخيرة هي المسيطرة

هنا. التنقل عبر أروقة مجمع المعبد ستأخذك في مسار معماري مميز، ترفرف فوق رأسك الأوراق الملوّنة المكتوب عليها صلوات خُطّت بحروف من لغات قديمة شبه بائدة، فيما النسّاك والرهبان البوذيون بإحراماتهم القرمزية المميزة يبادلونك نظرات الترحيب طالما أنك ملتزم بأدب زيارة الموقع وغير مفرط في السلوك السياحي الذي بات يطغى على هذه المواقع جرّاء اشتهارها عالميًا عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

ولعلَّ السمت السياحي لشانغريلا يعزِّزه إقبال الزوار من أرجاء الصين على زيارتها، متنكرين بأزياء مستوحاة من القصص الفلكلورية القديمة. لذا، فمن غير المستغرب أن تجد الكثير من المحال المتخصصة بتوفير هذه الأزياء والماكياج المرافق؛ ليتقاطر عليها الشباب من الجنسين لأجل التقاط الصور التذكارية عند معالمها الأثرية في مشهد يمتزج فيه التراثي بالعصري.



المصلون يديرون برج الصلاة البوذي.



المعبد الرئيس داخل دير غاندن.

دير غاندن العظيم

على مسافة خمسة كيلومترات من شانغريلا القديمة، وكمعلم أساس بديع من معالم المنطقة، يمتد دير غاندن البوذي متربعًا على قمة ترتفع 3380 مترًا عن سطح البحر، وتطل على المقبل عليها بمشهد أخّاذ بمبانيه المتراصة كعلب ذات أغطية ذهبية تسطع عليها الشمس.

أنشئ هذا الدير في القرن السابع عشر ويُعدُّ أحد أكبر أقرانه في العالم البوذي، وعلى الرغم من أنه تعرض لعدة انتكاسات، ولا سيما إبان الثورة الثقافية الصينية بين عامي 1966 و1976م، فإنه يؤوي اليوم مئات الرهبان ممن كرَّسوا حياتهم لخدمة المعتقد. ولأجل الوصول إلى الدير والاطلاع على أقسامه ومكوناته المعمارية والفنية، يلزم الزائر أن يصعد مئات الدرجات المؤدية إليه في تمرين بدني قاسٍ، ولا سيما مع خفة الأكسجين في هذه المستويات المرتفعة. ويُشاهد كثير من السيَّاح يستنشقون الأكسجين من أنابيب يوفرها الباعة لمنحهم وهم اللياقة والنجاة من هذه المعضلة الفسيولوجية الطريفة.

ويتميز الدير كذلك، شأنه شأن المعابد التابعة للمذهب التبتي، باحتضانه معالمَ وتصاوير هندوسية، في إشارة للالتقاء الجغرافي والفكري للديانتين اللتين تكونتا وتعايشتا في هذه المنطقة من عشرات القرون.

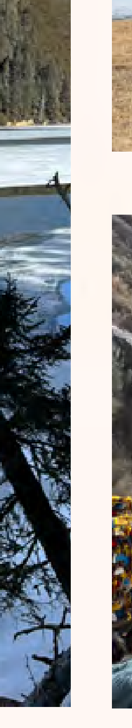
وادي النمر الوثّاب

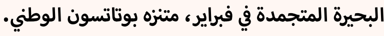
لا تكتمل زيارة السائح لشانغريلا من دون المرور بوادي النمر الوثّاب. وهو مضيق سحيق بين الجبال في منتصف المسافة بين شانغريلا والمدينة المجاورة لينجيانغ. ومع أن الطريق إليها وعر، لكن الوصول إلى المنطقة والمشي عبر المسار المنحدر الممتد على السفوح العالية، والمطل على نهر جينشا الثائر، يَعِد بمنظر مذهل وتجربة طبيعية غير مسبوقة.

يمتد مسار المشي عبر الوادي إلى مسافة إجمالية تبلغ 47 كيلومترًا، تتفاوت في وعورتها، وتشكِّل عمومًا واحدًا من أهم 10 مسارات مشي برية حول العالم. وتعدُّ المنطقة المدرجة في لائحة اليونيسكو العالمية، معلمًا طبيعيًا مفضلًا لمحبي استكشاف الطبيعة، بالإضافة إلى منصات إطلال سهلة الوصول لأولئك الأقل لياقة وحماسة لبذل المجهود البدني. مع الإشارة إلى أن الدرجات الألف، التي تُشكِّل الدرب إلى قاع الوادي هبوطًا ثم صعودًا للعودة لمواقف السيارات، تعتبر مرهقة بما يكفي. لكن سحر المشهد مرفقًا بهدير مياه نهر الجينشا المتفرع عن نهر الصين الأعظم، اليانغتسي، وما يتوفر من متاجر ومطاعم متنوعة للزوار، يُشكِّل تجربة ممتعة ووافية لكل من يأتي إلى هذا المكان المكتظ بالسياح على مدار العام، ما لم يتعذر الوصول في حال العواصف الثلجية خلال الشتاءات القاسية على هذه الارتفاعات العالية.



ثيران الياك في حديقة بوتاتسون الوطنية.





البحيرة المتجمدة في فبراير، متنزه بوتاتسون الوطني.



وادي النمر الوثّاب.

لعلَّ السمت السياحي لشانغريلا يعزِّزه إقبال الزوار من أرجاء الصين على زيارتها، متنكرين بأزياء مستوحاة من القصص الفلكلورية القديمة.

حديقة بوتاتسون الوطنية

إضافة إلى التراث العقدي والمعماري لشانغريلا، فإن زائرها سيجد فسحة للالتجاء إلى الطبيعة البكر من خلال متنزه بوتاتسون الوطني الذي افتُتح رسميًا عام 2007م، وتبلغ مساحته 1300 كيلومتر مربع، فيما ترتفع أعلى نقطة فيه مسافة أربعة آلاف متر عن سطح البحر.

يَعِد المتنزه بفرصة رائعة للاستمتاع بالطبيعة الساحرة عبر جباله وغاباته الوارفة المطلة على بحيرتي شودو وبيتاهاي. وحيث إننا زرناه خلال أواخر فصل الشتاء، فقد كانت البحيرة المتجمدة تفكك جليدها وتمطى منتعشة باخضرار بوادر الربيع. ويتميز المتنزه بتجهيزاته المتقدمة والمنظمة لاستقبال آلاف الزوار يوميًا، وبمساره الجيد الذي يستغرق بين 4 و6 ساعات لإكماله وفقًا للياقة الزائر، والمعد للمشاة ممن يُحظر عليهم التوغل فيما عداه من المسارات الطبيعية حفاظًا على النقاء الطبيعي للمكان. ويُعد المتنزه جنة لمحبي الحياة الفطرية من نبات وحيوان، فضلًا عن وجود ثيران الياك التي ترعى بحرية وتعدُّ أساس النظام الرعوي والغذائي في هذه الأنحاء؛ لأنها مصدر اللحم والوبر الأول في جنوب الصين وشرقها، حتى نصل إلى بدايات طريق الحرير التاريخي، حيث تسود الجمال الآسيوية ذات السنامين، التي كانت عماد قوافل التجارة على هذا الطريق الذي ربط الشرق بالغرب منذ آلاف السنين، وكان الدرب الذي عرَّف الصين بالعالم وقدَّم العالم إلى الصين، وفي منتصفه تقع مدينتنا شانغريلا التي لا تزال تلهم الزوار وتذكرهم بماضٍ عريق، وتعدهم كذلك بتجربة سياحية وفكرية معاصرة ومثرية تليق بملتقى الحضارات هذا.



نوردهافن
مدينة الدقائق الخمس

لقرون عديدة كانت نوردهافن، أو"الميناء الشمالي"، (وهي منطقة تابعة رسميًا للعاصمة الدنماركية كوبنهاجن، ولكنها تعدُّ مدينةً بسبب حجمها ونطاقها الواسع)، ميناءً حرًا مليئًا بسفن الشحن وصوامع الحبوب والحاويات المعدنية، وكانت المباني الموجودة فيه عبارة عن مستودعات ومنشآت شحن صناعية. ثم في عام 2008م، نُظِّمت مسابقة لإنشاء منطقة ذات طابع مستدام لمستقبل كوبنهاجن، فجرى تقديم 179 اقتراحًا من قبل شركات معمارية عديدة، فازت من بينها مجموعة من أربع شركات كانت قد وضعت تصميمًا لنوردهافن لجعلها منطقة حضرية مع خطة تطوير مستدامة. ولكن أكثر ما كان يميز تلك الخطة أنها ستجعل نوردهافن أول مدينة في العالم يمكن الوصول إلى جميع المرافق فيها في غضون 5 دقائق، بحيث سيكون كل ما يحتاج إليه؛ أي من الـ40 ألف نسمة المقيمين فيها، على مسافة 400 متر سيرًا على الأقدام.

يُعدُّ التنقل أحد أكبر التحديات التي تواجه الحياة العصرية؛ لأنه يستهلك كثيرًا من الوقت، إضافة إلى الروتين اليومي؛ ولذلك صُممت مدينة نوردهافن لجعل كل شيء فيها، من المدارس والملاعب إلى الشركات والأماكن الترفيهية، على مسافة قريبة وفي غضون خمس دقائق فقط. فهي نموذج لعالم حديث يُمكن للسكان فيه ممارسة التمارين الرياضية الصباحية قبل الانتقال إلى أماكن عملهم، وتناول الغداء في مقهى لطيف، والسباحة السريعة في الميناء، والعودة إلى المنزل في الوقت المناسب لاصطحاب أطفالهم إلى نزهة في الحديقة، كلُّ ذلك قبل الاستمتاع بعشاء مع العائلة في المساء.

في هذه المدينة يجري التركيز على مفهوم "التنقل الناعم"، وهو مفهوم يشير إلى أنماط النقل التي تعزز الاستدامة وتقلل من الاعتماد على وسائل النقل التقليدية مثل السيارات، بحيث يُعتمد على استخدام وسائل النقل الخفيفة والمستدامة، مثل: المشي وركوب الدراجات ووسائل النقل العامة. كما تبرز في تصميم المدينة فكرةُ المساحات الهجينة من حيث تجنب خلق مساحات بلا حياة، وتعزيز التفاعل الاجتماعي بين السكان والموظفين والزوار. وهكذا، في نوردهافن، قد يحتوي موقف سيارات متعدد الطوابق على صالة ألعاب رياضية على سطحه. وقد يشمل مبنى سكني مطعمًا عامًا. وقد يضم فندق متجرًا مفاهيميًا. ووفقًا للمهندس المعماري بيتر بور أندرسن، الذي أدّى دورًا حاسمًا في تقسيم منطقة نوردهافن، فإن الاستدامة في نوردهافن تتعلق بأكثر من مجرد تقليل استهلاك الطاقة؛ إذ يجب أن يأخذ كل مبنى يُشيَّد في الاعتبار تأثيره الاجتماعي والاقتصادي والبيئي. على سبيل المثال، فقد بُنيت إحدى صالات السينما من مواد قابلة لإعادة التدوير مثل الألومنيوم في حالة جرى هدم المبنى في وقت لاحق لأي سبب من الأسباب. كما ترتبط الاستدامة بالحفاظ على الماضي من خلال إعادة استخدام المباني القديمة لأغراض حديثة. فقد جرى تحويل مستودع من عام 1918م، إلى فندق صغير، وما كان مصنعًا للأسلحة إلى سوبر ماركت، وأُنشئ مبنى سكني فاخر مكون من 17 طابقًا مع مطعم عام في إحدى صوامع الحبوب مع المحافظة على هيكلها السابق بكل عناصره بما في ذلك سقفها الفولاذي.

ومما لا شك فيه أن مفهوم نوردهافن، بوصفه "مدينة الدقائق الخمس"، فريد من نوعه، وذلك على الرغم من وجود عدد قليل من "مدن الدقائق العشر" قيد التطوير في أنحاء مختلفة من العالم، ومنها واحدة في سيول بكوريا الجنوبية. ولكن يُعدُّ مفهوم نوردهافن المشروع الأكثر طموحًا في مجال التنمية الحضرية، وهو الوحيد على مستوى العالم الذي حصل على شهادة ذهبية للاستدامة من مجلس البناء المستدام الألماني (DGNB)، الذي يُعد أكبر شبكة للبناء المستدام في أوروبا.

وعلى الرغم من أن مشروع نوردهافن لن يكتمل قبل عام 2060م، فإنه يجري تطويره على مراحل، مع مناطق رئيسة مثل نوردو وآرهوسجاد ويكفارتيريت، التي أصبحت مكتملة بالفعل ومليئة بالحياة، يقطنها السكان المحليون ويقصدها السيَّاح. وقد جرى افتتاح امتداد مترو إلى نوردهافن في عام 2020م، وهو ما يوفر سهولة الوصول إلى وسط المدينة.

في أوائل القرن العشرين، عندما قال المصمم الدنماركي الشهير أرن جاكوبسن: "إن العمارة لا تقتصر على إنشاء المباني، بل إنها تتعلق بتشكيل البيئة وتحسين حياة الناس"، كان ذلك مجرد كلام نظري. ولكن بعد مرور قرن من الزمان، فكلُّ من يتجول حول مدينة نوردهافن، قد يجد ما يثبت ما أشار إليه المصمم الدنماركي، عندما يختبر بكل تفاصيل الإقامة فيها، وبحميمية العيش والتفاعل الاجتماعي مع البقال واللحام والموظفين على مختلف المستويات ضمن دائرة جغرافية ضيقة، كيف يمكن أن تكون العمارة، بالفعل، أحد العناصر المهمة لخلق بيئة حضرية أكثر سعادة.

اليَد

اليد هي الأداة التنفيذية لكل ما يصنعه الإنسان.
بها نأكل ونشرب ونلعب، ونزرع ونصنع، ونصافح ونحارب ونكتب، ونرسم ونبني ونهدم.
في هذا الملف، يتناول عزّت القمحاوي اليد بدءًا باعتمادنا على مهاراتها واستخداماتها المتعددة في حياتنا اليومية، إلى حضورها بدلالات لا حصر لها في الثقافة الإنسانية.

الصورة: عبدالله الشيخ

كان انتصاب الإنسان على قدميه وتحرير يديه قبل نحو مليوني سنة، مفصلًا بالغ الأهمية جعل كل أوجه تطوره لاحقًا أمورًا ممكنة. هذا ما يقوله علماء الأنثروبولوجيا، ويُضيفون أن انتصاب القامة وتحرير اليدين هو الفارق الثاني الأهم بين الإنسان والحيوان بعد فارق تطوُّر المخ. وإن شئنا الترتيب، ففي الغالب كان تطوُّر المخ الخطوة اللاحقة لانتصاب القامة واستخدام اليدين في العمل، وتعلمهما إشعال النار الذي أثمر الطبخ وكثَّف فائدة الطعام، وهو ما أتاح الشكل الجميل للإنسان بتقليص حجم البطن وتقليص الفكين، ومن ثَمَّ، أتاح اتساع تجويف الرأس الذي سمح بنمو المخ.

فمنذ العصور الحجرية الأولى، كان لليد فضل تفوق الإنسان على الحيوان في الصيد، من خلال قدرته على نصب الفخاخ واستخدام السلاح الحجري. لكن الفضل الأكبر والفارق الحاسم الذي صنعته اليد كان في قدرتها على الزراعة التي أتاحت الاستقرار في مجتمعات تتراكم فيها الخبرات. وبفضل تكامل المخ واليدين بدأت قصة الحضارة والبناء وتصنيع ما يحتاج إليه الإنسان.

فباليدين بنى الإنسان أهرامات مصر وسور الصين العظيم، وبهما ينقر اليوم برقة على مفاتيح الكمبيوتر. وبهما كتب ما يجول في ذهنه من أفكار، وبهما اعتنى بالحيوان وبهما يذبحه، وبهما أطعم طفله، وبهما قاتل الأعداء.

ومع كل تقدُّم في إنتاج الأدوات والآلات، كانت تقل الأعباء على اليدين في الأعمال الشاقة، من دون الوصول أبدًا إلى الاستغناء عنهما. حتى ليمكن القول إن إراحة اليدين كانت وراء آلاف الابتكارات والاختراعات، من الطباعة التي أراحت اليد من النسخ، إلى الرافعات التي أعفت الأيدي من حمل الأثقال. ولكن، كلَّما تقدم الإنسان في مسيرته الحضارية، وأعفى يديه من بعض الأعمال، كانت هناك مهمات جديدة لا يمكن القيام بها بغير اليدين.

وإضافة إلى الإنتاج، أدرك الإنسان منذ زمن غابر، أن لليد قدرة على التعبير في تواصله مع الآخرين من خلال إشارات بسيطة تعفي من النطق بكلمات كثيرة. فبها يصافح الآخرين، وبها يُهدِّد ويتوَّعد ويسفك دماء أعدائه.

ونظرًا لتعدد استعمالاتها وما تتركه هذه الاستعمالات من آثار عليها، صارت اليد صورة معبّرة عن صاحبها، وتحتل في هذا المجال المكانة الثانية بعد الوجه.

فما حقيقة هذا الطرف المرتبط بأجسامنا بواسطة الذراع؛ ليتمكن من القيام بكل هذه المهمات على اختلاف طبيعتها؟





البصمة..
لإثبات الحقيقة

البصمة هي الخطوط المتعرجة والأقواس التي تظهر على جلد الأصابع، وهي فريدة في شكلها عند كل إنسان، حتى عند التوائم المتطابقة. وتتشكَّل البصمة في مراحل مبكرة من عمر الجنين، تقريبًا بين الأسبوعين العاشر والخامس عشر من الحمل، طبقًا لعوامل جينية وبيئية، ولا تتغير بتقدم العمر، وهو ما يضمن الدقة في تحديد الهوية ويجعل الاعتماد عليها مستمرًا في تحديد هوية صاحبها.

وعلى الرغم من تطوُّر وسائل التحقق من الشخصية، مثل بصمة قزحية العين والبصمة البيولوجية الوراثية، تبقى بصمات الأصابع الوسيلة الرئيسة في البحث الجنائي. كما تُستخدم البصمة للتوقيع على وثائق الملكية، وعند التقدُّم بطلب تأشيرات العبور من دولة إلى أخرى، وتوقيعات حضور الموظفين وانصرافهم. وصارت، مؤخرًا، تُستخدم شيفرةً لفتح الأجهزة الحديثة، وحتى بعض الأبواب المصفّحة في إطار أقصى درجات التشدد فيمن يجوز له فتحها.

معجزة اليد

الصورة التشريحية لليد معجزة من معجزات الخلق، تتداخل فيها شبكات مُعقدة من ضفائر العضلات الداخلية والأعصاب والأوتار المرنة والعظام. في اليد 27 عظمة، و4 نهايات عصبية ومجموعتان من العضلات. كل ذلك يمتد ويتصل بعظام الساعد وعضلاته وأوتاره، ومن ثَمَّ، بالدماغ الذي يأمرها أن تفعل كذا وكذا.

وما تفعله اليد يبدو في حياتنا اليومية أمرًا اعتياديًا وبسيطًا جدًّا، مثل: ارتداء الملابس، وتسريح الشعر، وغسل الوجه، وتناول الطعام، وقيادة السيارة. ولكن، كيف يمكن لحياتنا اليومية أن تكون لو بُترت يدانا، أو تعذّر استخدامهما لعلة ما؟ عندها فقط سنعرف قيمة اليد على حقيقتها. ونظرًا لكثرة المهمات اليومية التي تؤديها، فمن الممكن أن تصاب اليد بأكثر من علّة، مثل التهاب المفاصل، وهو أكثر أمراض اليد شيوعًا عند كبار السن، أو "الباركنسون" الذي غالبًا ما تظهر أقوى عوارضه من خلال ارتجاف اليدين، أو تُصاب بالكسر نتيجة السقوط أرضًا.

وفي مسار الطب الحديث، أصبحت جراحة اليد تخصصًا فرعيًا ضمن جراحات العظام والتجميل والجراحات العامة. إذ ينبغي للطبيب إكمال سنة على الأقل من التدريب المتخصص في جراحات اليد، بعد الدراسة التي تُراوح ما بين خمس وسبع سنوات. كما تتطلب مزاولة المهنة الحصول على شهادة من المجلس الطبي المناسب.

وفي اليد تجتمع القوة اللازمة للبطش والدفاع عن النفس إلى الليونة التي تجعلها قادرة على التعامل مع أصغر الأشياء وأدقها. ربّما لا ننتبه في صحتنا إلى معجزة اليد. لكن عند إصابتها، ندرك حجم ما نعجز عن الوفاء به من مهامنا اليومية الاعتيادية.

فكل هذه المهام تتحوَّل إلى متاعب كبيرة تستدعي الاعتماد على الآخرين عند كسر اليد أو مرضها.

وكل ما يمكن أن تـتفتق عنه عبقرية الإنسان في دماغه، لا يمكنه أن يكون ذا فائدة لولا اليد التي تحوِّله إلى هيكل ملموس ومنظَّم قابل لإيصاله إلى الآخرين. وكما تطوَّر كل شيء عبر تاريخ الإنسان، تطوَّرت وظائف اليد، وتعاظم الاعتماد عليها، حتى إن الإشارات بها صارت جزءًا من لغات التواصل، لا بل يمكن القول لغات كاملة للتواصل عندما يعجز اللسان عن النطق أو الأذن عن السمع.



اقرأ القافلة: ملف "الوجه"، من العدد نوفمبر-ديسمبر 2010م.

عظام اليد

العظم الرسغي
العظم المربع المنحرف
العظم شبه المنحرف

الرسغ
العظم الكلابي
العظم الثلاثي
العظم الحمصي
العظم الكبير
العظم الهلالي

المشط
عظام الكف

السلاميات
السلاميات القصوى
السلاميات الوسطى
السلاميات الدنيا



فنون وصناعات تجميل اليد

الحناء وطلاء الأظفار والحلي

لأن اليد أول ما يراه الآخرون منا بعد الوجه، كانت محل تجميل منذ قديم الزمان، سواء أكان بالحلي أم بالخضاب وحسن تشذيب الأظفار وتقليمها.

الحناء

من بين كل أنواع التزيين قد تكون الحناء أعرقها. فهي زينة ضاربة في عمق التاريخ والعادات الاجتماعية. وتُعدُّ ثقافة شرقية بالأساس من الهند حتى بلاد المغرب العربي، حيث صارت رمزًا لمعانٍ متعددة جميلة، منها: الجمال والتقدير والفرح والبركة والحماية من الحسد. والحناء نبات تُطحن أوراقه الجافة، وعند الاستخدام تُخلط بالماء لتصبح عجينة يُخضَّب بها الجلد وتُترك لتجف عليه، فتبقى رسومها التي صارت فنًا. وقد جذب الغربيين كذلك بوصفه البديل الأفضل من الوشم الذي قد يسبب متاعب صحية، ويصعب التخلص منه لاحقًا.

يقال إن الفراعنة كانوا أول من عرفوا الفضل الطبي للحناء فاستخدموها في التحنيط، لكنها انعتقت من لحظة موت الرجال والنساء إلى اللحظة الأجمل في حياة المرأة؛ لحظة الزواج وبدء حياة جديدة. بعض المجتمعات تسبغ فرحة الحناء على العريس كذلك.

"ليلة الحناء" في التقاليد العربية والهندية، هي ليلة العروس، وهي الحفل الأساس للنساء القريبات من العروس وصديقاتها. وللحناء في كل البلاد العربية أغنياتها التراثية، كما هو الحال في الخليج العربي:

جيبو الليلة الحنة وحنّوها
هي ست العرايس زفّوها
جيبو الليلة الحنة للعروس
والذهب قلايد والملبوس
واجبلن بالحنة يا بنات
وشموع بديكن مضويات

كما دخلت الحنّاء في التراث الغنائي الرسمي بأغنية شادية الشهيرة، من ألحان بليغ حمدي، وكلمات مرسي جميل عزيز:

حِنة يا حِنة يا حِنة يا قطر الندى

وقطر الندى المقصودة هي ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون، التي حظيت بأفخم زفاف في التاريخ العربي، في زيجة سياسية بين مصر الطولونية والعراق العباسية؛ إذ زُفت إلى الخليفة المعتضد في بغداد.



رسوم لليد تظهر تطور أنماط العناية بها وتجميلها عبر التاريخ، من الحناء التي ظهرت في الألف الخامس قبل الميلاد، إلى طلاء الأظفار في القرن العشرين.

طلاء الأظفار

لأظفار اليد خطابها الخاص، منها ما هو خاص بثقافة محددة، كما كان الحال في الصين قديمًا؛ إذ كانت إطالة ظفر الخنصر دليلًا اجتماعيًا على الانتماء إلى الأرستقراطية، ومنها ما هو مشترك بين معظم ثقافات العالم، مثل طلاء الأظفار.

ثمَّة دلائل على أن طلاء الأظفار كان معروفًا في الصين منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. وكان أفراد الأسر المالكة يستخدمون اللونين الذهبي والفضي بشكل حصري. ومن ثَمَّ، حل الأحمر والأسود محل هذه الألوان المعدنية منذ أواسط الألفية الأولى قبل الميلاد.

وفي مصر الفرعونية، كانت الطبقات الدنيا تستخدم الألوان الباهتة في طلاء أظفارها، فيما كان الفراعنة يصبغون أظفارهم بالحناء الحمراء.

وثمَّة دلائل من عصور مختلفة تدل على شيوع طلاء الأظفار بلون محدد في فترة معينة، كما سجّل ذلك السياسي والرحّالة الإنجليزي فريدريك دوغلاس عند زيارته اليونان، ولاحظ أن كل النساء يطلين أظفارهنَّ بلون وردي.

بالقفز إلى العصر الحديث، يمكن القول إن طلاء الأظفار، بوصفه صناعة عالمية، يعود إلى باريس في عشرينيات القرن الماضي، عندما صنّع الفرنسي أنطوان دي باري باكورة الطلاءات الحديثة للأظفار.

ومع أن اللون الأحمر يبقى سيد الألوان المستخدمة في طلاء الأظفار، فإن تطوُّر هذه الصناعة بات يتيح طلاءات بكل الألوان، وبعشرات التفعيلات من كل لون. ووصل الأمر إلى ظهور فن الرسم على الأظفار، وتزيينها بحبيبات من الكريستال وما شابه.

وللدلالة على حجم هذه الصناعة في العصر الحديث، أشار تقرير صدر قبل عقد من الزمن، إلى أنه بلغ في الولايات المتحدة الأمريكية وحدَها 768 مليون دولار عام 2011م.

الحـلي والجواهر

غير أن أكبر الصناعات وأعرقها في مجال تجميل اليدين هي صناعة الحلي والجواهر، وتحديدًا الخواتم والأساور.

ولحلي اليد وظائف عديدة غير التجميل. فما من بيت في العالم إلا وفيه حلية لليد، حتى ولو اقتصر الأمر على خاتم واحد؛ لأن الخاتم في الإصبع صار إعلانًا عالمي الوضوح بأن صاحبه متزوج. وكان قديمًا للدلالة على المكانة المرموقة، يحمل رمزًا أو اسمًا، ويُستخدم للتوقيع.

فمن إجمالي حجم صناعة الجواهر في العالم، الذي بلغ نحو 300 مليار دولار في عام 2023م، استحوذت صناعة الخواتم على ما يُراوح بين 25% و30%، والأساور ما بين 10% و15%.

من ذاكرة القافلة: "الحناء.. زراعة وصناعة ودواء"، د. إسماعيل عبدالفتاح عبدالكافي، من العدد يوليو-أغسطس 1993م.





القفازات
بين الاستحسان والإلزام



نشأت صناعة القفازات مبكرًا جدًا من الوعي بوجوب حماية اليدين من المؤثرات الخارجية، ولجأ الإنسان إلى استخدامها لأسباب مختلفة، منها حماية اليد في المهن الشاقة، ومن البرد، وتزينًا لدى الطبقات الراقية في السلطة والمجتمع، ثم بوصفها ضرورة صحية.

وتكشف رسوم الكهوف عن قفازات بسيطة ارتداها البشر. ومن أقدم قفازات الرفاهية في التاريخ التي وصلت إلينا، قفازات الملك الصغير توت عنخ آمون (1323 -1343 ق.م). عُثر عليها في مقبرته المكتشفة عام 1922م، وكانت زوجًا مصنوعًا من الكتان الأنيق يُربط عند المعصمين، وعلى الأرجح كان الفرعون يستخدمهما عندما يركب عربته اتقاء لخشونة اللجام، أو هذا ما يفترضه مايكل ريدوود مؤلف كتاب "القفازات وصناعة القفازات"، الذي يعتقد أن هذه كانت البداية التي جعلت للقفازات أهميتها بالنسبة إلى الملوك ورجال الدين والقضاة في العصور الوسطى الأوروبية.

واستمر العالم في إنتاج القفازات من الأقمشة الفاخرة لتكملة الأزياء الرسمية عند النساء الأرستقراطيات، ومن الصوف والجلد للوقاية من البرد، ومن الألياف الصناعية الغليظة لحماية أيدي العمال في الصناعات الخشنة، وبطرز خاصة بسائقي السيارات والدراجات النارية تبقي الأصابع عارية للأعمال الدقيقة وتحمي المقود من تعرّق راحة اليد. أمَّا أضخم قطاع في صناعة القفازات وأهمها على الإطلاق، فهو قطاع القفازات الطبية.

تكلفة حماية اليد

خلال جائحة كوفيد - 19، بلغ الاهتمام بارتداء القفازات الواقية من العدوى ذروة غير مسبوقة، حتى إن بعض حكومات العالم فرضت ارتداءها في كل الأماكن العامة. ولهذا الشكل من حماية اليدين تاريخ يعود إلى ما قبل قرن ونصف من الزمن.

ففي بداية القرن التاسع عشر، لم تكن الكائنات الدقيقة قد اُكتشِفت بعدُ، وكانت بعض تشققات الأيدي وجروحها لا تندمل، وكان بعضها يسبب الموت. وساد الاعتقاد أن نوعًا من الهواء الفاسد يتسبب في هذه الجروح المميتة. هذه الظاهرة قادت إلى اكتشاف التعقيم عند منتصف القرن، بفضل الطبيب البريطاني الشهير جوزيف ليستر وآخرين. ولكن العاملين في المهن الطبية بقوا عرضة للعدوى على الرغم من استخدام المطهرات. وعانى كثير منهم آثارًا جانبية شديدة كالحساسية؛ فكانت القفازات الواقية هي الحل.

ويروي مقال في موقع لشركة متخصصة في هذه الصناعة (sritranggloves) القصة الشائقة لهذا التطور. ففي عام 1889م، أخبرت رئيسة الممرضات الجراحية في مستشفى جون هوبكنز، كارولين هامبتون، مشرفها الطبيب ويليام هالستد، بعزمها على ترك مهنتها بسبب المضاعفات الشديدة للمطهرات على جلدها أثناء المشاركة في العمليات الجراحية وبعدها. فما كان منه إلا أن أخذ قالبًا ليديها وأرسله إلى شركة جوديير للمطاط، لتُنتج عددًا من القفازات للممرضة وللطاقم الطبي بالمستشفى. وقد أشاد الجميع بالقفازات التي حمت أيديهم وحسَّنت من قدرتهم على الإمساك بالأدوات المبتلة.





من المتوقع أن يصل حجم تجارة القفازات إلى 50.58 مليار دولار أمريكي بحلول عام 2031م

إصبع الفداء

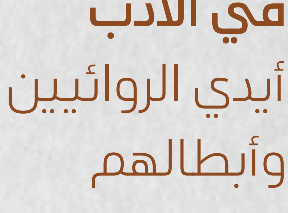
اليد هي التي تفعّل كل أسلحة الحروب، من السيوف والرماح، إلى أجهزة إطلاق القنابل النووية. ولكن في مواجهة اليد القاتلة، هناك حالة تاريخية تستحق أن تُروى حول إصبع الفداء.



فمن المعلوم في الجيوش الحديثة أنه إن فقد المرء إصبعًا واحدة، فإنه يفقد صلاحيته للتجنيد والحرب. وفي مصر خلال الاحتلال الإنجليزي، كان الفلاحون الخائفون من قسوة التجنيد لصالح الجيش الإنجليزي يعمدون إلى قطع السبابة أو السبابة والوسطى لإعفائهم من احتمالات عالية للموت في معسكرات العمل الشاق والحروب. وكانت الإصبع المقطوعة تُدثر في كفن صغير وتُفتح من أجلها المقبرة لتُدفن كما يليق بعضو راح فداءً لباقي الجسد. أمَّا الشاب الذي لم يكن يمتلك الجرأة لوضع إبهامه تحت ساطور الجزار، فقد كان مشهد رحيله عن البيت يشبه مشاهد تشييع الميت. يجتمع الأقارب في منزله، بينما يخرج المُستدعى لـ"الفرز" والفحص الطبي في منطقة التجنيد بصحبة أخيه أو أبيه. ويبقى الرجال في الانتظار جالسين، بينما تلتف النساء حافيات حول الأم في ملابس الحداد، وعندما يعود المرافق وحيدًا تهب عاصفة الصراخ، ولا تفتأ الأم تعدد على ولدها الغائب تعدادها على الميت.

بعد ذاك التاريخ، شاع استخدام القفازات الطبية، ومع زيادة الوعي بالصحة اتسع استخدام القفازات في مهن أخرى لحماية الأيدي وتحسين الخدمة في مهن مثل: الطبخ، وتقديم الطعام، وبيع الحلوى، والمخبوزات. واستُخدمت في صناعتها خامات عديدة مثل اللاتكس والفينيل. ويُقدِّر موقع (Data Bridge Market Research Private Ltd) حجم تجارة القفازات في العالم بمبلغ 24.65 مليار دولار أمريكي في عام 2023م، ومن المتوقع أن يصل إلى 50.58 مليار دولار أمريكي بحلول عام 2031م، بمعدل نمو سنوي مركب يبلغ 9.4%.

أمَّا فيما يتعلق بمراهم اليدين المستخدمة في الترطيب والحماية من الشمس أو العلاج بالروائح العطرية ومكافحة تجعّد البشرة، فيقُدَّر حجم سوقها العالمية استنادًا إلى موقع "غراندفيو ريسرتش" (Grandview research) بنحو 779.7 مليون دولار أمريكي في عام 2023م، ومن المتوقع أن ينمو بمعدل سنوي مركّب قدره 6.3% من عام 2024 م إلى عام 2030م. ويُعزى نمو السوق إلى زيادة وعي المستهلكين بنظافة اليدين وأهمية العناية بهما.



في الأدب
أيدي الروائيين وأبطالهم



صار بوسع البرامج الإلكترونية الحديثة أن تحول الكلمات إلى كتابة، وهذا ما صار يستخدمه صنّاع الفيديو على مواقع التواصل التي تكتب المنطوق تلقائيًا بأخطاء مضحكة أحيانًا. وحتى إن زادت دقة هذه الأجهزة، فمن غير المنتظر أن يستفيد الأدباء منها؛ لأن التفكير بالأيدي يجعل العلاقة بين الكاتب ونصه محسوسة وأكثر حميمية، خصوصًا في مجال الإبداع، سواء أتمسَّك الكاتب بالقلم أم تحول إلى استخدام لوحة مفاتيح الكمبيوتر.

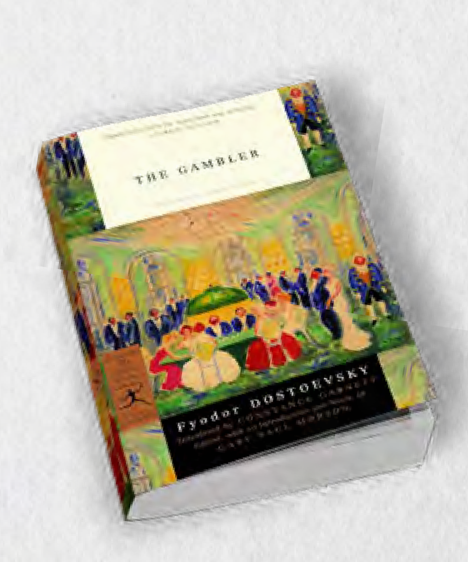
استعارة أيدي الآخرين

في حالات نادرة بسبب إعاقة في الأعصاب أو النظر، يضطر الكاتب إلى الإملاء، وهذا محض استعارة ليدي إنسان آخر، مثلما كان طه حسين يفعل بسبب العمى، ومثلما فعل دستويفسكي لسبب مختلف تمامًا.

كانت الديون قد تراكمت على العبقري الروسي، واضطر إلى توقيع عقد مجحف مع ناشر مرابٍ عام 1865م، أخذ بموجبه الناشر من الكاتب أعماله التي كتبها حتى ذلك الحين مقابل ثلاثة آلاف روبل، مشترطًا أن يكون بينها رواية جديدة، وأن تُسلم بنهاية ديسمبر وإلا تؤول كل حقوق أعمال دوستويفسكي إليه. وأخذ الموعد يقترب؛ فحاول أصدقاء الكاتب أن يساعدوه، حتى إنهم عرضوا عليه مشاركته في الكتابة. لكنه رفض رفضًا قاطعًا أن يضع اسمه على عمل لم يكتبه. عند ذلك عرض عليه أحدهم وهو معلم للكتابة بطريقة الاختزال أن يحضر إليه إحدى تلميذاته ليملي عليها، فتكتب النص بالرموز، وعندما تنصرف تسهر في بيتها على تحويل الإشارات التي تشبه صنارات الصيد إلى اللغة العادية وتعود بالنص إليه في اليوم التالي؛ فيدققه ويملي عليها فصلًا جديدًا. وبهذه الطريقة تمكن دوستويفسكي من إكمال رواية "المقامر".

تُشفي وتُسمم وترقص وتُحب

وأمَّا عن اليد في المكتوب، فهناك أيادٍ تحتل موقعًا مميزًا في السرد، ومن أهمها يدا الملك يونان والحكيم دوبان في "ألف ليلة وليلة" هذا النوع (اسم الحكيم في طبعات أخرى هو رويان). نلتقي هذه الحكاية في الليلة الرابعة من طبعة بولاق. كان الملك مصابًا ببرص عجز أطباء المملكة عن علاجه، حتى أقبل من بعيد الحكيم دوبان الذي صنع صولجانًا وفرَّغه وملأه بالأدوية، وصنع كرة وطلب من الملك أن يركب إلى الميدان، وأن يلعب بالكرة والصولجان حتى تتعرق يده، وبهذه الطريقة نفذ الدواء عبر يد الملك وشفي تمامًا؛ فقرَّب الحكيم منه وأجزل له العطاء مما أوغر قلب وزير شرير من وزرائه، فأخذ يوسوس له: "أما ترى أنه أبرأك من المرض من ظاهر الجسد بشيء أمسكته بيدك؟ فلا تأمن أن يهلكك بشيء تمسكه أيضًا".



بعد مقاومة، اقتنع الملك بالحجة وأخبر الحكيم بأنه مضطر إلى قتله؛ فاستمهله بعض الوقت ليودع أهله ويوزع كتبه ويأتي إليه بأهمها، وهو كتاب "أقل ما فيه من الأسرار إنك إذا قطعت رأسي، وفتحته وعددت ثلاث ورقات، ثم تقرأ ثلاثة أسطر من الصحيفة على يسارك، فإن الرأس تكلمك وتجاوبك عن جميع ما سألتها". وهذا ما حدث، فبعد أن أمر الملك بجز رأس الحكيم أخذه الفضول لتجربة الوصفة؛ فأتوا إليه بالرأس في طست، وبمجرد أن فتح صفحات الكتاب ولمسها، تسمَّم ومات. وقد استعار الروائي والمفكر الإيطالي أومبرتو إكو حيلة الكتاب المسموم في روايته "اسم الوردة"؛ إذ سمم الراهب المتزمت كتاب "الكوميديا" لأرسطو الذي حرَّمه على الرهبان، وكان هذا هو لغز الموت الغامض للرهبان، الذي انكشف في نهاية الرواية. والغريب أن الروائي الفيلسوف خصص كتابًا عن روايته بالغة الشهرة، تناول فيه الفكرة والتفاصيل والمصدر الذي ألهمه العنوان من دون إشارة من قريب أو بعيد إلى "ألف ليلة وليلة" بوصفه مصدرًا للحبكة التي بُنيت عليها.



رواية "الفهد" هي الوحيدة لكاتبها جوزيبه لامبيدوزا، وتدور أحداثها في فترة عدم استقرار من حياة إيطاليا، تحديدًا في عام 1860م، وتحكي عن بطلها الأرستقراطي المنعزل في قصره عندما كان غاليباردي يوحد إيطاليا ويقوِّض ملكية آل بوربون. ومن إحساسه بالعزلة والصمت في القصر، الذي كانت الحفلات لا تتوقف بين جنباته، أقام البطل الأمير "سالينا" رقصة "فالس" أبطالها الأصابع العشر لديه.

وفي روايته الجديدة "موعدنا في شهر آب"، التي نُشرت هذا العام بمناسبة عشر سنوات على رحيله، يصف غابرييل غارسيا ماركيز، لقاءً بين بطلة الرواية وأول الرجال الذين تُغرم بهم في كل زيارة لجزيرة تذهب إليها مرة في العام لتضع باقة زنابق على قبر أمها، وقد ارتاحت إليه وأحست أنها تعرفه منذ الأزل، ومن بين مميزاته: "أن له يدين صامتتين، ويزيد من صمتهما بريق أظفاره الطبيعي". مات ماركيز وفي نفسه شيء من "الجميلات النائمات" للياباني ياسوناري كاواباتا. في تلك الرواية يتلقى العجوز إيغوشي أول التحذيرات: "أرجو أن تتجنب المضايقات السمجة، لا تحاول وضع أصابعك في فم الصغيرة النائمة".

إلهام عقلة الإصبع!

من المدهش أن يتفق الأدب الشعبي، من اليابان شرقًا إلى بريطانيا غربًا، على اعتماد عقلة الإصبع (صغرى وحدات اليد) للإشارة إلى شخصية طفل متناهي الصغر. ومن الصعب تحديد الموطن الأول للقصص التي تحمل عنوان "عقلة الإصبع" لكنها نشأت، على وجه التقريب، في القرون الوسطى، حيث كانت تُروى شفاهيًّا.

تختلف تفاصيل قصة "عقلة الإصبع" من بلد إلى آخر من حيث طبيعة العقبات التي تقف في وجه ذلك الطفل العجيب، لكنها تنتهي دائمًا بانتصاره بالعقل والحيلة. ولذلك، فهي قصة ملهمة للأطفال والكبار. وقد استلهم بعض الكتَّاب الأصل الشعبي ودفعوا به إلى آفاق مختلفة، وأهمهم الدانماركي هانز كريستيان أندرسن (1805م – 1875م)، الذي كتب الشعر والرواية والمسرحية، لكنه لم يكتسب شهرته إلا من قصصه للأطفال، وبينها قصة "عقلة الإصبع". وكذلك فعل إيتالو كالفينو، الذي جمع القصص الشعبية من أقاليم إيطاليا المختلفة وأعاد تحريرها.



مجاز اليد في الشعر

لأنها أداة الفعل، صارت اليد في المجاز عنوانًا لكل أفعال الخير والشر؛ "يد الله فوق أيديكم" بمعنى التأييد والعون الإلهي. و"الأيادي البيضاء" كناية عن أيادي العطاء والجود، وفي هذا تكون اليد العليا خير من السفلى. وتشير "اليد العليا" كذلك إلى مجاز القوة والسيطرة، والأفضل أن نقول "اليد الطولى" لمنع الالتباس مع يد القوة والتفوق في أمر من الأمور. ونستخدم تعبير "الضرب بيد من حديد" مجازًا للحزم، واليد الخفية في تحريك شر أو جريمة، وفي "متناول اليد" للإشارة إلى شيء ممكن ونستطيع أن نحصل عليه.


امرؤ القيس.

وفي الشعر العربي تتجسَّد كل هذه المجازات. ففي معلقته، يمتدح أمير شعراء الجاهلية امرؤ القيس العطاء والأصابع اللينة الجميلة والكريمة بقوله:

وتَعْطـو برَخْصٍ غيرِ شَثْـنٍ كأنَّهُ أسـاريعُ ظَبْيٍ أوْ مساويكُ إسْحِلِ

فاليد في هذا البيت تعطي، وهي رخصة لينة غير خشنة، ودقيقة كأنها دود منطقة ظبي، أو كأعواد الإسحل التي تُصنع منها المساويك. قد يأبى بعضنا تصوير الأصابع بالدود، ولا بدَّ أنه جميل على عهدة الفارس الضليل.

وللهوى يدٌ، عند أبي فراس الحمداني، في صورة أعجبت أم كلثوم فتغنت بها:

إذا اللّيلُ أضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوى وَأَذلَلتُ دَمعًـا مِن خَلائِقِهِ الكِبرُ

ولم تخلّد يد العطاء في الشعر كما خُلّدت يد سيف الدولة ممدوحة، ويد كافور الإخشيدي مذمومة في مدونة أكبر شعراء العربية: المتنبي. إذ تظهر يد سيف الدولة عند المتنبي ممسكة بالسيف، أو بالدراهم التي يعم على الشاعر فضلها:

لِكُـلِّ اِمرِئٍ مِن دَهـرِهِ ما تَعَـوَّدا وَعادَةُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا

ويختتم المتنبي قصيدته بصراحة غريبة، معترفًا بأن حب سيف الدولة مستقر في قلبه بسبب ذلك العطاء الذي يغمره:

تَرَكتُ السُرى خَلفي لِمَن قَلَّ مالُهُ وَأَنعَلتُ أَفراسي بِنُعماكَ عَسجَدًا
وَقَيَّـدتُ نَفسـي في ذَراكَ مَحَبَّةً وَمَن وَجَدَ الإِحسـانَ قَيدًا تَقَيَّـدا

وعلى العكس من ذلك، نراه يهجو كافور الإخشيدي في قصيدته الهجائية "عيد بأية حال عدت يا عيد"، ويذكِّره بأنه لم يجد لديه جود اليد أو حتى جود اللسان، ويقول إن النفس غير الكريمة نتنة من قبل الموت، حتى إن نتنها يعلق بيده عند قبض روحها:

جودُ الرِجـالِ مِنَ الأَيدي وَجودُهُمُ مِنَ اللِسانِ فَلا كانوا وَلا الجودُ
ما يَقبِضُ المَوتُ نَفسًا مِن نُفوسِهِمِ إِلّا وَفـي يَـدِهِ مِن نَتنِـها عـودُ

وفي الشعر المعاصر

تتواصل مسيرة اليد الممدوحة والمذمومة في الشعر العربي إلى اليوم وغدٍ. في مؤتمر الموسيقى الأول بالقاهرة عام 1933م، ألقى أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة مدح فيها الملك فؤاد الأول، الذي كان قد افتتح نادي الموسيقى الشرقي قبل ذلك (في عام 1929م) ومطلعها:

خَطَّت يَداكَ الرَوضَـةَ الغَنّـاءَ وَفَرَغتَ مِن صَرحِ الفُنـونِ بِنـاءَ


نزار قباني.

ونرى الخيال ماديًا محسوسًا في لمسة اليد عند نزار قباني:

يدك التي حطت على كتفي
كحمامة.. نزلت لكي تشرب
عندي تساوي ألف مملكة
يا ليتها تبقى ولا تذهب



الأمير بدر بن عبدالمحسن.

ولليد التي تجذب قوس الموسيقى نصيبها من المديح. ففي قصيدته "ربابة"، يُفصِّل الأمير بدر بن عبدالمحسن اليد تفصيلًا دقيقًا:

يا جـاذب القـــوس..
قطعت كل العروق.. إلا وتر
وكل الجبــال.. إلا الحـجـر
وكل الطعـوس.. إلا الأثـر..
وجرحتني.. جـرح الربــابـة
يـا فتـى الجـــود..
وبين السبـابة.. والإبهـام
احبس القلب ثم أطـلقه
صوتٍ أحسه وأعشقه

وكثّف محمود درويش لحظة اقترابه من الموت في "جدارية"، التي ارتفع بها شعره إلى آفاق عليا من الترميز لمعاني الوجود والشفافية التي جعلت السماء قريبة:

هذا هو اسمك
قالتِ امرأة
وغابتْ في الممرِ اللولبي
أرى السماء هناك في متناولِ الأيدي



محمود درويش.

في الأمثال

هناك عشرات من الأمثال الشعبية العربية التي تتعلق باليد في لهجاتنا المختلفة، وتكشف ليس فقط عن أهمية هذا العضو في الجسم، بل يمكن من خلالها قراءة شكل المجتمع في معتقداته وطرقه في الاحتيال على العيش والسلامة، منها على سبيل المثال:

"اليد اللي ما تقدر تعضها بوسها"، لتلافي مواجهة خصم غير مقدور عليه.

"الإيد البطالة (العاطلة) نجسة"، لنبذ البطالة والحث على العمل.

"زي اللي بيقلع عينه بإيده"، للدلالة على من يجلب الأذى لنفسه. وهو يذكرنا بالمثل العربي الفصيح: "يداك أوكتا وفوك نفخ".

"عصفور في اليد أحسن من عشرة على الشجرة"، للخوف من المغامرة، ووجوب القناعة بما هو متوفر.

"إيد على إيد رحمة"، للتعاون.

"يد من فضة ويد من ذهب"، لوصف الشخص المنتج بشكل جيد.

"من بيده ماء ليس كمن بيده نار"؛ أي لا يشعر بالمصيبة أو المشكلة إلا صاحبها.

"اليد الواحدة لا تصفق"، لوجوب التعاون مع آخرين في إنجاز عملٍ ما.

في الفن
من جدران الكهوف إلى اللوحة المعاصرة





لوحة "بصمة يد" لسالي مورغان.

احتلت اليد على الدوام مكانة محورية في فن الرسم، ولربَّما كان رسم الأيدي أقدم الأعمال الفنية على الإطلاق. فقد عُثر في كهف سولاويزي في إندونيسيا على رسوم تمثّل أيدي الإنسان منفّذة بطريقة وضع اليد على الجدار ورشّ ما حولها بطلاء ملوّن، وتعود إلى ما قبل 40 ألف سنة.

ومن دون أي تواصل معلوم ما بين إندونيسيا والأرجنتين في ذلك الزمن، ظهر الفن نفسه وبالتقنية نفسها من خلال عشرات بصمات الأيدي المطبوعة على جدران كهف لاس مانوس في الأرجنتين، وتعود إلى 11 ألف سنة خلت.



لوحة ليوناردو دا فنشي.

في الحضارات القديمة، كانت الأيدي تُرسم بواسطة خطوط تحدد إطارها، ويُطلى ما هو داخل هذه الخطوط بلون واحد، فتبدو اليد خالية من العمق وكأنها ذات بعدين فقط. وكان على تاريخ الفن أن ينتظر عصر النهضة الأوروبية ودراسة تشريح اليد على أيدي ليوناردو دا فنشي وميكل أنجلو؛ ليصبح رسم اليد واقعيًا. ولربَّما صحّ القول أجمل من الواقع كما نرى في موناليزا ليوناردا، ولوحات رافائيل، وتماثيل ميكل أنجلو. حتى إن هذه الدراسات لليدين وما تتضمنه من عظام وعضلات أصبحت أعمالًا خالدة تُباع اليوم بعشرات الملايين.

باكتمال البراعة التقنية في رسم اليد، تحوّل اهتمام الفنانين إلى تحميل وضعية اليدين خطابًا يشير إلى هوية صاحبهما، كما نرى في لوحة "المرابي وزوجته" للفنان كوانتان ماتسيس، وفي أعمال معظم الأساتذة اللاحقين من أمثال: كارافاجيو، وروبنز، وبوشيه، وفراغونار.

وفي العصر الحديث، يستمر حضور الأيدي بوصفها موضوعات رئيسة في أعمال عديدة، من أغربها ما يشبه العودة إلى الجذور الأولى، مثل لوحة الفنانة الأمريكية سالي مورغان، التي صممت "بصمة يد" من رقائق ذهبية في عمل شبيه ببصمات اليد في العصر الحجري.



لغة اليدين

من الكلمة الواحدة إلى الخطاب الطويل

نعرف اليوم أن الإبهام المرفوع فوق القبضة يعبّر عن تأييد أمرٍ ما، أمَّا إذا كان موجهًا إلى أسفل القبضة، فهذا يعني عدم الرضا. ولكن كان لهاتين الإشارتين بالإبهام دلالات تتجاوز الرضا وعدمه. فعلى حلبات المصارع في روما القديمة، كان الحكم على المهزوم يحدث بالإشارتين أنفسهما في صفوف الجماهير، ومن ثَمَّ يختار الحاكم الحاضر إحداهما ليقوم بها. فكان الإبهام المرفوع إلى الأعلى دعوةً أو أمرًا بالعفو عن المهزوم، والعكس أمرًا بالإجهاز عليه.

والمعاني التي يمكن للإشارات باليد أن تنطوي عليها أكثر من أن تُحصى، وما زالت تتطور حتى عصرنا هذا. فبإشارة من اليد يُمكننا أن نأمر شخصًا بالاقتراب، وبعكسها نأمره بالانصراف. ويمكن لإشارة أخرى أن تكون بديل أسئلة من نوع: ماذا؟ متى؟ أين؟

وتُعزى إلى ونستون تشرشل حركة التفريق بين الوسطى والسبابة في شكل حرف V اللاتيني للإشارة إلى النصر (Victory)، وقد صارت هذه الإشارة مفهومة ومعتمدة عالميًا. ومن بين أعراف الحرب يبدو رفع اليدين فوق الرأس إشارة إلى الاستسلام والقبول بالهزيمة ووضعية الأسر. ومن دون هذا التحييد لليدين يظل المحارب خطرًا على الخصم.

لغة الإشارات

ينسب أفلاطون في كتابه "كراتيلوس" إلى سقراط قوله: "لو لم يكن عندنا لسان وصوت، لما كنا حاولنا أن نعبّر لبعضنا البعض عن الأشياء بإشارات بواسطة تحريك الأيدي...؟". والواقع، أن جماعات الصم والبكم كانت طوال التاريخ المعروف تستعين بالإشارات للتواصل فيما بينها. وتطوَّرت هذه الإشارات لتصبح لغات كاملة باستخدام اليدين فقط، وذات أبجدية مؤلفة من حركات اليدين، حيث تمثّل كل حركة صوتًا من أصوات الأبجدية. وبواسطة واحدة من "لغات الإشارة" هذه، على سبيل المثال، كان المستكشفون الأوربيون يتحاورون مع السكان الأصليين في القارة الأمريكية في السنوات الأولى لوصولهم إليها. ولغة الإشارة ليست واحدة، بل تختلف من بلد إلى آخر، وإن تشابهت جزئيًا في بعض الحالات. أمَّا عدد المتحدثين بها، فيصعب احتسابه بدقة، وإن كان يُقدّر بعشرات الملايين. فاستنادًا إلى "الاتحاد الدولي للصم"، يبلغ عدد هؤلاء في العالم نحو سبعين مليون نسمة، ويعتمد غالبيتهم على لغات الإشارة للتواصل مع الآخرين.

الإيموجي

بعض الإشارات باليد تتضمن التعبير نفسه في الثقافات المختلفة، أو يسهل فهمها والاعتياد على مضمونها. ولهذا نراها وقد تحولت إلى علامات عابرة للحدود في التواصل الإلكتروني، تغني عن كثير من الكلمات. ومن أكثرها شيوعًا واستعمالاً على سبيل المثال:


استحسان


استهجان


تحية



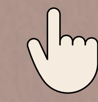

مؤازرة





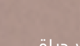

تهديد


مسايرة

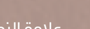

انظر إلى أعلى




انظر إلى أسفل



ما باليد حيلة


اتفقنا


علامة النصر



بطولات الأيدي في السينما

لأن الفن محاكاة للواقع، تبدو اليد في الأفلام جزءًا أساسًا من الوجود الإنساني، تُستخدم بتلقائية في الفعل وفي التعبير عن المشاعر والانفعالات، لكنها تتخطى هذا الوجود الاعتيادي في بعض الأفلام وتتقدَّم لتحتل دور البطولة. وتنتمي هذه الأفلام في العادة إلى طرفين متناقضين من الوجود: الجريمة والجمال. فالحبكة في الأفلام البوليسية تتعلق بالمهارة في التصويب، كما تتطلب الأفلام التي تقوم حبكتها على الموسيقى مهارة الدقة والليونة في اليد؛ إذ تعدُّ مهارة الأصابع البرهان البصري على جمال الموسيقى، فماذا لو اجتمعت أصابع الموسيقى والجريمة في الفيلم؟!

في ذاكرة السينما عدد من الأفلام التي لا تُنسى، تقوم حبكتها على مهارات اليد. وفي معظم هذه الأفلام يحتكر البيانو دور البطولة. ويمكننا أن نفسر هذا الانحياز بصريًا؛ لأن المساحة الواسعة للوحة مفاتيح البيانو تُتيح استعراض حركة الأصابع في الصورة، أكثر من أي آلة موسيقية أخرى، ويقابله القانون في التخت العربي. ويتطلب البيانو يدين كاملتي الخلقة، وجميلتين بأصابع ممشوقة. أمَّا آلات النفخ والطبل والوتريات، فلا تتطلب الكمال في الأصابع، لكنها لا تستغني عنها.

نستطيع كذلك أن نفكر في الحضور الفيزيائي للبيانو، بحجمه الكبير وانفصاله عن جسد العازف كتحدٍ يفرض عليه وضعية الجلوس مشدودًا ومنتبهًا على مقعد من دون ظهر، بعكس أغلبية الآلات التي تُحتضن وتكون جزءًا من جسم العازف، مثل: الكمان والعود والأكورديون، أو تُحتضن باليدين وتتصل بالفم كما في الترومبيت والناي والشبَّابة.

يد تعزف ويد تحمل السلاح!

في الفيلم الدرامي الأمريكي "الأصابع - 1979م" (Fingers) يتلخص وجود البطل الشاب جيمي أنجليلي في أصابعه؛ إذ بسبب مهارته في استخدام أصابعه ويده تحول اسمه إلى جيمي فينجرز. فقد وجد ذلك الشاب نفسه عالقًا بين انتمائه إلى والده عضو المافيا، وأمه عازفة البيانو غريبة الأطوار. هو الفيلم الأول للمخرج جيمس توباك الذي أنشأ مواجهة بين عزف البيانو وتصويب المسدس في يد جيمي فينجرز، الذي كان يُعد نفسه لعرض في قاعة كارنيجي ذات الهيبة الموسيقية الكبيرة، ولكن الأحداث فرضت عليه أن يذهب جهة الانتقام والتورط في عالم المافيا. وقد أعيد إنتاج الفيلم في فرنسا في عام 2005م تحت عنوان "الخفقة التي تخطاها قلبي" (The Beat That My Heart Skipped).

رهاب الأصابع

وفي فيلم يحمل العنوان نفسه "أصابع" عام 2019م، للمخرج خوان أورتيز، نواجه رعب الخوف من تشوه الأصابع الذي تعانيه أماندا، التي ترى في كوابيسها أن أصابعها مشوهة، قبل أن تلتقي في الواقع بزميل مبتور الإصبع.

الطريف أن هارفي كيتل بطل فيلم "الأصابع" الأول، يعود فيأخذ دورًا رئيسًا آخر في فلم "البيانو - 1993م" (The Piano)، الذي يدور حول عازفة بيانو بكماء من القرن التاسع عشر، على الساحل الغربي لنيوزيلندا. وقد حقق الفيلم بأجوائه النفسية المذهلة نجاحًا تجاريًا ونقديًا كبيرًا، وفاز بثلاث جوائز أوسكار: أفضل ممثلة لهولي هنتر، وأفضل ممثلة مساعدة لآنا باكوين (ثاني أصغر طفلة تفوز بالأوسكار بعد تاتوم أونيل)، وجائزة أفضل سيناريو أصلي. واستقر الفيلم بوصفه واحدًا من الأفلام المهمة في تاريخ السينما. ويشغل

البيانو محور الصراع في هذا الفيلم؛ إذ نرى العازفة البكماء يقلّها مركب صغير في البحر مع ابنتها الصغيرة والبيانو في طريقها إلى زوج لم تختره. وفي لحظة استقبالها، يقرر الزوج بكل فظاظة أن يترك على الشاطئ البيانو الذي تتمحور حوله حياة البكماء.

بداية كهذه لا بدَّ أن تمهِّد لقصة حب مع أول رجل يعيد إليها روحها المتروكة على الشاطئ. وهذا ما حدث بالفعل، وأثمر هذا التعارف حبًا؛ فكان العقاب من الزوج قطع إصبع وإرساله مع الصغيرة إلى العشيق، مع التهديد: كل لقاء بينهما سيكون ثمنه قطع إصبع جديد. الأعماق النفسية المظلمة التي دخلها هذا الفيلم تبدو سمة في سينما الأجواء الباردة والسماوات المظلمة.

العقوبة نفسها نجدها في فيلم آخر هو "حوريات "أنشرين"، (The Banshees of Inisherin)، الذي يجري في جزيرة خيالية بأيرلندا تدعى إنشرن، وهو من إنتاج 2022م. وتدور أحداثه في عشرينيات القرن الماضي في أيرلندا، وهي فترة شديدة الاضطراب بالحرب الأهلية، لكن هذه الجزيرة المعزولة كانت تعيش حربها الخاصة في الأعماق المظلمة للأبطال، حيث لا يمكن فهم علاقات الأب بالابن، ولا الأخ بالأخت، ولا الصديق بالصديق.

فبعد أن فشل عازف الكمان المسن في إقناع صديقه الشاب بالابتعاد عنه، نفّذ العقوبة بنفسه على نفسه؛ إذ قطع إصبعه، وألقى بها على باب كوخ الشاب، مع تحذيره: كل محاولة جديدة للحديث إليَّ سأرد عليها بقطع إصبع إضافية.

يقوم الممثل بريندان غليسون بدور عازف الكمان المسن (كولم دوهرتي)، في حين يقوم بدور الشاب (بادريك سوليفان)، الممثل كولين فاريل. ويجسد مشهد قطع العازف لإصبعه صراعه النفسي المرير بين رغبته في العزلة وحماية نفسه من ألم صداقة لا يعرف المشاهد عمقها المظلم، إلا من خلال ألم قطع الإصبع الذي يشوّه به العازف جسده ويدمر به طموحه الفني.

اليد مادة للشعوذة

الغيب في علم الله وحدَه. ولكن هذه الحقيقة الإيمانية لم تمنع الناس في مختلف أنحاء العالم من السعي في معرفة ما قد يخبئه المستقبل، فنشأت صناعة تاريخية تزعم معرفة المستقبل من خلال تفسير خطوط وتموجات راحة اليد: "قراءة الكف". وهذه الشعوذة واحدة من الممارسات القديمة والمستمرة، ومصدرها غير معروف. لكن الموسوعة البريطانية تُرجح أن تكون قد نشأت في الهند في إطار الكهانة التقليدية للغجر، ومن الهند انتشرت إلى الصين والتبت وفارس وبلاد ما بين النهرين ومصر، وشهدت تطورًا كبيرًا في اليونان القديمة.

في العصور الوسطى، صارت قراءة اليد ممارسة سيئة السمعة بوصفها عملًا من أعمال السحر، وكان قرّاء الكف يُعاقبون بالحرق. ثم شهد القرن السابع عشر محاولة لوضع أسس تجريبية لمبادئ قراءة الكف استنادًا إلى المعارف التي كانت متوافرة آنذاك. ولكن هذه المحاولة انتكست في عصر التنوير، ثم عادت لتنتعش شعبيًا في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، في توازٍ مع انتعاش دراسات علم النفس، من قِبل أتباع كارل يونغ وآخرين.

لا توجد شواهد علمية تدعم الادعاء بإمكانية التقاط معنى تنبؤي أو نفسي من اليد، لكن زعم ذلك يتغذى من قلق الإنسان وفضوله، ويلجأ كثيرون من الأوساط المختلفة للمنجمين، بهذه الدرجة أو تلك من السرية أو العلانية. ومهما كان الأمر، فالخوف من المستقبل والفضول بشأنه هما القاعدة النفسية التي تضمن بقاء هذه الممارسة التي تحقق للبعض ثروات عندما يبتسم له الحظ ويجد طريقه إلى أصحاب الثروة والنفوذ، بينما تبقى بديلًا للتسول في الشوارع عند غير الموهوبين. وبين المحظوظين وغير المحظوظين من قرّاء الكف، تقف في المنتصف طائفة كبيرة من مؤلفي الكتب حول هذا الموضوع، يكرر بعضها محتوى البعض الآخر، وتُصنف دائمًا بين الأكثر مبيعًا. ومن بين هذه الكتب الصادرة بالإنجليزية: (Palmistry: How to Chart the Lines of Your Life) "قراءة الكف: كيف تحدد خطوط حياتك؟"، و(The Complete Book of Palmistry) ويمكن أن نترجمه على طريقة العناوين التراثية العربية بـ"الكتاب الوافي والعلم الكافي في قراءة الكف"، وهناك كتاب (Talk to the Hand: A Field Guide to Practical Palmistry) "الحديث إلى اليد.. الدليل العملي لقراءة الكف".





العزف تحت التهديد

بعكس أصابع التضحية وأصابع العقاب، تأتي أصابع الفداء، حيث تتوقف حياة العازف وزوجته الممثلة الشهيرة على إجادته للعزف، في الفيلم الإسباني الناطق بالإنجليزية "البيانو الكبير - 2013م". ففي واحدة من الحبكات الخرقاء والمقنعة في الوقت نفسه، مثل حبكات هتشكوك، يضع المؤلف داميان شازيل والمخرج يوجينيو ميرا، البطل في امتحان رهيب؛ إذ يتلقى تهديدًا مكتوبًا على نوتاته الموسيقية من قناص مختفٍ في المسرح يهدده مرة بالتصويب عليه، ومرة بالتصويب على رأس زوجته الجميلة الجالسة في الصف الأول بين المشاهدين، إذا ما أخطأ في عزف حركة واحدة.

الأكثر إثارة في الحبكة أن العرض كان الأول للعازف الأمهر توم سيلزنيك بعد خمس سنوات من التوقف بسبب رهاب الظهور أمام الجمهور. فإذا هو يُوضع في هذا الامتحان المضاعف، حيث يخاطبه القنّاص طوال الوقت وتتراقص دائرة القتل الحمراء على جبهته ويديه ولا تبتعد عنه إلا ويراها على جبهة زوجته في الصالة. ولم تُحسم المواجهة لصالح الموسيقي بسبب مهارة أصابعه على البيانو، بل عبر مطاردة مع القناص في كواليس المسرح. لكنها مهارة الأيدي في النهاية.

ولا يمكن أن تنتهي متلازمة البيانو والأيدي من دون فيلم "عازف البيانو – 2002م" من إخراج رومان بولانيسكي، وتأليف رونالد هاورد، عن سيرة العازف البولندي فلاديسلاف شبيلمان، الوحيد الذي نجا من عائلته بعد ترحيلها إلى معسكرات النازية بفضل مهارته. فقد اختفى العازف لبعض الوقت في شقة خالية تملكها أسرة تدين له بالفضل، فأقدمت على هذه المخاطرة من أجله، وبعد أن صار هو ومضيفوه في خطر، ترك مخبأه وعاش متنقلًا في البنايات المهجورة حتى قبض عليه ضابط ألماني، لكنه تعاطف معه بعد أن عرف أنه العازف الذي كان يسهر على موسيقاه في الراديو. وقد جمع هذا الفيلم بين سعفة "كان" وأوسكار أفضل مخرج وأفضل ممثل وأفضل سيناريو مقتبس.

في ذم اليدين!

"الأيدي الناعمة" أحد أشهر الأفلام الكلاسيكية في السينما المصرية، أخرجه محمود ذو الفقار عام 1963م، عن قصة لتوفيق الحكيم، ومن بطولة أحمد مظهر وصلاح ذو الفقار وصباح ومريم فخر الدين وليلى طاهر. وتدور قصته حول ثري نزعت حركة الضباط في يوليو 1952م أملاكه باستثناء القصر الذي يعيش فيه معدمًا لا يستطيع التكيف مع العهد الجديد، متمسكًا بمعتقداته القديمة باعتبار عمل النبلاء عارًا. الفيلم من إنتاج المؤسسة العامة للسينما التي أنتجت عددًا من الأفلام الأيديولوجية، واضحة في توجهها إلى ذم العهد السابق، وبعضها على درجة فنية عالية مثل فيلم "الزوجة الثانية" على سبيل المثال، وبعضها تحول في وعي الجمهور إلى الكوميديا مع الزمن، مثل "a" و"رد قلبي" الذي يبثه التلفزيون سنويًا، وصارت حواراته الدرامية مصدر عدد من النكات ومدعاة لسخرية مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي.

بديل العين

أن يعيش الإنسان من دون حاسة أساسية مثل حاسة البصر؛ فلا بدَّ أن تشتد حواسه الأخرى. البديل الذي يتحمل العبء التعويضي الأكبر هو السمع، وتليه حاسة اللمس، حيث يستطيع الأعمى القراءة ولعب الشطرنج بيديه، والتحرك في نطاق محدود بالتلمس والعصي الحديثة. وفي السينما، يعتمد المخرجون عادةً على ممثل مبصر يتظاهر بالعمى، حيث يمكن توجيه الممثل بسهولة في موقع التصوير، وعادةً ما تميل الأفلام إلى تصوير النموذج الخارق من العميان: الأعمى الذي يقوم بأعمال ينتصر بها على إعاقته. ويعدُّ الفيلم الأمريكي "عطر امرأة - 1992م" (Scent of a Woman) للمخرج مارتن برست، الأشهر في هذا المجال، وهو الفيلم الوحيد الذي نال آل باتشينو فيه أوسكار أفضل ممثل.

وفي السينما العربية، يقف فيلم المخرج داود عبدالسيد "الكيت كات" في مكان وحدَه، بمهارة السيناريو والإخراج وبالأداء الرائع لمحمود عبدالعزيز، الذي أدى دور الشيخ حسني الأعمى الذي لا يعترف بعماه. ولم يكن دور الشيخ حسني بهذا الطول في رواية إبراهيم أصلان "مالك الحزين" التي اقتبس منها داود فيلمه. طوال الفيلم يتحرك محمود عبدالعزيز خلف يديه المرفوعتين في مستوى صدره. بهما يتلمس الطريق، وبهما يقود الدراجة النارية، وبهما يكشف علاقة سرية بين رجل وامرأة، وبهما يتلمس وجه ابنه فيكتشف وسامته وشبابه.



الإبل والثقافة

AramcoWorld

بمناسبة مرور 75 عامًا على انطلاق مجلة "أرامكو وورلد"، ترافق هذا العدد نسخة مترجمة من عدد "الإبل والثقافة" الصادر عن المجلة، نهديها للمشتركين احتفاءً بالعلاقة الخاصة التي يحظى بها هذا الكائن في ثقافة الجزيرة العربية. كما يمكنكم متابعة جديد موقع مجلة القافلة الذي ينشر ترجمة بعض المقالات المختارة من "أرامكو وورلد" من حين لآخر.

لزيارة موقع مجلة أرامكو وورلد

لطلبات الاشتراك الخاصة باستلام الأعداد المطبوعة من مجلة القافلة، ولإلغاء اشتراك أو تحديث البيانات الخاصة به، يُرجى التواصل معنا عبر البريد الإلكتروني للمجلة: alqafilah@aramco.com

توزع مجانًا للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية ص.ب 1389 الظهران 31311 المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني:
Alqafilah@aramco.com

الموقع الإلكتروني:
Qafilah.com



مجلة ثقافية منوعة تصدر كل شهرين - العدد 708 | يناير - فبراير 2025

